أفكار
AFKAR

ملف العدد

كتابة تاريخ الأردن

حزيران 2021 | العدد 389
ثقافية شهرية -تصدر عن وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية منذ 1966

وتستمر المسيرة

389

للنشر في مجلة أفكار تأمل هيئة تحرير المجلة من الكتاب مراعاة ما يلي:

• ترسل المادة المطبوعة الكترونياً مشفوعة بصورة عن الهوية الشخصية، أو صورة لجواز السّفر لغير الأردنيين على عنوان البريد الإلكتروني للمجلة.

• ألا تكون المادة قد نشرت سابقاً

• ألا يتجاوز عدد كلمات المادة 2000 كلمة في حدها الأقصى.

• الصور المرسلة للمادة يجب أن تكون عالية الدقة والوضوح على أن لا تقل عن 1 ميجا بايت.

• هيئة التحرير هي الجهة المخوّلة بقبول المادة للنشر أو الاعتذار عن عدم نشرها.

• تحتفظ المجلة بحقها في التصرف بالمواد التي تنشرها ويشمل هذا الحق الطباعةالورقية والنشر الإلكتروني، ولا يجوز إعادة نشر مواد مجلة «أفكار» دون إذن مسبق من هيئة تحرير المجلة.

• يرسل الكاتب اسمه الثلاثي، واسم الشهرة الذي يُعرف به، ورقمه الوطنّي (للكتّاب الأردنيين)، ونبذة من سيرته الذاتية (للمرة الأولى فقط).

• يرفق مع المواد المترجمة نبذة عن سيرة مؤلف النص المترجَم، والإشارة إلى المصدر المترجَم عنه.

• يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية فقط.

مجلة أفكار

مجلة شهرية ثقافية
تصدر عن وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية

389 / حزيران 2021

الموقع الإلكتروني لمجلة أفكار:
http://www.afkar.jo
كما يمكن تصفّح المجلة على موقع الوزارة:
www.culture.gov.jo
المراسلات باسم رئيس التحرير:
E.mail: afkar@culture.gov.jo
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة:
(1090) 2010 / د
العنوان البريدي:
الأردن - عمّان ص.ب: 6140
الرمز البريدي: 11118

رئيس التحرير / **د. يوسف ربابعة**
مديرة التحرير / **مجدولين أبو الرُّب**
سكرتيرة التحرير / **منال حمدي**

هيئة التحرير / **د. حكمت النوايسة**
/ **د. خلدون امنيعم**
/ **يوسف ضمرة**
/ **سامح المحاريق**

الإخراج الفنّي / **هزار مرجي**
رسومات الغلافين الأمامي والخلفي / **الفنان عمر العطيات -الأردن**

المـواد المنشـورة في هـذا العـدد تعـبّر
عـن رأي كتّابهـا، ولا تعـبر بالـضرورة
عـن رأي المجلـة.

ملف العدد / **كتابة تاريخ الأردن**

مفتتح 4

ملف العدد:
كتابة تاريخ الأردن 6

دراسات
ومقالات 77

إبداع 117

نوافذ ثقافية 124

المحتويات

4 **المفتتح** / أزمة الكتابة التاريخيّة الأردنيّة بعد المئويّة الأولى / د. مهند مبيضين

ملف العدد / كتابة تاريخ الأردن

7 مقدمة الملف / كتابة تاريخ الأردن- تأمُّلات على أعتاب المئوية الثانية للدولة / مديرة التحرير

9 العبور إلى المستقبل في كتابة تاريخ الأردن: نظرة في المَصادر والتَّوثيق / د. هند أبو الشعر

13 كُتُب الرحّالة الأجانب كمصدر لكتابة تاريخ الأردن المعاصر / د. جورج طريف

22 إمارة الشرق العربي: رحلات ومشاهدات عربيّة (1921 – 1945م) / كايد مصطفى هاشم

35 مصادر جديدة لدراسة تاريخ الأردن / د. أمجد ممدوح الفاعوري

41 محمد عدنان البخيت مؤرِّخًا / د. عليان الجالودي

50 سليمان الموسى: شخصيَّته ومنهجه / د.حسين علي محافظة

54 الشيخ المُعلّم عبدالكريم غرايبة و"إنارات فريدة" / د. أمجد أحمد الزعبي

59 علي محافظة- هند أبوالشعر- نوفان السوارية: صُوَرٌ عن قُرب / د. عبدالله مطلق العساف

69 القدس في مؤلَّفات الأردنيّين: عرض لكتب التاريخ / د. رياض حمودة ياسين

دراسات ومقالات

78 الشرُّ والظَّلام في الخيال وعلاقتهما بالواقع / ترجمة: آرام ملكاوي

82 شارع الحمّام في السّلط: سحر المكان وعبق التراث / ذكريات حرب

90 تشظّي الاختراق: بين لغة التّصوُّف والبحث/ د. شريفة بنزايد

97 المكتبات التاريخيّة في القدس العتيقة / عرفة عبده علي

100 شخصيّات إعلاميّة: الإعلامي عدنان الزعبي / عامر الصمادي

109 **حوار العدد** / الشاعرة العُمانيّة عائشة السيفي / حاورها: جعفر العقيلي

إبداع

118 سِجَالُ الذَّات- شعر / محمود الشلبي

119 لوحة لشهريار- شعر / عبدالكريم أبو الشيح

120 صباح شتوي غائم- نص / هشام بنشاوي

123 كحبل غسيل- نَصّ / عماد مدانات

124 **نوافذ ثقافية** / محمد سلام جميعان

مفتتح

أزمة الكتابة التاريخيّة الأردنيّة بعد المئويّة الأولى

د. مهند مبيضين*

ليست كتابة التاريخ في الأردن مُنتَج دولة، ولا صناعة أيديولوجيّة خاصة بها، فالحكم منذ قيام الإمارة لم يشأ صناعة نصوص تثبّت شرعيّته، ولم يكن قلقًا بهذا الجانب، فلديه ما يكفيه من رمزيّة التاريخ والسلالة الحاكمة والدَّور العروبي والإرث، ولعلَّ السؤال المهم اليوم هو: هل نكتب تاريخًا في الأردن مواكبًا لتطوُّر المعرفة التاريخيّة العالميّة وتطوُّر مدارسها أم لا؟

حَكَمَ الأردن الأمير عبدالله بن الحسين ثلاثة عقود من القرن العشرين، اجتمع له فيها علاقات وطيدة مع نخبة عربيّة، ولم يكن أقلّ ثقافة ومعرفة منهم، بل كان مشاركًا في التأليف سواء في المذكرات أو المؤلفات التراثيّة، وكان بلاط الأمير -آنذاك- مقصدًا للأحرار العرب ورجال الحركة العربيّة، أمثال خيرالدين الزركلي ويوسف ياسين ومحب الدين الخطيب وعارف العارف ونبيه العظمة وفخري البارودي وغيرهم.

لم تكن عمّان عاصمة الدولة الناشئة تُجاري دمشق أو بغداد أو القاهرة أو حلب أو القدس أو نابلس، لقد أخذ الأمير المؤسِّس على عاتقِه همَّ بناء دولة من موارد بسيطة في بقعة جغرافيّة فيها بلدات كبرى مثل السلط والكرك وعجلون، ولم تكن عمّان إلّا أقلّ من تلك البلدات حجمًا ونموًّا حضريًّا، وكان التعليم شحيحًا وعدد السكان ضئيلًا وأغلبهم من البدو والفلاحين وعددهم لا يتجاوز مئتي ألف.

هذا الواقع انعكس على الثقافة وتطوُّر المعارف، ويكفي أنْ نعودَ لحوليّة الثقافة العربيّة لساطع الحصري ودراسات علي محافظة عن تاريخ التعليم وتطوُّره كي نرى حجم محدوديّة المعارف وانتشارها، ومع ذلك وصل الأردنيّون مثل غيرهم من أبناء الحواضر العربية، ولكن بدرجة أقل، للمدارس العثمانيّة في دمشق وإسطنبول، وعملوا في الإدارة العثمانيّة والجيش. وفيما بعد وبعد الاستقلال الأردني عام 1946 بدأت حركة تعليم نشطة، وفي عهد الملك حسين بن طلال 1999-1952 تطوّرت المعارف وانتشر التعليم بشكل كبير وكان له أثرٌ على حركة الكتابة التاريخيّة التي كان لها روّادها أمثال الأمير المؤسس في مذكّراته وروكس العزيزي في مدوّناته ومذكّراته ومحمد الأسد وخيرالدين الزركلي وعارف العارف، وكل هذا كان قبيل الاستقلال الأردني عام 1946 واستمرَّ لاحقًا وشهد أكبر تحوُّلاته على يد جيلٍ ثانٍ أمثال سليمان الموسى وعلي محافظة ورؤوف أبوجابر وعدنان البخيت ومصطفى الحياري وغيرهم.

* **أستاذ التاريخ في الجامعة الأردنية**

ومدير عام مركز التوثيق الملكي الأردني الهاشمي

mohannad974@yahoo.com

إنَّ الحديث عن كتابة التاريخ، يجب أن يدخلنا في صميم البحث عن المعرفة التاريخيّة المنتجة في الأردن، واتجاهاتها ونوعيّة البحوث، وعلائق المؤرِّخ بالدولة، وعلاقة الأردنيين بماضيهم، القريب والبعيد، وكيف تعاملوا معه، وكيف نظروا إليه، بهزائمه وانتصاراته، بتفاصيل اليومي والسياسي والاجتماعي والثقافي، وكيف يحضر ويُستدعى، وكيف تشكَّل في اللحظة المؤسسة للبدايات، التي ظهرت في كتابات عن الدولة ككيان سياسي باسم "حكومة الشرق العربي"، وهي لحظة فارقة وذات أبعاد عروبيّة ووطنيّة تبدّت في مؤتمر أم قيس في أيلول 1920، وفي محطات لاحقة مع لحظة الإمارة، والمعاهدة الأردنية البريطانية، ثم زمن المملكة في الاستقلال فالنكبة فالتعريب فالنكسة فالكرامة فالتحوُّل الديمقراطي عام 1989 وصولًا إلى التاريخ الرّاهن.

في بناء سرديّات الدول المطوَّلة تحتاج الشعوب إلى توافق على التاريخ، ولا يوجد كبير اختلاف على المسار العام في الأردن لسياقات الشرعيّة والتاريخ، لكن هناك مفاصل وتواريخ وموضوعات غابت، أو غُيّبت بقصد أو دون قصد، هذا ما نشهد إثارته في السنوات الأخيرة، من صعود الرّغائب نحو كتابة تاريخ المدن والمذكرات والأنساب والعائلات، وما يصدر عن الأردن في الغرب من مؤلفات جديدة، في ظلّ طفرة وثائقيّة كبيرة.

إنَّ ولادة التاريخ العلمي في الدوائر الأكاديميّة منذ العام 1962 أو الكتابة بدعم الدولة وعبر مؤسسات المعرفة، لم تحُل دون كتابة موازية من قِبَل أفراد ومراكز بحثيّة، ذلك أنَّ التاريخ العلمي في الجامعات دارَ دورةً علميّةً بحتة، وظلَّ وفيًّا للتوثيق والتاريخ المنضبط بقواعد العلم، والخط الزمني السياسي.

لذلك، وفي بلد اتَّسم بالاستقرار السياسي، ليس من المناسب أن يطغى التاريخ الحَدَثي السياسي على تاريخ الناس، الذي كان محلّ اهتمام قليل من قِبَل باحثي الدوائر الأكاديمية أو خارجها، إذ تباعد تاريخهم عن تاريخ دولتهم، فأُهمِلت بعض الأزمنة، ووجدت محطات مموّهة غير مكتوب فيها، ومنها أحداث عديدة لا تبدأ بالحركة الوطنيّة وثوراتها في زمن الإمارة احتجاجًا على العلاقة مع بريطانيا، أو مع ربيع العام 1956 ولا تنتهي بأحداث 1989 وما بينهما أحداث أيلول الأسود، هذا على صعيد الحدث السياسي، أمّا فيما يتصل بالهويّة والمجتمع والعادات والأمراض والجوع والسجون وغيرها، فظلّ هذا النوع من التاريخ الجديد بعيدًا عن الأعمال التاريخيّة الرسميّة المنضبطة بإيقاع المنهج العلمي أو تاريخ الدولة الرسمي، الذي نهضت به أعمال تاريخيّة زامنت عصر الإمارة، وقد نتج عن ذلك إشكاليّات عدة يطول شرحها. لكن الثابت اليوم أنَّ الكتابة التاريخيّة في الأردن قلّما توزي أو تتعرَّض أو نجد فيها تأثيرًا لمدارس التاريخ العالميّة كالحوليّات الفرنسيّة والوضعانيّة الألمانيّة أو مدرسة التاريخ الجديد التي تركّز على الذهنيّات. هذا للأسف هو الغائب الكبير الذي انعكس على مُنتج المعرفة التاريخيّة الأردنيّة وأضعفها في السنوات الأخيرة، وهذا هو عنوان أزمتها بعد مئة عام.

كتابة تاريخ الأردن

Photo Hisham Zayadnh on Unsplash

د. هنـد أبـو الشـعر / د. جـورج طريـف / كايـد مصطفـى هاشـم /
د. أمجـد ممـدوح الفاعـوري / د. عليـان الجالـودي / د.حسـين عـلي محافظـة /
د. أمجد أحمد الزعبي / د. عبدالله مطلق العساف / د. رياض حمودة ياسين

مقدمة الملف

كتابة تاريخ الأردن...
تأمُّلات على أعتاب المئوية الثانية للدولة

جاءت جهود المؤلِّفين الروّاد الذين كتبوا عن تاريخ الأردن الحديث عبر مبادرات فرديّة محكومة بمحدوديّة المصادر والوثائق المتاحة، ناهيك عن الافتقار إلى منهجيّة أكاديميّة علميّة، وهو الأمر الذي اختلف بعد تأسيس الجامعات والمراكز الأكاديميّة. وهنا يتوجَّب التمييز بين الدراسات الأكاديميّة المنهجيّة وما يُنشر من كتب تحت مسمّى "تاريخ الأردن"، فالمنهجية مطلوبة في كتابة التاريخ؛ بمعنى الاعتماد على المنهج العلمي في التعامل مع المعطيات التاريخيّة التي توفرها المصادر.

وإذْ تفتح هيئة تحرير مجلة "أفكار" ملف "كتابة تاريخ الأردن" فإنها تُدرك أنَّ الإحاطة بهذا العنوان الضخم والمهم تحتاج إلى ملفات، بيد أنَّ ما نقدّمه هنا هو محاولة أوّليّة تضافَرَتْ فيها أوراق الملف لتقيِّم حال كتابة تاريخ الأردن عبر المئويّة الأولى للدولة، ولتلقي الضوء على مصادر كتابته من رحلات الرحالة الأجانب والعرب، والسجلات والوثائق... ومن جانب آخر تعرِّف هذه الأوراق بأبرز الجهود في مجال كتابة تاريخ الأردن.

استهلَّت الدكتورة هند أبوالشعر الملف بتوطئة دعت فيها إلى كتابة التاريخ للجيل القادم بمنهجيّة يتقبَّلها ويفهمها، لأنَّنا نكتب للمستقبل، ولا يجوز لنا أنْ نستمرَّ في الكتابة بلغة القرن التاسع عشر أو العشرين. وتوقَّفت أبوالشعر عند تجربة التَّوثيق في "كتابة تاريخ الأردن"؛ فهي ترى أنَّ ما كُتب في تاريخ الإمارة والمملكة الأردنيّة الهاشميّة استُخدمت فيه مصادر محدَّدة، وتدعو لإعادة كتابة هذه المرحلة التأسيسيّة في حياة الوطن، ولكن مع التَّجديد بالبحث عن مصادر جديدة وتحليلها، لتقديم فهم جديد لهذه التجربة الجمعيّة التي نتشارك جميعًا بها.

وعن مؤلّفات الرحّالة بوصفها مصدرًا من مصادر كتابة التاريخ الأردني، قام د.جورح طريف برصد الكتب التي ألّفها رحّالة أجانب زاروا الأردن، ويرى أنه على الرّغم من أهميّة المعلومات التي توفرها كتب الرِّحلات إلا أنه يتعيَّن على الباحث التعامل مع هذا المصدر بحذر شديد ودقة متناهية؛ ويرى أنَّ من الضروري للباحث في هذه الكتب إخضاعها لمنهج البحث العلمي التاريخي ومقارنة المعلومات الواردة فيها مع غيرها من المصادر ومع ما يتمّ الكشف عنه من وثائق تاريخية بين الحين والآخر لتصبح الفائدة أعمّ وأشمل.

أمّا الباحث كايد هاشم فقدَّم خمسة نماذج من نصوص رحلات عربية إلى شرقي الأردن في عهد الإمارة، كتبها مثقفون من ذوي النزعة القوميّة العربيّة الصريحة، تبيّن ملامح اجتماعيّة وجوانب عمرانيّة مختلفة من حياة الناس وأحوالهم، وتمثل خطابًا نهضويًّا يضيء مقوّمات التحرُّر والاستقلال والتقدُّم في الدولة الأردنيّة وهي في طور النشوء والتشكُّل.

وكتب د.أمجد الفاعوري عن "مصادر جديدة لدراسة تاريخ الأردن" وأكّد على أهمية فتح باب السجلّات، وإتاحتها للباحثين والطلبة (سجلّات المحاكم الشرعيّة ودفاتر الطابو وسجلّات التسوية وسجلّات الأديرة والكنائس والأوراق المحلية ودفاتر مقررات المجالس البلدية والوقفيات والمدارس)؛ حيث تساعد هذه المصادر على تقديم الرُّؤية المحلية المباشرة التي كانت تغيّبها دراسات التاريخ التي تعتمد الوثائق الغربية فقط. وتمثلت هذه التجربة بتحقيق وطباعة ونشر هذه السجلّات المتنوعة والتي تكتنز بتفاصيل الحياة اليومية، وتحمل الخصوصية التي لا نجدها عادة في المصادر التقليديّة.

يعرض هذا الملف لسيرة وجهود مؤرخين أردنيين كانت لهم بصمات مميزة في كتابة تاريخ الأردن، وهذا لا يعني بأيّ حال أنَّ صفحات المجلة المحدودة يمكن أن تُحيط بالجهود المميَّزة للمؤرخين الأردنيين عامّة، فثمّة أسماء لم تُفرد لها مادة مستقلّة، وإنَّما جاء التَّنويه بجهودها في سياقات مختلفة، وهناك أسماء لم تحضُر في الملف لأعلام قدّموا الكثير في هذا المجال؛ ونحن في هيئة تحرير مجلة أفكار لا ندّعي أننا أوفينا الجميع (الأفراد والمؤسسات) ما يستحقون من تعريف بجهودهم، ونرحّب بالكتابات الجادّة حول أعلام كتابة تاريخ الأردن، والمراكز والمؤسسات الرصينة ذات العلاقة، لتُنشر هذه الكتابات على صفحات المجلة في أعداد قادمة.

في هذا الملف كتب د.عليان الجالودي عن "محمد عدنان البخيت مؤرِّخًا"، وتأمّل د.حسين محافظة في شخصية ومنهج "سليمان الموسى"، كما قدّم د.أمجد الزعبي مادة حول الشيخ المُعلّم عبدالكريم غرايبة ومشروعه "إنارات فريدة"، أمّا د.عبدالله العساف فقدَّم شهادة تحمل صورًا عن قرب لكلٍّ من: "علي محافظة- هند أبوالشعر- نوفان السوارية".

ولم يغب عن البال، عند الإعداد لهذا الملف، الجهود الأردنيّة في الكتابة عن تاريخ القدس؛ فلا يمكن إغفال الدَّور الأردني المؤسّسي والفردي في التوثيق لتاريخ مدينة القدس السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ وينبع هذا الاهتمام من الحرص على حماية تاريخ المدينة وصون هويّتها الدينيّة والحضاريّة أمام ممارسات الاحتلال الساعية لتغيير شخصيّتها التاريخية عبر طمس المعالم وتبديل الحقائق وخلق واقع ثقافي وسياسي جديدين فيها لنفي أصالتها والعبث بهويّتها. كما اعتنى المؤلفون الأردنيون بصورة خاصة بموضوع الإعمار الهاشمي لمدينة القدس من منطلق الدَّور الأردني منذ مئة عام في الحفاظ على الأماكن الدينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة في المدينة، وفي ذلك يقدِّم د.رياض حمودة عرضًا للمؤلَّفات الأردنية عن تاريخ القدس.

مجدولين أبوالرُّب
مديرة التحرير

العبور إلى المستقبل في كتابة تاريخ الأردن نظرة في المَصادر والتَّوثيق

د. هند غسان أبو الشعر *

تدعو د.هند أبوالشعر للتوقُّف عند تجربة التَّوثيق في "كتابة تاريخ الأردن" وتقييمها، لوضع الرُّؤية المستقبليّة التي يجب علينا أن نرسِّخها ونعمل على تطويرها في المئويّة الثانية، وترى أنَّ البحث عن مصادر جديدة لإعادة كتابة تاريخ المئويّة الماضية مسألة أساسيّة، فما كُتب في تاريخ الإمارة والمملكة استُخدمت فيه مصادر محدَّدة. كما تدعو لإعادة كتابة هذه المرحلة التأسيسيّة في حياة الوطن، ولكن مع التَّجديد بالبحث عن مصادر جديدة وتحليلها، لتقديم فهم جديد لهذه التجربة الجمعيّة، على أن يتمّ تطوير الأدوات وتحديث التقنيات، لتتناسب مع خطابنا للجيل القادم.

إضاءة

بعد مرور قرن تام على نشوء الدولة الأردنيّة، فإنَّ من الواجب التوقُّف عند تجربة التَّوثيق لهذه التجربة وتقييمها، لوضع الرُّؤية المستقبليّة التي يجب علينا أن نرسِّخها ونعمل على تطويرها، في كتابة تاريخ الأردن في المئويّة الثانية التي نحتفل هذا العام بها. وابتداء أحبُّ قبل أنْ أتناول تقييم تجربتنا في كتابة تاريخ المئويّة الأولى أنْ أتوقَّف عند المفاصل الآتية:

أوَّلًا: علينا أن نكتب للجيل القادم بمنهجيّة يتقبَّلها ويفهمها، لأنَّنا نكتب للمستقبل، ولا يجوز لنا أنْ نستمرَّ في الكتابة بلغة القرن التاسع عشر أو العشرين.

ثانيًا: هذه الرُّؤية تجعلنا نُطوِّر المنهج، ونفكِّر بعقليّة القادم ونستوعب بالتالي التطوُّرات التقنيّة التي فرضت نفسها على الأجيال كافة، فلا نقبل أنْ يبقى المؤرِّخ خارج إطار التقنيات، ليكتب بلغة ما قبل الثورة التقنيّة، وهذا يتطلّب إتقانه لكلِّ ما هو جديد وتطويعه لإثراء تجربته.

* **أديبة وأكاديمية ومؤرخة أردنية**

habushaar@gmail.com

ثالثًا: البحث عن مصادر جديدة لإعادة كتابة تاريخ المئويّة الماضية مسألة أساسيّة، لأنَّ ما كُتب في تاريخ الإمارة والمملكة الأردنيّة الهاشميّة استُخدمت فيه مصادر محدَّدة، ونحن مع الدَّعوة لإعادة كتابة هذه المرحلة التأسيسيّة في حياة الوطن، ولكن مع التَّجديد بالبحث عن مصادر جديدة وتحليلها، لتقديم فهم جديد لهذه التجربة الجمعيّة التي نتشارك جميعًا بها، على أن يتمّ تطوير الأدوات وتحديث التقنيات، لتتناسب مع خطابنا للجيل القادم.

رابعًا: ما زالت المصادر المحليّة غير مدروسة، فسجلّات ملكيّة الأرض والطابو والتسوية لم تَدرس مرحلة الإمارة، ولا مرحلة المملكة الأردنيّة الهاشميّة، مع أنَّ هذا المصدر هو مفتاح كلّ الدِّراسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فإذا لم تُفتح هذه السجلّات للبحث الجاد والتحليلي، فإنَّ كل ما يُكتب في الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة يظلُّ حالة هامشيّة وبعيدًا عن الدقّة، وهذا المصدر يحتاج لباحث جاد ورصين، ولديه القدرة على التحمُّل، ومن تجربتي باستخدام سجلّات الطابو العثمانيّة أجد أنَّ من الضرورة بمكان استمراريّة دراسة ملكيّة الأرض وعلاقتها بالزراعة وبالطبقات الاجتماعيّة في عهد الإمارة، خاصة وأنَّ ملكيّة الأرض شهدت تجربة (تسوية الأراضي) التي غيَّرت من حالة المشاع التي كانت تحدُّ من استخدام الأرض وتطوير استثمارها، ومع الأسف، فإنَّ سجلّات التَّسوية ما زالت محفوظة في دائرة الأراضي بلا تصنيف، وقد مرّ عليها أكثر من ثمانين عامًا دون أن تتمّ دراستها بالمنهجيّة المطلوبة، وأعتبرُ أنَّ التوجُّه لدراسة هذا المصدر سيُحدث ثورة حقيقيّة في كتابة تاريخ الأردن ما بعد عام 1935م وحتى اليوم، شريطة أن يتمّ استخدام الإحصاءات وتطويع الأرقام والأشكال البيانيّة للمنهجيّة الجديدة في كتابة هذا المحور المفصلي في حياتنا.

خامسًا: إنَّ الجهود الفرديّة هي الغالبة على التَّأريخ للأردن، وغالبيّة ما يُكتب يندرج تحت دراسات لنيل درجات الماجستير والدكتوراه، وهذا حسن، لكنّه لا يمثِّل خطًّا متَّصلًا، فغالبيّة الباحثين يعملون للحصول على الدرجة العلمية ولا يحفرون في مسارهم بعُمق، وغالبًا يكون همّ التَّرقية ونشْر الأبحاث المُحكّمة في مجلّات غير متداولة بصورة شعبيّة هو الهاجس الذي يحرِّك فئة الباحثين الذين تبذل الجامعات جهودًا أكاديميّة لكي يحصلوا على المنهجيّة المطلوبة التي تؤهِّلهم للكتابة في التاريخ، وهذا التوجُّه في الكتابة يستحقّ التَّقييم لتطويره.

سادسًا: لا بدَّ من وجود توجُّه مؤسَّسي لوضع خطٍّ متَّصلٍ للتأريخ للأردن، ومع أنَّ لدينا مؤسسات أكاديميّة وبحثيّة، لكنَّها مثل الجُزُر المعزولة، ولا توجد استراتيجيّة مشتركة ووطنيّة لرسم مثل هذا التوجُّه وتنفيذه، وهذا يحتاج لقرار على مستوى فعّال، علمًا بأنَّ بعض المؤسسات تبنَّت خطة ونشرت مجموعة من الكتب في التأريخ للأردن مثل مؤسسة آل البيت.

سابعًا: مع أنَّني مع هذا التوجُّه لتفعيل دور المؤسسات الأكاديميّة والبحثيّة، لكنَّ المشكلة الدائمة في مثل هذا العمل المؤسّسي ارتباط المؤسسات بالأشخاص، وهذا هو عيب العمل الإداري في الوطن في نصف القرن المنصرم، إنَّ المؤسسات لا تعمل بروح

المؤسسة، بل بسلطة المدير الذي تنتهي بمدّة إدارته خطط المؤسسات، وغالبًا لا يقوم المدير بتدريب مَن يخلفه من الصف الثاني، وهذه المشكلة عيب كبير في كل العمل المؤسسي ولا نستثني المؤسسات البحثية والأكاديمية.

ثامنًا: مراكز التوثيق لدينا محدودة جدًا، واعتمدت على جهود فرديّة، ولا توجد لها خطط مستقبليّة، والأساس أن تكون مراكز متطوِّرة ومنفتحة على المتغيّرات الجديدة، ففي الوقت الذي يتم فيه تحديد كيفيّة الإفادة واستخدام الوثائق والسجلّات من قِبَل الإدارات، يجد الباحث اليوم أنها متاحة على الشبكة العنكبوتية، وبلا مقابل، فعند بحثي عن السالنامات الناقصة لديّ، وفرحتي بالحصول عليها من خلال زيارتي للأرشيف العثماني، فوجئت بأنها متاحة بلا مقابل وبلا سفر في جامعة "ميغيل" بكندا على موقعها.. وأمّا المكتبة الوطنيّة فتحتاج لرؤية جديدة وتطوُّر تكنولوجي متقدِّم لتكون في الموقع المتقدِّم في التوثيق والحفظ لمنجزاتنا وتراثنا.

التَّجربة خلال مئة عام

سأوجزها بنقاط لئلا أتجاوز المساحة الممنوحة لي:

1- كان أقدم ما كُتب في تاريخ الأردن ما قدَّمه الأرشمندريت بولص نعمان في التأريخ للأردن سنة 1922م، لكنَّ كتابه غير منشور، وتبعه الزركلي في "عامان في عمّان" إلّا أنَّ تجربة الكتابة الجادة في تاريخ الأردن كانت سنة 1935م عندما ألَّف الكولونيل "بيك" باشا وهو رجل عسكري، كتاب (تاريخ شرق الأردن وقبائلها) وقام بتوثيق أصول العشائر على أرض الأردن بحسب الرِّواية المحليّة، ونعتبره أوَّل مَن دوَّن الرواية المحليّة للسكان على أرض الإمارة.

2- يمكن اعتبار التأريخ ما قبل نشوء الجامعات والمراكز الأكاديمية حالة فرديّة، وكان سليمان الموسى الذي قدَّم جهودًا كبيرة ومُقدَّرة دون أن يكون لديه تدريب أكاديمي ومنهجي، حالة خاصة، فقد حفر بالعمق وبشكل متتابع، كما كان لكلّ من البدوي الملثم وروكس بن زائد العزيزي وعيسى الناعوري دورهم في هذا الخط الذي يمثل الجَمْع بين الأدب والتأريخ.

3- نقطة التحوُّل كانت بإنشاء الجامعة الأردنيّة وتأسيس قسم التاريخ وحضور مجموعة مميّزة من الأساتذة العرب من المؤرّخين المشهود لهم بالتفوُّق، وتبع ذلك تأسيس الدراسات العليا عام 1972م، ومنح درجة الماجستير لطلبة القسم، وفي الوقت نفسه تمّ تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات الذي وفّر للدارسين فرصة ذهبيّة بتصوير السجلّات والوثائق التي تخصّ تاريخ بلاد الشام بما فيها الرسائل الجامعيّة من العالم كله، كما تزامن هذا مع عقد أوَّل مؤتمر لتاريخ بلاد الشام الذي يُعتبر علامة فارقة في كتابة تاريخ بلاد الشام بعامّة والأردن على وجه الخصوص.

4- تبع هذه الخطوات التأسيسيّة، فتح جامعات أردنيّة جديدة؛ اليرموك ومؤتة والهاشمية وآل البيت والحسين، وكلها أسهمت في رفد حركة البحث والتأليف في تاريخ الأردن، ونتوقف هنا عند ما يأتي:

- ارتبط الاتِّجاه بالبحث في تاريخ الأردن بدراسة الدكتور يوسف الغوانمة لتاريخ الأردن في العهد المملوكي، ودراسة الدكتور محمد عدنان البخيت لدرجة الماجستير بدراسة مملكة الكرك في العهد المملوكي أيضًا وذلك في الستينات من القرن العشرين،

في حين استمرَّ الدكتور غوانمة بالبحث في تاريخ إربد والحفر في العهد المملوكي توجَّه الدكتور البخيت نحو العهد العثماني وقدَّم دراسات من خلال السجلّات العثمانية لبعض النواحي في لواء عجلون في القرن السادس عشر الميلادي، وكانت أولى الدِّراسات في تاريخ الإمارة للدكتور علي محافظة من خلال الوثائق الغربيّة والجريدة الرسميّة، وتبعه الدكتور محمد محافظة بدراسة تاريخ الإمارة، والدكتور محمد الصلاح بدراسة تاريخ الإدارة في أوَّل توجُّه لدراسات جزئيّة، وهي خطوات تأسيسيّة تستحق التقدير.

- كانت الخطوة الراسخة بالتوجُّه نحو دراسة تاريخ الأردن مع التسعينات من القرن العشرين بقيام مجموعة من طلبة الدكتوراه في الجامعة الأردنيّة بتوجيه من المشرف الدكتور محمد عدنان البخيت بدراسة قصبات الأردن في العهد العثماني (عمان، السلط، إربد، الكرك، معان، البلقاء، عجلون) وتميَّزت هذه الدراسات بالجمع بين المصادر وفتح سجلّات المحاكم الشرعيّة وسجلّات الطابو وسجلّات الكنائس والمذكرات وكتب الرحلات، وكان طلبة الدكتوراه هم نوفان الحمود السوارية، وجورج طريف داود وهند أبوالشعر وعليان الجالودي ومحمد سالم الطراونه، وقد نُشرت هذه الرَّسائل، وكانت أساسًا لمجموعة لاحقة من الرَّسائل الجامعيّة التي حذت حذوها، وشكَّلت أرضيّة صلبة لمنهجيّة جديدة في كتابة تاريخ الأردن، وبدأت دراسة تاريخ الأردن تأخذ المنحى الأكاديمي.

وأحبُّ هنا أن أنوِّه بدور المؤسسات في نشر هذه الرسائل ومنها وزارة الثقافة والبنك الأهلي وجامعة آل البيت، كما أنَّ لوزارة الثقافة في مشروعها الرائد (مكتبة الأسرة) الدور الأكبر في تعميم هذه الكتب التي تصل إلى القارئ بأقل الأسعار وأفضل المواصفات الفنيّة.

- من المفاصل الرَّئيسة في ربع القرن الماضي نشر وتصنيف وثائق الديوان الملكي ضمن "سلسلة الوثائق الهاشمية" والتي وصلت اليوم إلى أربعين مجلدًا وثَّقت لتاريخ الأردن في عهد الملك المؤسس من 1921م- 1951م، وقد بدأ المشروع عام 1993م، وما زال مستمرًا بإشراف الدكتور محمد عدنان البخيت وإعداد وتصنيف هند أبوالشعر، ويقوم على جمع وتصنيف الوثائق ونشرها في محاور دون التدخُّل في الوثيقة، وهذه خطوة منهجية تقدَّم فيها الوثائق مصنَّفة للباحث، وهي حالة فريدة في الوطن العربي، ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه الوثائق في الديوان الملكي تمثل أيضًا وثائق الدولة، وهي وثائق رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية وغيرها من الوزارات، لأنَّ أرشيف الديوان الملكي يضمّ كل المراسلات بين الديوان ومؤسسات الدولة، ممّا يوفر للباحث فرصة ذهبيّة لا مثيل لها.

وختامًا، فإنَّ هذه المفاصل التي أوردتُها هي محطات تستحق الدراسة التفصيليّة، ومع أنَّ هناك بعض الجهود الفرديّة في دراسات تاريخ الأردن من غير المختصين في دراسة التاريخ، إلّا أنَّ بعضها أخذ طابع تلميع العشائر أو الجهات؛ وهو وإن كان يحمل صفة التوثيق إلّا أنَّ الحاجة لتقديم الدراسات الموضوعيّة والمنهجيّة والمستقبليّة هي الحالة المطلوبة، والتي تقوم على دور المؤسسات الأكاديميّة والبحثيّة، وهي كثيرة، خدمةً للوطن الذي يستحق منّا كلنا توظيف جهودنا الفكريّة والعلميّة، وكلّها جهود تصبّ في كتابة تاريخ الوطن وتوثيق جهود الأجيال بمسيرة المئويّة التي نعتزُّ بها ونعزِّزها.

كُتُب الرحّالة الأجانب كمصدر لكتابة تاريخ الأردن المعاصر

د. جورج طريف*

تظلُّ كتب الرحّالة من المصادر الأساسيّة لدراسة تاريخ منطقتنا بحيث لا يستغني عنها أيّ دارس أو باحث في تاريخ الأردن. لكن، وعلى الرّغم من أهميّة المعلومات التي توفّرها كتب الرِّحلات إلا أنه يتعيَّن على الباحث التَّعامل مع هذا المصدر التاريخي والجغرافي وحتى الأدبي بحذر شديد ودقة متناهية؛ إذْ نجد بينهم مَن يجانب الحقيقة أحيانًا بقصد أو بغير قصد، أو مَن يسيء فهم الأحداث التي شاهدها. ومن الضروري للباحث في هذه الكتب إخضاعها لمنهج البحث العلمي التاريخي ومقارنة المعلومات الواردة فيها مع غيرها من المصادر ومع ما يتمّ الكشف عنه من وثائق تاريخيّة بين الحين والآخر لتصبح الفائدة أعمّ وأشمل.

تُعدُّ كتب الرِّحلات أو كتابات الرحّالة من المصادر المهمة للباحثين والمهتمين والدارسين في تاريخ البلدان التي زاروها، وشهدت شرقي الأردن نشاطًا واسعًا للرحّالة الأجانب الذين جابوا المنطقة من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وكتبوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم عن كل مدينة أو بلدة أو قرية أو خربة أو موقع أثري، ونشروا نتائج أبحاثهم ورحلاتهم في كتب مستقلّة أو على شكل مقالات نُشرت في عدة مجلات من أهمها: Palestine Exploration Fund Quarter (مجلة صندوق التنقيب عن الآثار في فلسطين).

وتكمن أهميّة كتب الرِّحلات كونها تعطي معلومات قيّمة من النواحي السياسية والأمنية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والصحية والتعليمية حول المواقع والقرى والبلدات التي زارها الرحّالة، وتقدِّم وصفًا دقيقًا للحارات والمحلات والمساكن والبيوت والدكاكين والطواحين والمساجد والكنائس والمدارس، كما تذكر المحاصيل الزراعية بمختلف أنواعها والسلع التجارية وطرق التجارة والقوافل والصناعات والحرف اليدوية وغيرها.

وعلى الرّغم ومن أهميّة المعلومات التي توفرها كتب الرِّحلات إلا أنه يتعيّن على الباحث التعامل مع هذا المصدر التاريخي والجغرافي وحتى الأدبي بحذر شديد ودقة متناهية؛ إذ نجد بينهم مَن يجانب الحقيقة أحيانًا بقصد أو بغير قصد أو مَن يسيء فهم الأحداث التي شاهدها، ويجب ألّا يغيب عن بالنا أنَّ هؤلاء الرحّالة هم من الأجانب الذين لهم أهدافهم من زيارة تلك البلدان والتعرُّف على طرق معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم خاصة وأنَّ نسبة لا بأس بها منهم كانوا من الخبراء العسكريين أو من رجال الدين الذين كانوا يبحثون عن مواقع توراتية في شرقي الأردن تروِّج لادِّعاءاتهم الباطلة من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الرحّالة الذين كانوا يجوبون مناطقنا يعتمدون على أدلّاء من أبناء تلك المناطق وهؤلاء

* باحث ومؤرخ أردني
tareefjo@yahoo.com

أيضًا لهم أهدافهم وميولهم التي لا تعطي معلومات دقيقة وتجانب الحقيقة أحيانًا وربَّما يزوِّدون الرحّالة بها، ومن الضروري للباحث في هذه الكتب إخضاعها لمنهج البحث العلمي التاريخي ومقارنة المعلومات الواردة فيها مع غيرها من المصادر ومع ما يتمّ الكشف عنه من وثائق تاريخية بين الحين والآخر لتصبح الفائدة أعمّ وأشمل.

لكن، وعلى الرّغم من ذلك كله، تبقى كتب الرحّالة من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ منطقتنا بحيث لا يستغني عنها أيّ دارس أو باحث في تاريخ الأردن، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ وصف الرحّالة للمدن والبلدات والقرى التي مرّوا بها في شرق الأردن وأهلها كان يمثل وجهات نظر؛ وقد تختلف رؤية كل منهم عن الآخر تجاه مشاهداتهم وملاحظاتهم، مثلما تختلف هذه المشاهدات والملاحظات بحسب الفترة التي يكون قد زار فيها الرحّالة منطقة معيَّنة من شرقي الأردن، فزيارة رحّالة منطقة في الشتاء تختلف المشاهدات فيها عنها في فصول الصيف أو الربيع أو الخريف... وهكذا.

رحّالة زاروا شرقي الأردن

لم يستطع أحد من الرحّالة الأجانب اجتياز نهر الأردن باتجاه الشرق قبل بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وتركَّز اهتمامهم على السواحل والمدن الرئيسة التي يتوفّر فيها الأمن غرب النهر، خصوصًا وأنَّ منطقة شرق الأردن لم تكن آمنة ولم تتمكَّن الدولة العثمانية من إخضاعها لسيطرتها المباشرة بما لديها من قوات وإمكانات، وإنَّما كانت خاضعة لزعماء القبائل الذين سيطروا على الطرق والممرّات التي تصل بين المدن والقرى وطرق التجارة.

زار عدد كبير من الرحّالة الأجانب[1] شرقيّ الأردن في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين على فترتين متباعدتين، الأولى: قبيل مجيء محمد علي باشا للمنطقة (1830-1840) والثانية: بعد خروجه منها. وكانت رحلاتهم بدعمٍ من "صندوق الكشف عن فلسطين" Palestine Exploration Fund.

مرَّ على منطقة شرقي الأردن قبل مجيء إبراهيم باشا إليها وإخضاعها لحكم محمد علي باشا كل من الرحّالة الألماني "سيتزن" عام 1806 والسويسري "بيركهارت" عام 1812 والبريطاني "بكنجهام" عام 1816، ثم انقطعت الرِّحلات إلى شرقي الأردن، لتنشط من جديد بعد مرحلة التنظيمات العثمانية وتستمر حتى بداية الحرب العالمية الأولى، ويبدو أنَّ السبب في ذلك يعود إلى أنَّ فترة الخمسين سنة من 1816 إلى 1866م كانت مليئة بالأحداث السياسية على المستوى العالمي والحروب التي شاركت فيها الدولة العثمانية وكان صراعها مع القوى الكبرى في تلك المرحلة (فرنسا وبريطانيا). وشهدت سنوات الحرب العالمية الأولى وما تلاها، أحداثًا كبرى على مستوى العالم والوطن العربي حالت دون قدوم المزيد من الرحّالة إليها.

كان الألماني "سيتزن" Seetzen أوَّل رحّالة أوروبي يزور شرقي الأردن، وهو أوَّل مَن لفت نظر العالم الغربي لمدينة جرش، وزار الكرك وتحدَّث عن المدينة الصخرية (البتراء) وقدم إلى مدينة السلط من جهات حوران وعجلون في آذار عام 1807-1806م، وقال: "إنَّ مدينة السلط هي البلدة الوحيدة المأهولة بالسكان من نهر الزرقاء شمالًا وحتى بلاد الكرك جنوبًا وإنَّ البلدان والقرى الأخرى مهجورة وخربة"[2].

وتلا "سيتزن" الرحّالة السويسري الشهير "جون لويس بيركهارت" الذي مرَّ على شرقي الأردن عام

1812 وسجّل ملاحظات في غاية الأهميّة عن القرى والمدن الأردنية في تلك الفترة المبكرة، وكيف كانت أحوالها، وتفاصيل حياة أهلها في مناطق غور الأردن وسهل حوران، وجرش وإربد والحصن وأم قيس، وعجلون، والسلط وعمّان والفحيص والكرك والطفيلة والقرى والخرائب التابعة لها، كما زار وادي موسي ومعان ودخل البتراء كأوّل أوروبي يكتشفها، ثم جاء بعده الرحّالة الإنجليزي "بكنجهام"[3] الذي زار شرقي الأردن في شباط- آذار 1816، وزار الكاهن البروتستانتي "ف. كلاين" Klein شرقي الأردن قادمًا من القدس، وتواجد فيها منذ عام 1851 أي بعد 35 سنة من زيارة الرحّالة الذي سبقه للمنطقة، وتبعه عدد كبير من الرحّالة نذكر منهم: "نورثي" Northey.A.E وهو صاحب كتاب "بعثة إلى الشرق من الأردن" Expedition to the East of Jordan، الذي زار شرقي الأردن في عام 1872، وذلك بتمويل من صندوق الكشف عن فلسطين P.E.F[4]. وهناك كتاب "أرض مؤاب، رحلات واستكشافات في الأردن والجانب الشرقي للبحر الميت" للرحّالة الإنجليزي "تريسترام" وصدر لأوّل مرّة عام 1873[5]، ويتناول رحلة تبدأ من القدس إلى الخليل، ومن هناك إلى عين الجدي ثم غور الصافي والكرك والربة وشيحان، وصولًا إلى ذيبان وأم الرصاص وخان الزبيب وقصر المشتى وزيزيا والقسطل وماعين والبحر الميت ومادبا، وصولًا إلى عرب البلقاء وعودةً إلى حسبان ثم القدس، والمهم في هذا الكتاب ليس الوقوف عند مرجعيّته التوارتيّة التي تبدو في التفاصيل كافة، بل ما يقدِّمه المؤلف من وصف دقيق لبعض الأحوال الاجتماعية والديموغرافية أهمها حديثه عن الكثافة السكانية وما يصفه من كثرة الناس في منطقة البلقاء والأغوار والسهول، علاوة على ما يقدِّمه من معلومات عن مهن الناس وأنماط إنتاجهم وعلاقاتهم الإنتاجية، ومعلومات أخرى حول التكوين الجيولوجي للمناطق التي زارها وأحوال المناخ وسطح الأرض. وهناك الرحّالة "سيلاه مِرِل" Selah Merril المتخصّص في الآثار وهو أحد أعضاء "الجمعية الأميركية لاستكشاف فلسطين"، وقد عيّنته الجمعية للقيام بأبحاث أثرية في فلسطين وجوارها، فأبحر من الولايات المتحدة إلى بيروت صيف عام 1875، وقضى في سوريا ثلاث سنوات، قام خلالها برحلات مُتعدّدة مسح خلالها فلسطين وجزء كبير من شرقي الأردن. وألّف كتابًا تناول فيه مناطق عديدة من شرقي الأردن[6]. وهناك أيضًا الرحّالة الإنجليزي "جورج آدم سميث" Smith.G.A الذي زار الأراضي المقدسة (فلسطين وما حولها) في عام 1880 تقريبًا، وكتب عنها كتابًا ضخمًا مليئًا بالتفاصيل عن الأرض والسكان، والكتاب بعنوان "الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة" The Historical Geography of The Holy Land[7]، والرحّالة "لورنس أوليفانت" الذي زار شرقي الأردن عام 1880[8]، والكولونيل البريطاني "كوندر" الذي زار شرقي الأردن عام 1882[9]، وهناك القس البروتستانتي الإنجليزي الذي جاء هو وزوجته إلى الكرك في 16 أيلول عام 1885 وأمضى فيها ما يقارب 10 سنوات وغادرها عام 1894م عندما دخلها الأتراك، وألّف كتابًا بعنوان lethaby of moab جمعه وأصدره باللغة الإنجليزية في لندن عام 1910 "توماس دورلي" ونشره في لندن "مارشال بروذرز"، والكتاب عبارة عن رسائل متبادلة بين عائلة "ليثيبي" وأصدقائها من رجال الإرساليّات البريطانية التي كانت تعمل في فلسطين وسوريا ولبنان يتحدَّثون فيها عن حياتهم في الكرك بالتفصيل مع العائلات الكركيّة، وقد قام كل من الأستاذ وديع القسوس والأستاذ جورج مصلح بترجمة الجزء الخاص بالكرك، وحصلتُ

على نسخة منه Lethaby, Lethaby Of Moab, Lon-don, 1910. أما الرحّالة الألماني "جوتليب شوماخر" 1857-1925 وهو مهندس مدني وعالم آثار، فقد زار أكثر من منطقة عربية، ومنها منطقة شرقي الأردن، وبدعمٍ من "صندوق الكشف عن فلسطين" ودوّن هذا الرحّالة جَوْلاته عن شرقي الأردن خلال الفترة 1891-1890[10]، وهناك أيضًا الإنجليزي "روبنسون ليز" R.LESS الذي تجوّل في مناطق متعددة من الأردن ومن ضمنها عجلون وعمّان والسلط وذلك في الفترة 1900-1890، وسجّل جولاته هذه في كتاب بعنوان Life and adventure Beyond Jordan أو "ما وراء الأردن: حياة ومغامرات"[11].

وفي أوائل القرن العشرين كتب باحثان أميركيّان في أوَّل بعثة أميركيّة تزور الأردن عام 1902 وهما "وليم ليبي" و"فرانكلين هوسكين" تفاصيل رحلتهما إلى شرقي الأردن التي استمرّت مدة شهرين في كتابهما بعنوان "وادي الأردن والبتراء"؛ ما يمنحنا اليوم ثقة بأنَّ حجم الاهتمام بالمواقع الأردنيّة لم يكن مجرَّد اكتشاف معاصر، بل يبدو لمن تصفَّح هذا الكتاب حجم الوعي الغربي المبكر بأهمية هذه الأرض، ليس بالبُعد الديني فقط، بل أيضًا بالبُعدين السياحي والحضاري[12]. وزار شرقي الأردن "جودريش فرير" الذي مرَّ به عام 1904[13]، والإنجليزي "فوردر" الذي زار المنطقة خلال فترة الحرب العالمية الأولى[14]، والفرنسيّان "جاسان" و"سافيناك" اللذان كتبا ملاحظاتهما نتيجة لسياحتهما المتكررة لمنطقة شرقي الأردن قبل الحرب العالمية الأولى عام 1914 وتعطي فكرة عن الأحوال العامة التي كانت سائدة في تلك الفترة في الكرك ومادبا وعمّان والسلط والقرى والبلدات التابعة لها[15]، و"ألويس موزيل" Alois Musil(1868- 1944) الذي ذاع صيته بوصفه مكتشفًا ومستشرقًا ورحّالة وكاتبًا تشيكيًّا، لكنَّ شهرته تعود باعتباره من أهم العلماء الأنثروبولوجيين الذين كتبوا عن البدو والبادية من خلال كتابه "الحجاز الشمالي"[16] بعد أن أعطته الأكاديمية التشيكيّة للعلوم والفنون منحة عام 1896 ترمي إلى القيام بأبحاث اكتشافية في بلاد البتراء العربية، تبعتها بعثة أخرى عام 1908، وتُعدُّ كتاباته من المصادر الأساسية للتعرُّف على تاريخ هذه البلاد وأحوال سكانها، وكَتَبَ عن العقبة والقويرة والحميمة ومدينة معان الحجازية والشامية وأهميّتها كونها تقع على ملتقى طرق مهمّة تؤدي إلى الديار الحجازية، كما تناول قبائل الحويطات وزعيمهم عودة أبو تايه وعلاقاتهم مع بني صخر والقبائل الأخرى والدولة العثمانية قبل قيام ثورة الكرك عام 1910[17]. وتمثِّل السيدة الإنجليزية "جرترود بيل" صورة واضحة لروح المغامرة والتحدي والشجاعة، حيث جابت مناطق عديدة من سوريا ومن ضمنها شرقي الأردن ابتداء من عام 1899 وحتى عام 1922 وعاشت فترات مع قبيلتي بني صخر وبني حسن في مادبا والطنيب وحسبان والكرك ووادي موسى وعمّان والمفرق وأم الجمال، ودوَّنت ملاحظاتها عن عادات وتقاليد أهل المنطقة من خلال رسائلها[18]. وهناك أخيرًا "سيبروك" الكاتب الأميركي الذي زار منطقة البلقاء والتقى بشيوخ بني صخر ودوَّن ملاحظاته عن عادات وتقاليد البدو في المأكل والملبس والأفراح والأحزان بشكل مفصَّل عام 1926[19].

وفيما يلي نماذج من كتابات الرحّالة في المجالات المختلفة:

أوّلًا: في المجالات السياسيّة والأمنيّة والإداريّة

أشار بعض الرحّالة الذين مرّوا في شرقي الأردن إلى التقسيمات الإداريّة والسياسية وتطوُّرات الأوضاع الأمنيّة فيها، وذكر الرحّالة الإنجليزي "بكنجهام" الذي زار شرقي الأردن عام 1816 التقسيمات السياسية الواقعة جنوبي دمشق وحتى نهر الزرقاء، حيث سمّى القرى والحدود التابعة لمناطق الغوطة، وبلاد حوران، وجيدور، والجولان، والقنيطرة، والكفارات، والسرو، وبلاد بني عبيد، والكورة، والوسطية، وجبل عجلون، ومعراض، والزويت، وذكر أنَّ جميع المنطقة الواقعة من القنيطرة وحتى الزرقاء واقعة في حكومة آغا طبريا[20]. وزار منطقة جبل عجلون رحّالة أجانب كُثر، وخاصّة في الفترة 1864-1900(فترة ضعف الدولة العثمانية)، وكان اسم "عجلون" آنذاك يُطلق على المنطقة الواقعة بين نهر الزرقاء جنوبًا ونهر اليرموك شمالًا، وبين نهر الأردن غربًا وأطراف البادية شرقًا، وكانت تشمل المناطق الفرعيّة التالية :جبل عجلون، الكورة، الوسطية، بني جهمة، بني عبيد، السّرو، الكفارات، المعراض[21].

ونقل "روجان" عن الرحاله "كلاين" أيضًا وصفه للأوضاع الأمنية في منطقة البلقاء والتي كانت تمتد من نهر الزرقاء شمالًا إلى وادي الموجب جنوبًا ومن نهر الأردن غربًا إلى سكة حديد الحجاز شرقًا، أي أنَّ عمّان ومادبا والقرى التابعة لها كانت ضمن حدود قائمّقاميّة السلط[22]، وقوله: "إنَّ المنطقة كانت موحشة وتخضع لسيطرة شيوخ البدو، وخاصة البلقاء التي كانت منطقة المتمردين وقطّاع الطرق وترفض دفع الضرائب للدولة، وهي في الوقت نفسه ملجأ آمن للقتلة والمجرمين الذين يتهرّبون من الجيش التركي، ولا وجود لسلطة الباشا أو الحكومة فيها"[23].

وتحدَّث "بيركهارت" عن النزاع على الأراضي والمراعي والمياه بين قبيلتين أساسيتين هما العدوان وبنو صخر[24]، وتؤشِّر هذه الرواية إلى أنَّهما كانتا القوتين الرئيستين في البلقاء وأنَّ علاقات الجانبين كانت عدائيّة في معظم الأوقات على المراعي والمياه[25]، وعانت مدن وقرى شرقي الأردن كثيرًا من الفوضى وعدم الاستقرار وانعدام الأمن كونها تخضع لسيطرة القبائل البدوية[26] التي تتنازع فيما بينها على مناطق الرعي والماء كما تشنّ من حين لآخر غزواتها على الفلّاحين في قُراهم[27]. وفي الوقت الذي لم تستطع فيه الدولة إخضاع مناطق شرقي الأردن للسيطرة حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، قامت بالأمر الذي دفع الدولة إلى عقد اتفاق مع شيوخ القبائل القويّة التي تقيم على مقربة من طريق الحجّ الشامي، منحتهم بموجبه جوائز مالية تُسمّى "الصُرّة" مقابل حفاظهم على الأمن والإشراف على تخزين مياه الأمطار في البِرَك التي أقامتها الدولة على طريق الحجّ[28]، إلّا أنّ مشكلة الأمن لم تُحلّ حيث كان المسافر العادي المارّ في المنطقة بحاجة إلى دليل وحماية حتى يصل إلى غايته، مقابل مبلغ من المال[29]، ووصف "بيركهارت" السلط بقوله: "وسكانها يتمتعون باستقلال كبير وقد حاول باشاوات دمشق التغلب عليهم ولكن محاولاتهم باءت بالفشل"[30]. أمّا "كوندر" فقد زار السلط بمعيّة أمير ويلز سنة 1882م وقال: "إنَّ السلط الآن مركز قائمّقام وفيها حامية عسكرية ولا ينتظر أن تتراخى قبضة الحكومة عنها بعد الآن أمّا في السابق فكانت شبه مستقلّة ولا تدفع الضرائب"[31].

وجرت أولى المحاولات لإخضاع البلقاء عام 1866، من أجل ترسيخ الأمن وحماية طريق الحجّ الشامي

وأرسلت الدولة العثمانية حملة أخرى بعد هذا التاريخ[32]، ومنذ ذلك الحين بدأ نوع من الاستقرار يسود المنطقة بشكل تدريجي، ونزح عدد كبير من الفلّاحين من فلسطين والمناطق المجاورة الأخرى إلى البلقاء، فانتشرت الزراعة انتشارًا واسعًا وتمّ إنشاء المخافر ورابطت مفارز الجند في عدد من المواقع[33]. وقد عبّر "ترايستارام" عن التطوُّرات التي حصلت في السلط بعد إنشاء حامية عسكريّة بقوله: "عندما زرت المنطقة قبل ثماني سنوات 1865م كانت تشبه الكرك الآن، الحياة صعبة والسفر صعب.... ويدفع المسافر الخاوة، أمّا الآن "1873م" فقد أوجد والي دمشق حامية عسكرية... الفلّاحون وضعهم أفضل... التجارة جيّدة والأمن مستقرّ كفلسطين"[34].

ووصف "أوليفانت" وضع رجال الدرك وجباة الضرائب وتعاملهم مع أهالي المنطقة بقوله: "إنهم يسرقون القرى التي يحرسونها لأنَّ رواتبهم قليلة جدًا ولا يمكنهم الاعتماد عليها وإنهم عندما يدخلون القرى يُصاب الأهالي بالذعر والخوف، فيهرب الأطفال وتختبئ النساء عند دخولهم قرية من القرى، بينما يلجأ الرجال يصانعونهم ويتملقونهم ويقدّمون لهم الطعام والمبيت طيلة مدة إقامتهم ويقدّمون الأعلاف لخيولهم"[35]، في حين يقول "ميرل" إنه "شاهد في الحصن كوكبة من الجنود تتألف من ضابطين وثلاثين جنديًّا خيّالًا كانوا عائدين من سوف، ذلك أنَّ شيخ تلك القرية حاول أن يرفض دفع الضرائب الباهظة التي فرضتها الدولة مؤخرًا بسبب الحرب، ولكنه لم يلبث أن أذعن بعد أن استيقن أنَّ أهل قريته لا قبل لهم بمقاومة هذه القوة العسكرية"[36].

ثانيًا: في المجالات الاجتماعيّة والاقتصاديّة

تناولت كتب الرحّالة أعداد السكان ودياناتهم وحاراتهم ومساكنهم وعاداتهم وتقاليدهم في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية في المناطق التي زاروها، وفيما يلي بعض الأمثلة لكتابات الرحّالة في بعض المدن والمناطق التي زاروها، ووردت أوَّل إشارة لعدد السكان لدى الرحّالة الألماني "سيتزن" الذي مرَّ في المنطقة عام 1806م و1807م وقدَّر عدد سكان السلط ما بين 1500-1400 شخص بينهم نحو 350 من المسيحيين، وقال إنَّ أهل المدينة لا يدفعون أيّ نوع من الضرائب في تلك الفترة ولم تطلها يد الجباة لفقدان الأمن وسيطرة العشائر في تلك الفترة على المنطقة[37]، أمّا السويسري "بيركهارت" الذي مرّ في المنطقة عام 1812م فقدّر عدد سكان السلط بـ400 عائلة من المسلمين و80 عائلة مسيحية[38]، وبذلك يكون عدد المسلمين نحو ألفي شخص بينما بلغ المسيحيون 400 شخص أي ما يقارب خمس السكان، وقدّر "تريسترام" الذي زار الكرك عام 1872م عدد سكان الكرك بثمانية آلاف نسمة بينهم 1600 مسيحي[39]؛ بمعنى أنَّ عدد سكان الكرك لم يتغيّر من عام 1872 وحتى عام 1885م كما أنهم تضاعفوا مرّة واحدة خلال 73سنة، أي منذ قدوم "بيركهارت" عام 1812م وحتى قدوم "ليشيبي" عام 1885م وهو الرقم نفسه الذي ذكره "ليشيبي"[40] الذي زار الكرك بعد ثلاث عشرة سنة من مرور "تريسترام" في المنطقة، في حين قدَّر "كوندر" عام1881 عدد خيام بني صخر بـ1505خيمة، أي أنَّ عددهم يتراوح ما بين 7500 و9000 نسمة، وأنَّ مضاربهم امتدّت بين جبل حوران شمالًا حتى أطراف جبل طويق القريب من عرب الحويطات جنوبًا ووصلوا في تنقلاتهم إلى وادي السرحان شرقًا[41] وطبريا غربًا.

وركّـز الرّحالـة الذيـن مـرّوا في المنطقـة عـلى العيـش المشـترك الـذي يميّـز حيـاة الأردنيـين مـن المسـلمين والمسـيحيين الذيـن تركّـزوا في مناطـق شرقـي الأردن كالسـلط والكـرك وعجلـون وقراهـا[42]، وأكـد "بيركهـارت" عـلى المسـاواة التامـة التـي يتمتـع فيهـا أهـل شرقـي الأردن مـن مسـيحيين ومسـلمين بقولـه: "وهـم يعيشـون سـوية بمـودّة ومسـاواة تامتـين"[43] ويمارسـون مختلـف المهـن التـي كانـت سـائدة وتولـوا الوظائـف الحكوميـة، وتـولى بعضهـم مناصـب عليـا في الإدارة، وعملـوا في التجـارة والزراعـة بـكل حريـة وتعـاون[44]، وأكّـد القـس "كلايـن" الـذي زار قضـاء عجلـون عـام 1868م[45] والعديـد مـن الرحّالـة الذيـن زاروا المنطقـة عـلى هـذا الأمـر.

وفي الجانـب الاقتصـادي انتـشر في معظـم أراضي شرقـي الأردن نوعـان مـن الزراعـة؛ الأوّل الزراعـة المرويّـة ويتركّـز في الغـور وبالقـرب مـن الينابيـع وعـلى جوانـب الأوديـة، كـما يتميّـز الغـور بتربتـه الخصبـة التـي تختلـط بالحجـارة والأتربـة الرسـوبية التـي تجرفهـا الوديـان القادمـة مـن الـشرق[46]، ووصـف "تريسـترام" أراضي الشـفا بقولـه عـلى سـبيل المثـال إنَّ أراضي مأدبـا خصبـة وهـي طينيـة حمـراء اللـون خصبـة جـدًا برهنـت عـلى مـرّ السـنين المتعاقبـة قدرتهـا عـلى إنتـاج كميـات هائلـة مـن الحبـوب دون اسـتخدام السـماد، كـما أنـه يمكـن غـرس العصـا فيهـا قدمـين في أعـماق التربـة، كـما زرع أهـل المنطقـة الحبـوب بمختلـف أصنافهـا كالقمـح والشـعير والعـدس والكرسـنة والأشـجار المثمـرة ومنهـا التـين واللـوز والبطـم والنخيـل[47] والخضـار ومنهـا البنـدورة والبصـل والثـوم والباميـة والباذنجـان والقرنبيـط والفجـل والقـرع والكوسـا والبطيـخ والخيـار والفقـوس، والدخـان والـذرة[48]. ويقـول "أوليفانـت" عـن الزراعـة في السـلط: "وجـد السـكان أنّ الاسـتقرار جـذب إلى بلدتهـم الغربـاء مـن أصحـاب رؤوس الأمـوال، فتحوّلـت السـلط بالتدريـج إلى مسـتودع يوفّـر البضائـع لـكل المنطقـة الواقعـة إلى الـشرق مـن نهـر الأردن... وأنّ كل بوصـة مربعـة في وادي شـعيب مسـتغلة ومزروعـة ببنـاء السلاسـل الحجريـة المنظمـة عـلى المنحـدرات"[49].

ويقـول "مـيرل" إنـه يُنتَـج في المنطقـة المحيطـة بالسـلط أشـهى أنـواع العنـب وألذهـا طعـمًا، ويقـول: "الحـق يُقـال إننـي لم أذُق في أوروبـا ولا في أمـيركا عنبًـا أحـلى وأطيـب نكهـة مـن عنـب هـذه البـلاد ،ولم أرَ عناقيـد في تينـك القارتـين بمثـل حجـم عناقيـد العنـب التـي رأيتهـا"[50]. في حـين وصـف "فريـر" عنـب السـلط بقولـه: "اكتشـفنا أنَّ الزَّبيـب الـذي نسـتعمله في قوالـب الكعـك والمعجّنـات في بلادنـا والـذي يسـميه البقّالـون (سـلطي) يأخـذ اسـمه مـن السـلط وهـذا النـوع مـن الزبيـب صغـير الحجـم خـالٍ مـن البـذور... وأضـاف: "وفي مطلـع القـرن العشريـن كان مـن بـين الصناعـات المشـهورة في المدينـة نسـيج البُسُـط مـن صـوف المـواشي، بالإضافـة إلى صناعـات أخـرى قليلـة الأهميـة ألا وهـي صُنـع المسـابح مـن نـوع مـن الشـجر الشـديد الصلابـة والـذي يكـثر في جهـات السـلط.. لم يكـن تجـار السـلط مَـن يعملـون فحسـب في التوزيـع والبيـع في المفـرَّق كـما يُقـال، بـل كانـوا وكلاء عالميـين، ولعـلَّ فلسـطين هـي أوسـع أسـواقه"[51].

أسـهب الرحّالـة "بيركهـارت" الـذي عـاش في السـلط مـن 14 تمـوز 1812م في وصـف الحيـاة الاقتصاديـة فيهـا ونوردهـا كنمـوذج عـن الحيـاة الاقتصاديـة في شرقـي الأردن حيـث يقـول: "القسـم الأكـبر مـن سـكان السـلط يعملـون في الزراعـة، وهنـاك بعـض الأفـراد الذيـن يشـتغلون بالحياكـة، وتتركّـز الزراعـة عـلى الحنطـة

والشعير ويباع فائض الإنتاج إلى البدو.. وهناك مساحات كبيرة من كروم العنب ويُجفَّف العنب (الزَّبيب) ويُباع في القدس وتمتدّ الحقول المزروعة إلى مساحة ثمانية أميال". ويقول أيضًا: "ومن موارد الرزق الأخرى لأهل السلط في شهري تموز وآب يجمعون من جبال البلقاء أوراق السُمّاق ويجفّفونها وينقلونها إلى أسواق القدس"، أمّا عن تجارة القلو أو القلي (رماد الصابون) "فكانت تُجمع من نبات يدعى الدردار موجودة في الصحراء الأردنية خاصة في معان"، يقول "بيركهارت" إنَّ البدو كانوا يجمعون المادة ويؤتى بها إلى سوق يوشع وتقدَّر الكميات التي تصل سنويًّا إلى يوشع بحوالي ثلاثة الآف حمل جمل، كما أشار إلى أنه كان في السلط حوالي عشرين حانوتًا تبيع بالجملة بضائع لتجار الناصرة ودمشق ونابلس والقدس، كما تزوِّد البدو بأصناف اللباس والأثاث[52]. أما "نورثي" فتحدَّث عن عجلون وقال: "يوجد في عجلون العديد من السهول ذات التربات الخصبة الصالحة للزراعة، والتي غالبًا ما تقطعها المرتفعات الحرجيّة من غابات البلوط والبطم، وقد عرفت هذه السهول منذ القدم بشهرتها في زراعة الأشجار المثمرة، وقد تعامل السكان مع الأرض معاملة جيدة وذلك بزراعة كل بقعة منها بما بناسبها من محصول وخاصة الكرمة والزيتون، حول مجاري الأودية توجد أنواع خاصة من الأشجار تسمى بالنباتات المائية مثل الحور والطرفا والصفصاف والدفلى"[53].

Photo Finding Dan-Dan Grinwis on Unsplash

الهوامش:

1. ويأتي في مقدّمة هذه الكُتب:
كتاب الرحّالة بيركهارت 1227هـ/1812م.
Burckhardt, travellers In Syria and the holy land, London, 1822/1237.
(Merrill (1270-1875), East of the Jordan London (1887 / 1299
H-B- Tristram (1865-1282/1873-1290) the land of Mo,ab London, 1873/1290.
Oliphant, Lawrence(1879/1297) the land of Gilead, London "no date."
Goodrich Freer, In a Syrian saddle (1903-1321) London - 1905/1323...
Arabis in Tent and town New York, 1924/1343 -..
2. سيتزن، رحلة، ج 1، ص42. مقتبس من:
N.Lewis, Nomads and settlers in Syria and Jordan,1800-1890, Cambridge,1987,. London, p21
وانظر محمود أبوطالب، مصطفى الحياري، محمد عبدالقادر خريسات، تاريخ مدينة السلط عبر العصور، السلط، 2000م ص203.
3. أبوطالب والحياري وخريسات، تاريخ مدينة السلط، ص216.
4. Northey.A.E" Expedition to the East of Jordan" P.E.F London-don.jan1872.p68-71
5. Tristram, The land of Moab p159
6. Merrill, East of the Jordan, PP) 207، 405-408
7. Smith.G.A(1896)"The Historical Geography of the Holy - Land"Hodder and Stoughton ltd.London,pp322.336,521-522
8. Oliphant, Lawrence , The Land of Jelead,P246-252
9. ترجمة سليمان الموسى، عمّان، 1974، ص107.
10. Shumacher.G."northern Ajlun Within the Decapolis" Palestine exploration fund, London,1890 , pp24-60
11. Less.R(1906) " Life and adventure Beyond Jordan" charles H.Kelly.London,pp.111-1197
12. قام بتعريب وتحقيق هذا الكتاب أحمد عويدي العبادي ونشره في عمّان 1-1-2005.
13. Freer, in a Syrian saddle, P) 155.
14. A Forder, Petra Phoenieia, Marshal Brothers Ltd, London and Edinburgh, , P10-72
15. سليمان الموسى(مترجم ومؤلف)، غربيون في بلاد العرب، عمّان، 1969، ص62-55.
16. (The Northen Hejaz by Alois Musil,New Yourk,1926
17. الموسى، غربيون، ص46-30.
18. The Letters of Gertrude Bell,2Volumes,by Lady Bell, London,1927.) الموسى، غربيون،ص102-78.
19. الموسى، غربيون، ص-142 152.
20. أبوطالب والحياري وخريسات، تاريخ مدينة السلط، ص216.
21. Northey.A.E.""Expedition to the East of Jordan" Palestine Exploration Fund) (Qurterlystatment.London,1972.p.68
22. سالنامة ولاية سورية،1299هـ/1881م،ص235-234،وسنة 1315هـ/1897م ص265وسنة 1317هـ/1899م،ص361.
23. Rogan, PP26-27.
24. Burckhardt,p367-369
25. Conder, PP292-293, Tristram , Pp191,399, Rogan, Al Salt , Jabal Ajlun and the advent of Direct Ottoman Rule, 1286-1868, 1988 Vol"X P32-33 Tristram,|
26. The land of Moab , P159-192-193, Merrill, East of the Jordan, London, (1887) P378
27. Burckhardt, , P348
28. جورج طريف، السلط وجوارها، ط1،عمّان 1994م، ص202-195.
Condor P170
29. Conder, PP 166-167, Tristram , P45
30. بيركهارات، ص79.
31. ترجمة سليمان الموسى، عمّان، 1974، ص107.Conder, Heth and Moab,
32. Valentine, P282, Rogan, P40
33. Conder, , P138 Tristram, P159
34. Tristram, ,P159
35. Oliphant, the land of Gilead,p120-126
36. Oliphantthe land of Gilead,"p 104-105Merrill, East of the Jordan,p375
37. جورج طريف، السلط وجوارها، ص195 وما بعدها.
38. Burkhart, PP349-351
39. Tristram,The land of Moabp 159
40. ليثيبي، ص59-41.
41. Conder297-298,295
42. محمد عدنان البخيت ونوفان الحمود، دفتر مفصل لواء عجلون (970) منشورات الجامعة الأردنية، 1990م، ص101. وانظر أيضًا هند أبوالشعر، تاريخ
شرق الأردن، ص50، محمد عبدالقادر خريسات، المسيحيون في قضاء السلط 1869-1920م، 2012، ص148.
43. رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية،ج2، ترجمة أنور عرفات، 1969، عمّان، ص78. يشار إليه بيركهارت.
44. Burkhart, PP349-351
45. Rogan, Al Salt PP.31-37
46. Taimeh, Awny, Land Resources in Jordan.Amman,1990, P.113-120
47. Tristram,p272-273
48. Tristram,p271.302, 303-323
49. أبوطالب، الحياري، خريسات، ص255-251.
50. سيلاه ميرل، إلى الشرق من الأردن، ص20-19.
51. Freer, in a Syrian saddle, P155
52. بيركهارات، ص79.
53. Northey.A.E" Expedition to the East of Jordan".p68-71

إمارة الشرق العربي
رحلات ومشاهدات عربيّة
(1921 – 1945م)

كايد مصطفى هاشم*

تُلقي رحلات عدد من المثقفين العرب إلى شرقي الأردن مع بدايات تأسيس الدولة الأردنية سنة 1921 وحتى ما قبيل الاستقلال والانتقال من عهد الإمارة إلى عهد المملكة الأردنية الهاشمية سنة 1946؛ أضواءً على ملامح وجوانب اجتماعيّة وعمرانيّة مختلفة من حياة الناس وأحوالهم في هذا القطر العربي، إبان تشكُّل كيانه السياسي الجديد ومجتمعه الحديث، وفي حقبة تاريخيّة كان فيها المشرق العربي على محكِّ التحدِّيات بوصفه أحد محاور المتغيّرات والمستجدّات على الساحة الدوليّة منذ نهاية الحرب العالميّة الأولى (1914-1918م) وبعد نهاية الحكم العثماني.

تمثِّل النماذج الخمسة من نصوص الرّحلات العربيّة المُختارة هنا والتي كتبها مثقفون من ذوي النزعة القوميّة العربيّة الصريحة، خطابًا نهضويًا يضيء مقوّمات التحرّر والاستقلال والتقدّم في هذه الدولة العربيّة وهي في طور النشوء والتشكُّل، وقد استمدَّت نسيجها من ميراث حضاري عريق لم يغب معه العامل التاريخي الذي يجذِّر قيمة التنوّع في إطار الوحدة، كما اعتمدت نهجًا حداثيًّا عقلانيًّا طبع مختلف مراحل تطوّرها، وحفظ توازنها واستقرارها، واستمرارها وسط أحداث وظروف وأوضاع دقيقة، إقليمية ودولية، أحاطت بها منذ مرحلة النشوء وأثَّرت عليها بأشكالٍ متفاوتة من التأثير.

عامان في عمّان وبدايات من عهد الإمارة

لم تشهد منطقة شرقي الأردن قبل مجيء الأمير -الملك المؤسِّس- عبدالله بن الحسين (1882-1951م) قادمًا من الحجاز؛ حيوية وحركة كما شهدَت تحديدًا معان في الجنوب ثم عمّان التي أصبحت بعدئذٍ عاصمة الدولة، فقد دبَّت فيهما روح من النشاط العارم والحركة الدؤوبة بتوافد العديد من الساسة والمثقفين ورجال الإدارة والعسكرية وغيرهم من الشخصيات العربيّة في بلاد الشام والعراق ومصر، عدا زعماء القبائل والعشائر

* **كاتب وباحث- نائب الأمين العام للشؤون الثقافية بمنتدى الفكر العربي/ الأردن**

kydhashem@hotmail.com

المغفور له جلالة الملك عبدالله الأول ابن الحسين

وشخصيات وطنية من أنحاء شرقي الأردن، وفيهم قسم غير قليل من رجال الحركة العربيّة، وأحيانًا بعض الصحافيين العرب، والأجانب أيضًا، ذلك أنَّ الأمير الهاشمي، نجل شريف مكة الحسين بن علي زعيم النهضة العربيّة الكبرى وثورتها، أصبح مَعْقِد آمال العرب في هذه المنطقة للتخلص من الهيمنة الأجنبية واستعادة الحكم العربي المستقل الذي قام في سورية سنة 1918 بزعامة الملك فيصل بن الحسين، وانتهى بالاجتياح الفرنسي على إثر معركة ميسلون (24 تموز/ يوليو 1920) وفرض الانتداب على سورية الشمالية ولبنان وفق اتفاقية (سايكس- بيكو)، التي تقاسمت بموجبها فرنسا وبريطانيا النفوذ والانتداب في بلاد الشام والعراق.

يصف خيرالدين الزِركلي الدمشقي (1893-1976م) في كتابه "عامان في عمّان"[1]، وهو مذكراته عن عامين أمضاهما في عاصمة شرقي الأردن (1921-1923م)، المظاهر الحماسيّة لاستقبال الأمير عبدالله من جانب الأهالي والزعماء المحليين ومعهم أحرار العرب ومعظمهم من رجال الثورة العربيّة الذين عملوا مع الملك فيصل في دمشق. وكان الزركلي واحدًا من هؤلاء، فقد وصل إلى عمّان قبل أن يدخلها الأمير ببضعة أسابيع آتيًا من الحجاز، مرورًا بمصر والقدس والصلت (السلط)، ضمن وفد مؤلَّف منه ومن صديقه يوسف ياسين أرسله ملك الحجاز الحسين بن علي لمعاونة الأمير عبدالله، ومن ثم سافر هذا الوفد إلى معان بالقطار مع آخرين من الاستقلاليين العرب في رحلة مدّتها عشر ساعات للقاء الأمير ومرافقته إلى عمّان.

ويورد الزركلي وصفًا جميلًا للاستقبال الحماسي بالهتاف والتحية من جانب أهل عمّان للأمير عبدالله حين وصلها بالقطار قادمًا من معان، وكانت

خير الدين الزركلي

المسافة بين محطة عمّان والبلدة نفسها حوالي ثلاثة كيلومترات، ولمّا لم يكن هناك سيارات فقد اجتاز الأمير ومرافقوه هذه المسافة على الجياد، ونزل الأمير في دار رئيس البلدية، وتقدَّم الناس للسلام عليه مستبشرين بقدومه ومتفائلين خيرًا. وفي اليوم التالي أقيم احتفال كبير في ساحة عمّان أمام المدرج الروماني، وألقى الأمير كلمة أمام الجمع الكبير من الحاضرين ومما قاله فيها: "وما جاء بي إلا حميّتي وما تحمّله والدي من العبء الثقيل، فالواجب عليّ أفهمه ولو كان لي سبعون نفسًا بذلتها في سبيل الأمّة لما عددت نفسي أني فعلت شيئًا".

لم تكن عمّان قبل قدوم الأمير -كما رآها الزركلي- "أكثر من قرية، قليلة السكان، ضئيلة المباني، مُظلمة السُّبل، لا يصل بينها وبين تاريخ مجدها إلَّا ما شَخَصَ من آثارها"، ويشير الزركلي إلى أنها اكتسبت بعض الشأن قبل تأسيس الإمارة من تجارتها بين القبائل العربيّة النازلة حولها (قبائل بني صخر وبني حسن وعبّاد والعدوان)، والتجار الذين جاؤوا إليها من دمشق ونابلس وافتتحوا في سوقها -أو ما يشبه السوق- بعض الحوانيت الصغيرة. كما يشير إلى سكانها من الشراكسة وقراهم ومزارعهم حولها.

وكان الشريف علي بن الحسين الحارثي (1895-1955م) الذي جاء إلى عمّان ليمهِّد مع الوطنيين فيها لقدوم الأمير عبدالله، قد استقبل الزركلي وصحبه

في عـمّان ومعـه قائـم مقامهـا وقائـد دركهـا ومجموعـة "مـن الخيّالـة والرجّالـة كانـوا يهتفـون بحيـاة العـرب والاسـتقلال، وينشـدون الأناشـيد الوطنيـة"، مـا جعـل صاحـب الرحلـة يسـتعيد أجـواء النـادي العـربي بدمشـق أيـام الحكومـة العربيّـة الفيصليـة. ويذكـر الـزركلي بتقديـر كبـير دور الشريـف الحـارثي في هـذا الصـدد، كـما يشـير إلى أنَّ الأمـير عبداللـه أقـام أول الأمـر في بيـت بمحطـة عـمّان فُـرش لـه بعـد أن كان يسـكنه أحـد موظفـي السـكة الحديديـة. أمّـا الـزركلي ورفيـق رحلتـه، صديقـه يوسـف ياسـين، فقـد أقامـا في خيمـة نُصِبـت في الـوادي الخصيـب المجـاور للمحطـة وكانـت مأواهـما لبضعـة أسـابيع.

تلاحقـت بعـد ذلـك الأحـداث والتطـورات السياسـية التـي أفضـت في أعقـاب عـودة الأمـير عبداللـه مـن اجتماعـه مـع "تشرشـل" وزيـر المسـتعمرات البريطـاني في القـدس، إلى تشـكيل حكومـة عربيّـة في شرقـي الأردن "إمـارة الـشرق العـربي" بتاريـخ 11 نيسـان (إبريـل) 1921، وعُرِفَـت هـذه الحكومـة باسـم مجلـس المشـاورين، وكانـت برئاسـة رشـيد طليـع الـذي سـمّي الكاتـب الإداري أيضًـا ووكيـل مشـاور الداخليـة، وأعضاؤهـا هـم: الأمـير شـاكر بـن زيـد نائبًـا للعشـائر، وأحمـد بـك مريـود معـاون نائـب العشـائر، وأمـين بـك التميمـي مشـاور الداخليـة ومتـصرف لـواء عجلـون، ومظهـر بـك رسـلان مشـاور العدليـة والصحـة والمعـارف، وعـلي خلقـي بـك الشرايـري مشـاور الأمـن والانضبـاط، والشـيخ محمـد الخـضر الشـنقيطي قـاضي القضـاة، وحسـن بـك الحكيـم مشـاور الماليـة.

وأُسـند للـزركلي بعـد تشـكيل حكومـة الإمـارة هـذه منصـب المفتـش العـام للمعـارف، ثـم رئاسـة ديـوان الحكومـة، وخـلال إقامتـه في شرقـي الأردن قـام برحلتـين صغيرتـين كـما سـمّاهما، الأولى خـلال شـهر آذار 1921 مـع ثلاثـة مـن السـوريين (عـلي آغـا زلفـو مـن أعيـان الأكـراد في صالحيـة دمشـق، وشـكري القهوجـي، وشريـف شـاهين، وهـذان الاثنـان كانـا مـن مقاومـي السـلطات الانتدابيـة الفرنسـية في بلدهـم). انطلقـت الرحلـة مـن عـمّان إلى القـدس مـرورًا بجـرش والحصـن وإربـد ووادي الغفـر، ثـم قريـة كفـر أسـد، وقريـة مخربـا، وجـسر المجامـع، وكلهـا في شـمالي الأردن، ومـن هنـاك بالقطـار إلى حيفـا، ثـم طولكـرم، وحيفـا، ويافـا، وعـاد مـن القـدس إلى عـمّان بعربـة خيـل مـارًا بالسـلط. لم يذكـر الـزركلي سـبب هـذه الرحلـة واكتفـى بشـذرات عـن بعـض حـوادث الطريـق ومشـاهداته في هـذه الأثنـاء، ومنهـا لقـاء بالمصادفـة مـع المعتمـد البريطـاني في جـرش واسـمه "منتـون"، ومـروره بشـجرة معمّـرة في مـكان يبعـد عـن جـرش بحـوالي سـبعة كيلـو مـترات قيـل إنهـا تُظـلّ أكـثر مـن مئـة شـخص ويطلـق عليهـا أهـالي المنطقـة اسـم "شـجرة المنـوَى"، ويقيمـون تحتهـا أفراحهـم، ويقصدهـا النـاس للزيـارة والتبرُّك، ثـم ذكـر حادثـة تعرُّضـه ورفاقـه لخيّـال كَمَـن لهـم وصـوّب بندقيتـه نحوهـم لكـن أحـد رفـاق الرحلـة، وهـو شريف شـاهين، تغلـب عـلى الخيّـال وكاد يسـلبه فرسـه.

أمّـا الرحلـة الثانيـة، فكانـت بعـد تعيـين الـزركلي مفتشًـا للمعـارف وقـد قـام بهـا مـا بـين 27-2 أيـار (مايـو) 1921 ليتعـرَّف عـلى أحـوال بعـض المـدارس في شرقـي الأردن، ولم يكـن عـدد المـدارس في البـلاد يزيـد عـلى 23 مدرسـة ابتدائيـة خـلا اثنتـين ثانويتـين، ويقـول الـزركلي إنَّ حصـة المعـارف السـنوية كانـت لا تزيـد عـلى سـتة آلاف جنيـه. شـملت هـذه الرحلـة أو الجولـة قـرى وادي السـير، وناعـور، وخربـة النابلـسي (مـن قـرى حسـبان)، ومادبـا، ثـم وفي طريـق العـودة ناعـور ووادي السـير مـرة أخـرى،

فقرية صويلح، فالسلط، فعمّان. ويورد الزركلي في ما كتبه عن رحلته هذه أوصافًا للقرى التي زارها فيقول إنَّ وادي السير "قرية نظيفة جميلة في وادٍ خصيب"، وناعور "أطيب تلك البقاع مناخًا"، و"مأدبا أو (ميدبا) بُليدة عامرة"، أمّا صويلح "فغاية في جودة المناخ وعذوبة الماء وطيب الهواء"...إلخ. ويروى بعض الحكايات التي سمعها من بعض مَن التقاهم عن تجاربهم والعلاقات السائدة بين السكان في ذلك الحين، ويتحدث عن الحياة الاجتماعية للشراكسة والشيشان والفروق بينهم في اللغة والعادات، وفي المذهب؛ فالشيشان شافعية والشراكسة أحناف، ويورد خلاصة من تجارب التعامل بين الحضر والبدو.

أفرد الزركلي في كتابه المشار إليه فصلًا دعاه "للتاريخ" تناول فيه شيئًا عن أحوال معان، الحجازية والشامية، وعشائرهما، وقال إنَّ لفظ معان يطلق على جميع أراضي الشراة، التي تضُم قرى كثيرة أكبرها "أذرح" و"الجرباء" وفيهما أنقاض أبنية وطواحين، وأشار إلى أسماء قرى أخرى أكثرها أصبح دارسًا، وأتى على ذِكر عشائر الحويطات في أطراف معان، وناحية الشوبك، وقلعتها، وأهاليها، ووادي موسى المشتهر بآثاره، بيد أنه لم يُتَح له زيارة منطقة الآثار في البتراء، وإنما ذُكر له شيء عن أهم آثارها الفخمة!

كما أفرد للواء الكرك –حينذاك- فصلًا نقل فيه نصّ "بيان رسمي عام وضعته القوّة السيّارة وقُدِّمت نسخة منه للحكومة سنة 1922"، وهذه القوّة هي عبارة عن سرية مُشاة عسكرية كان قائدها الضابط البريطاني "فردريك بيك"، وذكر الزركلي أنه اشترك في وضع هذا البيان ضباط القوّة الوطنيّون، ومعظم ما جاء فيه يتعلق بقبائل الكرك وعشائرها وأقسامها، وإحصاءات عن نفوسها وأعداد بيوتها وقراها، وأحوالها الاقتصادية، وقوّتها من الفرسان والخيل، وما إلى ذلك. ويمكن أن تُعدُّ هذه الوثيقة المبكّرة في القرن العشرين مصدرًا لمعلومات مهمّة عن الكرك في ذلك الحين.

عن عمّان تاريخها وآثارها

في سنة 1924 كتب درويش المقدادي (1898-1961م)، التربوي والمؤرّخ الرحّالة، وكان حينئذٍ مدرسًا للتاريخ في دار المعلمين بالقدس، نصًّا وجيزًا عن رحلته إلى عمّان وجرش[2]، تطرّق فيه إلى التشابه بين وسائل البشر في حماية أوطانهم ومستعمراتهم في الماضي والحاضر، متخذًا من وقائع التاريخ مصدرًا للعبرة من خلال الكشف عن تجارب وصراعات بعض الدول القديمة التي حكمت هذه المنطقة، كالرومان حين أرادوا أن يتوغلوا في داخلية بلاد العرب ليقضوا على البدو، ولكنهم لم ينجحوا فعقدوا المحالفات مع تدمر وبطرا (بترا) والغساسنة، حتى أخرجتهم من الديار "موجة قوية تحمل لجّتها الأبطال من أم القرى" (مكة المكرمة) مع الفتوحات العربيّة الإسلامية. وذكر المقدادي في السياق مدن الديكابوليس التي أنشأها الرومان على الحدود لصدّ هجمات أعدائهم ونشر المدنيّة الرومانية، وأسكنوا فيها رومانيين، ويقع معظمها في أراضي شرقي الأردن، وهي عشر مدن تمتد من حوالي الكرك إلى دمشق، وأشهرها بيسان وعمّان وجرش ودمشق وأم قيس وفحل.

وممّا ذكره عن عمّان، مقرّ حكومة الشرق العربي، أنها "واقعة بين جبلين وتنبع بقربها عين يجري ماؤها في الوادي فتكسبه خضرة. وفيها ملعب كبير (المدرج الروماني) قائم على جانب الجبل"، وألمح إلى تاريخها القديم الذي أشار إلى أنه يرجع إلى القرن

درويش المقدادي

الرابع عشر قبل الميلاد، وإلى أنها كانت من مدن العمونيين، واستولى عليها في ما بعد البطالسة، وأعاد بناءها بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي سمّيت باسمه في ذلك العهد، لكنها استعادت اسمها القديم (عمّان) لما افتتحها العرب.

كان عدد سكان عمّان يوم زارها المقدادي حوالي عشرة آلاف نفس، بمن فيهم سكانها الجركس أو الشركس، وقال إنَّ السلطان عبد الحميد (الثاني) أرسلهم بعد هجرتهم من القفقاس ليجعلهم حاجزًا دون غارات البدو، وإنه -أي المقدادي- وجدهم ما زالوا يتكلمون لغتهم، وذكر ما يوضح عادة الخطف في الزواج عندهم، مستحسنًا الطريقة التي يتعارف بها الفتيان والفتيات الجراكسة بمعرفة ذويهم، وبقصد الزواج وضمان الحياة الهادئة والمستقرّة في بيت الزوجية، فقال: "إنَّ الفتى منهم إذا أحبّ فتاة جركسية ذهب إلى بيت أبيها. وهناك يجتمع بها هو وأصحابه عند أمها ويحدّثها ويتعرف أخلاقها ثم يزورها بعد ذلك حتى يتمكن من معرفتها فيهواها. فإذا عزم على الزواج بها اتفق معها سرًا أن يأتي إليها على حين غفلة من أهلها ليخطفها. فيأتي عادةً فتاها مع أصحابه راكبين الخيول ويقتربون من بيت أهل الفتاة ويشعرونها بقدومهم. فتخرج الفتاة راكبة مع حبيبها. ولمّا يبتعد هذا عن بيتها يطلق مسدسه بضع طلقات ليعلم أهلها بخروجها، ثم يأخذها إلى بيت غير بيته. ومن ثم يحصل في هذا البيت عقد الزواج بحضور وليها فيتم بذلك زواج الفتى. ويعد الجراكسة الزواج دون خطف عارًا. هكذا يتزوج الجركسي بعد أن يعرف زوجته". وأردف المقدادي متسائلًا: فهل يوجد لدينا طريقة يستطيع الفتى بواسطتها معرفة شريكة حياته، أخلاقها أو طباعها وكلامها وهيئتها، كيلا يتزوّجها "على العمية" أو دون معرفة كافية؟

رحلة إلى عمّان

خلال الربع الأخير من سنة 1933 قام صاحب صحيفة "الصراط المستقيم" اليومية في يافا وخريج الأزهر الشيخ عبدالله القلقيلي (1899-1973م)[3]، والذي أصبح في ما بعد مفتي المملكة الأردنية الهاشمية، برحلة مدّتها أسبوع واحد إلى عمّان عاصمة الإمارة التي لم يكن يعرفها من قبل، ولهذا اصطحب معه سكرتير تحرير الصحيفة علي منصور، الشاعر المصري الأصل، لما لديه من معرفة وخبرة بشرقي الأردن فقد عمل فيها منصور مدة من الزمن من قبل. وكان الجوّ العام في فلسطين حينها متوترًا بسبب الاضطرابات والاحتجاجات العربيّة التي وقعت نتيجة فتح الأبواب من قبل الحكومة المُنتَدبة في فلسطين أمام الهجرة اليهودية، فانطلق القلقيلي مع رفيق رحلته من القدس بالسيارة، وأشار إلى أنَّ السيارات لم تكن تسير بين القدس وعمّان إلَّا

الشيخ عبدالله القلقيلي

قليلًا، ومرّ بأريحا التي كانت مُغلَقة إضرابًا، واجتاز جسر اللنبي المقام على نهر الشريعة (نهر الأردن) الفاصل بين فلسطين والشرق، وأشار إلى أنَّ الموظفين على الجانب الفلسطيني يكتبون أسماء المجتازين إلى شرقي الأردن، لكنهم ليسوا بلطف وبشاشة وسماحة الموظفين في الجانب الحدودي الأردني، وأرجع ذلك إلى أنَّ الأوّلين يتبعون لحكومة الانتداب فيما يتبع الموظفون من شرقي الأردن حكومة عربيّة "والناس على دين ملوكهم"!

وفي طريق الصعود من غور الأردن مرَّت السيارة بقصرٍ يقع قربها كان يُشتّي فيه الأمير عبدالله ومكان آخر أشار القلقيلي إلى أنه يُضرَب فيه فسطاط الأمير، وقال ممّا عرفه بنفسه خلال رحلته: "يظهر أنَّ سموّ الأمير مشغوف بعيش البداوة؛ فهو حيث ينزل يطلب أن تُضرَب لهُ الخِيام، حتى إنَّ لسموّه في حديقة قصر رغدان خيمة" بُسِطَت فيها سفرة الغداء التي دُعيَ إليها القلقيلي ورفيقه. وتحدّث عن محافظة الأمير على زيّه البدوي أحبّ الأزياء إليه، وقد أخذ بَنيه الأمراء بذلك فكان سمو الأمير طلال متزيًا بهذا الزي مما "يدخل في الأصالة وكرم العِرق ونُبل المَحْتِد، وهو من علامات الشرف"- بتعبير صاحب الرحلة.

أمّا عن عمّان فقال إنه كان يتوهّم صورة غير الصورة التي ألفاها عليها، فقد كان يظنها أشبه بقرية، ولكنه وجدها "مدينة جميلة، ذات دور بيضاء وقصور غراء، وشوارع فسيحة مستقيمة، مفروشة بالإسفلت، وقد طاب هواؤها وعَذب ماؤها واعتدل مناخها"، وقد تقدَّمت خلال بضع سنين عما كانت عليه سابقًا، وأخبره رئيس بلديتها طاهر بك الجقة بأنّ "الحكومة لا تعارض البلدية في شيء، بل تسهّل لها عمل كل شيء"، وأنّ البلدية قامت بمشروع إضاءة عمّان بالكهرباء من مالها، ولم تلجأ إلى مشروع "روتنبرغ" لتوليد الطاقة الكهربائية من مياه نهري اليرموك والأردن بامتياز من سلطة الانتداب لشخص يهودي، ولم تجبرها الحكومة على ذلك، لأنَّ البلدية رأت في "روتنبرغ" مشروعًا يشكل خطرًا على العرب وحصنًا للصهيونية يجبي المال من العرب ليعيش منه الصهيونيون. ويعلّق القلقيلي على ذلك بالقول: "من هنا يظهر أنَّ العرب إذا تُركوا وشأنهم أسرعوا السَّير في التقدّم بما لا يكون منهم في إدارة استعمارية تقف في سبيلهم، وتقيم أمامهم العقبات".

وكان أوَّل ما عمله في اليوم الثاني لوصوله عمّان أن توجّه للسلام على "صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله"، بصحبة الأستاذ نظمي بك عبدالهادي أحد أقطاب حزب الشعب الأردني، وقابلهم الأمير بزيّه العربي الذي لا يدعه لا في مكتبه ولا في مقرّه، مرتديًا القباء الحريري ومتمنطقًا بالخنجر وفوق ذلك العباءة والعقال والكوفيّة.

وتحدَّث القلقيلي عن عناية الأمير عبدالله بفلسطين واهتمامه بما يجري فيها من حوادث، وقلقه من أخبار آنئذٍ عن منشورات لحكومة الانتداب في فلسطين بأنها لن ترجع عن جعل فلسطين وطنًا

قوميًا لليهود، لكن المعتمد البريطاني في ذلك الوقت أبلغ مستشار الأمير الشيخ فؤاد باشا الخطيب بأنه لا علم له بذلك، وأنَّ حكومة فلسطين أجابت بأنه لا صحة لذلك! ويستطرد القلقيلي للإشارة إلى مذكرة بعثها سموّه إلى الحكومة البريطانية بشأن فلسطين وقضيتها وقد كتبها بنفسه في قالب سياسي حكيم، ووقعت موقع الاهتمام لدى المندوب السامي البريطاني وحكومته، ويقول القلقيلي إنَّ الأمير أُجيب عليها جوابًا حسنًا، ويذكر صاحب الرحلة أيضًا أنَّ سموّه جاهد في الكتابة إلى الحكومة البريطانية داعيًا إلى إنصاف العرب، في الوقت الذي أضرب فيه الناس في عمّان يوم وصلها القلقيلي وساروا في مظاهرات احتجاجية على ما يحدث في فلسطين والهجرة اليهودية إليها، وكان وابل برقيات الاحتجاج من شرقي الأردن إلى الحكومة البريطانية لا يكاد ينقطع، ويقول القلقيلي: إنَّ كثيرًا من الناس كان "يرقب كلمة من زعيم مسؤول أو إشارة من مُطاع ليزحف إلى فلسطين"! ونوّه هنا بعقلانية حكومة شرقي الأردن والحكمة التي جنّبت هذا البلد ما هو أدهى ممّا وقع في فلسطين، ووصف الأسبوع الذي قضاه في عاصمة شرقي الأردن بأنه كان "أسبوع فلسطين".

وينقل القلقيلي صورة من مجلس الأمير عبدالله والمزيد من ملامح من شخصيّته التي كان من الواضح أنه يكن لها الاحترام والإعجاب، فقال إن سموّه "يقبل على مَن يتشرف بمجالسته بالبشاشة والإيناس ويجاذبه الحديث فيما يعلم سموّه أنه يحسنه، فإذا كان جليسه فقيهًا حادثه في الفقه، وإذا كان أديبًا حادثه في الأدب. وسموّه يحب العلماء ويرغب في مجالستهم ويبالغ في إكرامهم، وهو يسهّل لهم العيش في كنفه، ولذلك تجدهم يستطيعون الإقامة في ظلّ الأمير؛ كمثل الشيخ الشنقيطي (الشيخ محمد الخضر الشنقيطي) المُحدِّث، فقد علِمنا أنَّ سموّ الأمير يجري عليه مرتبًا شهريًا". وأشار إلى أنَّ سموّه يتكلَّم بلغة فصحى، ويتبسط مع مجالسيه بالمُلَح والفكاهات.

وخطر للقلقيلي أن يسأل عن حرس الأمير ولِمَ اتخذهم من الجركس، فقيل له حتى يرى شعبه أنه لا يفرّق بين أجناسه فيقتدي به، وعلى هذه القاعدة دخل شخصيات من مسيحيي البلاد الوزارة مثل عوده بك القسوس النائب العام لحكومة شرقي الأردن. ورأى القلقيلي أنّ هذه السياسة قد أثمرت فإنَّ المسلمين عربًا وجركسًا والمسيحيين متعلقون بالأمير، وإنهم حريصون على رضاه.

وتسنّى للقلقيلي أن يجتمع بالأمير طلال ولي عهد إمارة شرقي الأردن آنئذٍ، وذكر أنَّ الناس يتداولون حكايات عجيبة تدلّ على وطنيّته البالغة، وزار الأمير نايف النجل الأصغر للأمير عبدالله. كما حضر حفلة افتتاح المجلس التشريعي الأردني، واغتبط بما رآه فيها من مظاهر العزّ والمجد، فوصف مراسمها وقدوم أمير البلاد لإلقاء خطاب العرش وهو يرتدي ملابسه العسكرية في موكب عظيم فتُطلق المدافع تحيةً له وتصدح الموسيقى بالسلام الأميري. وأعجبه في خطاب العرش أنه يتميَّز عن سائر خُطَب العروش الإسلامية أنه افتُتِح بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، وأنه يؤرَّخ بالتاريخ الهجري فقط، وقد لخَّص الخطاب ما عملته الحكومة من الأعمال، كما بشَّر بقرب عقد معاهدة حينئذٍ بين حكومة شرقي الأردن والحكومة السعودية.

ولاحظ صاحب الرحلة أنَّ الأغلبية في المجلس التشريعي للدورة التي حضر افتتاحها كانت لحزب

الشعب المعارض ومنه تشكَّلت معظم لجان المجلس، وأنَّ رئيس المجلس هو نفسه فخامة رئيس الوزراء، وأنَّ أعضاء مجلس الوزراء لهم حق الاقتراع!

ومن الشخصيّات التي ذكرها القلقيلي في رحلته غير ما جاء في السياق هنا من أسماء أخرى: محمد بك الأنسي الذي كان في السابق رئيس ديوان الأمير، وهاشم بك خير عضو المجلس التشريعي والتنفيذي، والأستاذ الشيخ نديم الملاح الأديب المشهور (وصاحب مجلة الحكمة)، والسيد خليل نصر صاحب صحيفة "الأردن"، ومحمد بك المحيسن رئيس ديوان الأمير الذي "تلوح عليه أمارات الذكاء والفطنة ويتكلَّم الإنكليزية"، وقال عن الشيخ فؤاد باشا الخطيب إنه أستاذه فقد عمل معه في بدء النهضة العربيّة في الوكالة العربيّة بالقاهرة، التي كان الخطيب وكيلها كما كان وكيلًا للخارجية في عهد جلالة الملك المنقذ الحسين بن علي في الحجاز.

ديار الأنباط، وفي الطريق إلى جرش

في غضون النصف الأوَّل من أربعينات القرن الماضي تسنّى للمؤرخ الرحّالة الدكتور نقولا زيادة (1907-2006م) أن يقوم برحلتين إلى شرقي الأردن أفرد لهما قسمًا من الفصل الذي كتبه بعنوان "سورية كما عرفتها" في كتابه "صور من التاريخ العربي"[4]، فزار في سنة 1942 مع رفاق له في الكلية العربيّة بالقدس حيث كان يعمل أستاذًا، معان والبتراء والشوبك والكرك جنوبًا. وفي السنة التالية 1943 سافر من القدس أيضًا إلى شمالي الأردن مع اثنين من رفاقه هما أديب عتقي وأديب خوري، المهندس الصحفي، في سيارة هذا الأخير المسماة "زنوبيا الثانية"، فزار الثلاثة جرش، التي استغرق الوصول إليها يومين

د. نقولا زيادة

مرورًا بعجلون وإربد ومصبّ وادي اليرموك في نهر الأردن، ومرورًا قرب فحل وبيسان، كما أشرفوا خلال الرحلة على هضاب حوران والجولان شمالًا.

جاءت الرحلتان كسانحة استحضر فيها زيادة التاريخ متأملًا سياقاته بما تحمله من مؤشرات ودلائل على العمق الحضاري لهذه الديار، وبما تشكِّل من رؤية جليّة لأهمية موقعها الجغرافي وأبعاده؛ مع كشف العبرة واستشفاف الفائدة من هذا الدرس الموضوعي في مطاوي التاريخ عبر الرحلة، لكن دون الاستغراق في الماضي ودون الانفصال عن الحاضر. فخلال عهد دولة الأنباط في البتراء، ثم في العهد الروماني، كان الاستقرار العامل الأهم في إبراز هذه الأهمية وانعكاسها أيضًا على المنطقة المحيطة بشرقي الأردن. فالرومان الذين احتلوا سورية وعملوا على استقرار البلاد بتنظيم الإدارة وتأمين الحماية من هجمات البادية أنشأوا القلاع والحصون التي امتدت من جنوبي عمّان إلى درعا حتى تدمر والفرات، وأعادوا القيمة لكثير من المدن المهملة بإعمارها من جديد، فعاد الناس لسكناها، ومنها زيزياء وعمّان (فيلادلفيا) وجرش وفحل وبيسان ودرعا، واعتنى الرومان أيضًا ببناء الطرق ليوفروا للجيش سرعة

الانتقال والمحافظة على البلاد، وكذلك الربط بين مدن الداخل والساحل، "فكانت عكا (بطلمايوس) وبيروت وما بينهما تتصل مع بيسان وفحل وجدارا وجرش ودمشق اتصالًا مباشرًا على طرق مبنيّة من قطع كبيرة من الحجر"...إلخ.

ويبيّن زيادة أنَّ موقع شرقي الأردن الطبيعي بين الحجاز جنوبًا وسورية غربًا وشمالًا والعراق شرقًا جعل من هذه المنطقة طريقًا للتجارة وممرًا للقوافل من أقدم الأزمنة، وبسبب الاستقرار على مدى ثلاثة قرون من الحكم الروماني ازدهرت الحياة الاقتصادية، ونَمَت الثروة، وزاد عدد السكان، وعاد إليها العمران بالمباني والهياكل، واعتنت مجالسها المحلية وحكامها بتجميلها وتحسينها، وكانت مدنها قد وُجدت في زمن اليونان وقد تأثرت بالنزعة الهندسية التي عُرِفَت بها المدن اليونانية الهلينية، مما اتسمت به الشوارع التي تتقاطع على زوايا قوائم، وتسير على خطوط مستقيمة، وكانت المياه العذبة الصالحة للشرب تُنقل من مسافات بعيدة. ويحدثنا المؤرِّخ الرحَّالة عن نهضة فنيّة في ذلك الزمان، قوامها أهل البلاد أنفسهم، وقد تمثَّلت في تزيين أرض البيوت والهياكل بالفسيفساء الجميلة بأشكالها ورسومها البديعة، والاهتمام ببناء الكنائس المرصعة أرضياتها أيضًا بالفسيفساء، "التي شملت صور القديسين، ومناظر من الكتاب المقدس، وخارطة لفلسطين وبيت المقدس وفيها كنيسة القيامة".

استقلّ نقولا زيادة في الرحلة إلى الجنوب الأردني القطار من محطة عمّان مع خليط من الركّاب بينهم التجار الذين يحملون بضائعهم من حوانيت دمشق وعمّان إلى أهل الكرك ومعان، والبدو العائدون إلى مضاربهم "بعد أن قضوا لبانتهم من مباهج عاصمة الإمارة وغيرها"، والجنود الراجعون إلى العقبة، وقلّة من طلاب المتعة بزيارة الآثار القديمة. ويصف زيادة بأسلوب قريب إلى السرد القصصي أجواء الرحلة في قطار يطوي البيد على سيف البادية، حيث أرض قفراء لا نبات فيها ولا مظاهر للحياة سوى بعض خيام تبدو للعيان بين حين وآخر، فلا يجد الركّاب ما يخفف وطأة الوقت الطويل لقطع المسافات على السكة الحديدية إلا تبادل الحديث بينهم... فهناك لغة مشتركة تربطهم "بعضهم ببعض، فيتحدثون حديث إخوان وخلّان، ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء، ويروي الواحد قصته فيضحكون حينًا ويألمون حينًا"، ويذكر زيادة من بين هؤلاء الركاب "أبو شام" التاجر الدمشقي المقيم بالكرك الذي قصَّ عليهم طرفًا من اختباراته في الإتجار والسفر، ولمّا غادر القطار في محطة القطرانة أسفوا لذلك، وودّوا لو أنه قصد معان معهم ليتم سرورهم بحديثه.

كما وصف صاحب الرحلة بعض المحطات التي مرَّ بها القطار، فأشار إلى أنَّ أكثرها يتكوّن من بيت لناظر المحطة ومكتب له، وفي بعضها بنايتان أو أكثر لخزن غلّات المنطقة المتجمّعة فيها تمهيدًا لشحنها، وفي زيريا (30 كم جنوب عمّان) بركة لجمع الماء، فأكثر هذه الأماكن خالية من الينابيع. وذكر أنَّ القطار يحمل الماء إلى سكان هذه المحطّات من عمّان، فيفرِّغونه في صهاريج مخصصة لذلك، ويقتصدون في استعماله إلى أن يأتي القطار في الموعد التالي حاملًا لهم كمية جديدة من الماء.

وعلى الطريق يذكر زيادة زيارته السابقة إلى مادبا، وإلى قصر المشتى الواقع إلى الشرق من زيزياء، ويستذكر قطع الفسيفساء الجميلة التي شاهدها مما يعد "من مفاخر الفن السوري قبل الفتح

العـربي لهـذه البـلاد"، كـما يذكـر بيوتًـا دخلهـا في مأدبـا فـكان أهلهـا يرفعـون الحصـير الـذي يكسـو الأرض فتظهـر تحتـه هـذه القطـع الفنيـة. ويعجـب بمـا وقـف عليـه مـن الآثـار المتبقيـة في قـصر المشـتى والتـي تـدلّ عـلى أنَّ "القـوم صنعـوا شـيئًا لم يعرفـه الـشرق منـذ أيامهـم"، وقـد كانـت قصـور الخلفـاء الأمويـين "تحـوي مـن لـوازم الرفاهيـة ومقتضيـات العيـش الهنـيء مـا لم يكـن الحصـول عليـه سـهلًا في المدينـة، بلـه قـصرًا في الصحـراء"!

وتدعـو الرحلـة في قطـار يسـير عـلى الخـط الحديـدي الحجـازي صاحبهـا إلى التطـرُّق لـشيء مـن تاريـخ إنشـاء هـذا الخـط مـا بـين نهايـة القـرن التاسـع عـشر ومطلـع القـرن العشريـن، وغايـة الدولـة العثمانيـة مـن إنشـائه، وأثـر وصولـه إلى الجنـوب الأردني مـن جهـة تغيـير طـراز معيشـة بعـض البـدو وانتقالهـم إلى الحيـاة الحضريـة، ومـا كان مـن تكلفـة إنشـاء هـذا الخـط عـلى الغابـات في المنطقـة الواقعـة قـرب وادي الحسـا، والتـي اقتطعـت أشـجارها لمـدّ السـكّة بالأخشـاب. وتتداعـى في ذهنـه صـور التاريـخ فيذكـر الغساسـنة العـرب الخُلـص الذيـن عمّـروا مشـارف الشـام وكانـت لهـم مدنيـة وحضـارة فيهـا.

ويصـف زيـادة آثـار البـتراء وصفًـا شـاعريًا لا يجـافي الواقـع، فيرسـم لوحـة لافتـة لسـحر الألـوان التـي تنعكـس مـن الجبـال الرمليـة عـلى الصخـور الورديـة مـع أشـعة الشـمس كآيـة مـن آيـات الفـن تتحـد في إخراجهـا الطبيعـة ويـد الإنسـان. وتحـدَّث عـن حضـارة العـرب الأنبـاط في القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، والذيـن أصبحـوا سـادة التجـارة في جنـوب سـورية، وغـدت البـتراء السـوق الرئيسـة لمتاجـر بـلاد العـرب ومـصر وسـورية الداخليـة والسـاحلية. وفي طريـق العـودة يـزور الشـوبك وقلعتهـا التـي بناهـا الصليبيـون واسـتولى عليهـا الأيوبيـون واتخذهـا أهـل الشـوبك كحمايـة لهـم ولـدرء الخطـر عـن بلدتهـم. ثـم ذهـب ورفـاق الرحلـة في زيـارة إلى الكـرك، وكانـت ضيافتهـم عنـد آل المجـالي، ومنهـم رئيـس الجامعـة الأردنيـة ورئيـس الوزراء الأسـبق الدكتـور عبدالسـلام المجـالي الـذي كان يومهـا مـا يـزال طالبًـا في كليـة الطـب بالجامعـة السـورية في دمشـق، وصديقًـا للدكتـور ناصرالديـن الأسـد الـذي تمّـت الرحلـة برعايتـه، وأصبـح نقـولا زيـادة منـذ ذلـك الحـين ثالـث الأصدقـاء.

حملـت الرحلـة الثانيـة لزيـادة في شـمالي الأردن صـورًا قلميـة غايـة في جـمال الوصـف والتصويـر لمناظـر جبـال عجلـون وغاباتهـا، وآثـار جـرش ووواديهـا بلغـة أدبيّـة بليغـة، تمنـح حديـث الرحلـة رونقًـا يجعـل القـارئ يعيـش اللحظـة في الاسـتمتاع بالطبيعـة الخلابـة، ويرافـق الرحّالـة في مشـاهدة الآثـار والتجـوّل بـين الأطـلال، واستشـعار أجـواء العـصر الـذي ترجـع إليـه.

وعـلى ذيـوع شـهرة آثـار جـرش بـين الرحّالـين والسـياح منـذ اكتشـفها الرحَّالة الألمـاني "سـيتزن" (1767-1811م)، سـنة 1806، فـإنَّ البلـدة كانـت حـين زارهـا زيـادة ورفاقـة خلـوًا مـن فنـدق ينزلـون فيـه، فاسـتضافهم أحـد أبنائهـا ممّـن ذكـر صاحـب الرحلـة أنهـم نعمـوا بضيافتـه ليلـة "أهَّـل بهـم ورحَّـب، وفتـح لهـم بيتـه وصـدره، فاسـتمتعوا بكرمـه وحديثـه، ورافقهـم في الصبـاح لزيـارة جـرش القديمـة".

د. سليمان حزين

تاريخ يُعيد نفسه في شرقي الأردن

الرحلة الأخيرة التي نعرض خلاصتها من الرّحلات العربيّة المختارة إلى شرقي الأردن في عهد الإمارة هي لأستاذ الجغرافيا التاريخية الأكاديمي المصري الدكتور سليمان حزين (1909-1999م) الذي شغل منصب وزير الثقافة في بلده، وأسس جامعة أسيوط (1955) وكان أوّل رئيس لها. وقد أمضى أيامًا من سنة 1945 متنقلًا في أرجاء شرقي الأردن وكتب بحثًا من واقع الدراسة الميدانية التي أجراها خلال رحلته[5]، بنظرة تجمع بين التاريخ والجغرافيا أو بين الإنسان والبيئة، ذلك أنَّ النشاط البشري الذي يصنع التاريخ هو بنظره نتيجة للتفاعل بين البيئة والإنسان. ويقول الدكتور حزين إنه بقدر ما يطول التاريخ البشري في إقليم ما، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مرّ العصور، والشرق الأدنى -بتعبيره- أحد تلك الأقاليم ومنه منطقة شرقي الأردن، التي كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب. ويرى أنَّ تاريخ هذه المنطقة صورة واضحة من "تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق؛ وارتباطها بعضها ببعض ارتباطًا شمل نواحي الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعًا".

وشرح الدكتور حزين دور الجغرافيا الأردنية في اكتساب هذه المنطقة جوانب من التحضُّر والاستقرار، وما وفَّر لها هذا الدور من مزايا الاتصال عن طريق الجنوب والشمال. وتاريخيًّا، فإنَّ الموقع الجغرافي "جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق، واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكًا لم يخل من عنف في بعض الأحايين، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات". كما تحدَّث عن الطرق التجارية التي كانت تتقاطع في شرقي الأردن وتلتقي فيها من الجزيرة العربيّة وأطرافها شرقًا، ومن البحر الأحمر ومصر وسيناء جنوبًا، ومن ميناء غزة جنوبي فلسطين إلى وادي عربة وأرض بطرا والأنباط القدماء، ومن الشمال طرق عدة يأتي أحدها من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمالي مؤاب، وآخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعمّان، وثالث من سورية الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وحوران ثم الجنوب، وأما الطريق الرابع فمن شمالي فلسطين عبر الأردن حتى يلتقي بطريق الشام ويمتد إمّا جنوبًا أو شرقًا أو باتجاه الشمال. وكان تلاقي التجار من أطراف الشرق الأدنى يحمل معه تبادلًا للفكر والثقافة، ما أدّى إلى التعارف والتآلف الشرقي في كثير من الأحايين، فضلًا عن أنَّ هذا الملتقى للتيارات الثقافية المختلفة أثمر ثمراته الطيبة، فقد كانت الثقافة عند الأنباط وكتابتهم بشكل خاص أساسًا من أسس الثقافة والكتابة العربيتين، وقد تطوّر الخط العربي المعروف من الخط النبطي القديم. والأمثلة عديدة من الوقائع التاريخية المتعلقة بأطماع الدول القريبة والبعيدة

للاستيلاء على شرقي الأردن بسبب أهمية موقعه، فقد ظلت ميزته "قيمة دائمة لا طارئة، وكانت عاملًا أساسيًا باقيًا، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها". وفي العصر الحديث أدركت بريطانيا هذه الأهمية حين استقر الأمر لها بالانتداب، فأقامت حاميات ومعسكرات وقواعد جوية لتمتد بنفوذها إلى الشرق العربي، ومدَّت طرقًا عسكرية كما فعل الرومان قديمًا.

برزت قيمة عمّان من جديد حين اختارها الأمير عبدالله عاصمة للإمارة، ويقول حزين يوم زار عمّان (فيلادلفيا القديمة ووريثة موقعها): "فإذا دقَّق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية، وهي الطرق التي حدَّدت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى، ولا تزال الطرق الحديثة تتبع الاتجاهات القديمة".

ومما يتناوله صاحب الرحلة العلاقة بين العرب وأهل البادية بصفة خاصة وبريطانيا المُنتَدبة، فيرى أنَّ البريطانيين كانوا أحكم من الرومان في سياسة هذه العلاقة، فقد أدركوا أنه من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية منطقة شرقي الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات، فالعرب والبدو لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون حكمًا من الخارج، فتركت شؤون الحكم في الإمارة الأردنية الناشئة التي لم يتجاوز عدد سكانها ثلث مليون لأميرها العربي. زد على ذلك أنَّ العرب من جانبهم -كما لمس الدكتور حزين- "لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين، وإنما أخذوا كثيرًا من أسباب نهضتهم بأيديهم، واستطاع أميرهم إذ ذاك أن يشيع في بلاده نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها مَن يزور هذا القطر العربي".

ويستعيد الدكتور حزين أمام النهضة الحديثة لشرقي الأردن أوجه شبه بينها وبين نهضات في عصور التاريخ الغابرة، ولا سيما من جهة ما شهده من بدء اتساع الأراضي الزراعية في وادي الأردن وبعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية، وحيث تجود التربة، ما يعني أنَّ حياة الزراعة والاستقرار بدأت تعمّ على حساب حياة البادية والتنقل طلبًا للكلأ والمراعي، كما أخذت البيوت المبنية بالحجر تظهر وسط بيوت الشَّعر، وبدأت التجارة وأسواقها تزدهر، وبدأ البحث عن الثروات المعدنية واستغلالها. وكل ذلك دلائل على نهضة اقتصادية تظهر للزائر والسائح في ما يراه بعمّان والمدن الأخرى مع ارتفاع مستوى المعيشة الناتج عن زيادة حقيقية في معدلات الكسب والأجور، ولا يقل هذا المستوى عن نظرائه في الأقطار العربيّة ومنها مصر -على ما يؤكده صاحب الرحلة- ذلك إضافة إلى نهضة البلاد التعليمية والثقافية التي بشَّرت بخيرٍ كثير.

الهوامش:

1. خيرالدين الزركلي: "عامان في عمّان- مذكرات عامين في عاصمة شرق الأردن -1921 1923"، تحقيق ومراجعة: عيسى الحسن، عمّان، الأهلية للنشر والتوزيع، 2009 (ينظر الصفحات 53، 63-57، 67-65، 71-70، 94-93، 119-109، 147-121). وكان هذا الكتاب (وهو جزء أوَّل كما أثبت على غلافه حينذاك) قد طبع أولًا في المطبعة العربيّة بالقاهرة سنة 1925 وعُني بنشره يوسف توما البستاني، ونشر الباحث والمحقق الأستاذ أحمد العلاونة ما وجده من مخطوطة الجزء الثاني في كتابه "خير الدين الزركلي- ببلوغرافيا، صور ووثائق، وبعض ما لم يُنشَر من كتبه"، ط1، الكويت، مكتبة فهد الدبوس للتراث الأدبي، وبيروت، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1435هـ/ 2014م.
2. يبدو هذا النص أقرب إلى خلاصة من ملاحظات عن رحلة، وقد نشرته بصيغة مقالة مجلة دار المعلمين بالقدس في عددها الرابع سنة 1924.
3. نشر رحلته في صحيفة "الصراط المستقيم" على حلقات في أعداد شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1933.
4. نقولا زيادة، "صور من التاريخ العربي"، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1946، ص-121 135. وينظر: نقولا زيادة، حول العالم في (76) عامًا: رحلات مثقف شامي في آسيا وأوروبا والشمال الإفريقي (1992-1916م)، حررها وقدَّم لها: نوري الجراح، سلسلة "ارتياد الآفاق"، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، وبيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، 2007، ص250-239.
5. سليمان حزين، "أرض العروبة: رؤية حضارية في المكان والزمان"، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1993، ص314-303. وسبق أن نشرت الدراسة حول شرقي الأردن في مجلة "الكاتب المصري" بالعنوان الذي أثبتناه هنا، ع6، مارس (آذار) 1946.

مصادر جديدة لدراسة تاريخ الأردن

د. أمجد ممدوح الفاعوري*

شهدت العقود الأخيرة الماضية اهتمامًا متزايدًا بالسجلّات التي تشكِّل دراستها مصدرًا مهمًّا لكتابة تاريخ الأردن المحليّ، فبعد فتح باب السجلّات (سجلّات المحاكم الشرعيّة ودفاتر الطابو وسجلّات التسوية وسجلّات الأديرة والكنائس والأوراق المحليّة ودفاتر مقرّرات المجالس البلديّة والوقفيّات والمدارس) بدأ الباحثون يتعرَّفون إلى مصادر جديدة ساعدت على تقديم رؤية محليّة مباشرة كانت تغيّبها دراسات التاريخ التي تعتمد الوثائق الغربيّة فقط. وتمثَّلت هذه التجربة بتحقيق وطباعة ونشر السجلّات المتنوعة والتي تكتنز بتفاصيل الحياة اليوميّة، وتحمل الخصوصيّة التي لا نجدها عادة في المصادر التقليديّة.

تُعتبر الوثائق الرَّكائز الأوليّة في الكتابة التاريخيّة، ومن هذا المنطلق نقول دومًا: "لا تاريخ من دون وثائق"، والوثيقة بحدّ ذاتها لا يدرك قيمتها إلا مَن عرف التاريخ ومواضيعه، ومنهجه وأدوات بحثه، فكم من وثيقة أُتلفت، أو لم يهتمّ بها أحد، وهي مفتاح لأمر ما، سواء كان ذلك من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الإدارية. وفي العُرف التاريخي تبقى الوثيقة أو المادة التاريخيّة بشكل عام ميتة إلى أن يأتي المؤرِّخ والباحث فيبعثها من جديد، ويضع الحياة فيها بالدراسة والتحليل والنقد إلى غير ذلك من الأمور. وقد جاءت دراسات "برنارد لويس" B.Lewis في مطلع الخمسينات من القرن الماضي عن الأرشيف العثماني، وأهميّته كمصدر لتاريخ الولايات العربية في العهد العثماني، علامة فارقة في توجيه أنظار الباحثين نحو أهمية هذه الوثائق منبهرين بما يتوافر فيها من معلومات تاريخية، فهذه الوثائق على تنوُّعها وحقبها تحمل مصداقيّة كبيرة لدينا، فهي أقدر على تقديم النبض اليومي لحياة الناس، وعلاقتهم بالدولة، وفهمهم لطبيعة الحكم المحلّي. فمن خلالها تمكَّن الباحثون من قراءة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والعمراني والإداري بدقة وعمق من خلال فحواها الذي يعكس الصورة الحقيقية للحياة اليوميّة والتي تغفلها عادة المصادر الأخرى، فتفسّر لنا المعطيات على الأرض بدرجة كبيرة من الاطمئنان عن تاريخنا.

لقد شهدت السنوات الأخيرة اهتمامًا بالغًا بدراسات التاريخ المحلّي في الأردن، وجاء هذا الاهتمام متزامنًا مع البحث عن المصادر المحليّة ونشرها ودراستها، وكان للمؤسسات الأكاديمية الدور الأكبر في توجيه الطلبة والدارسين نحو هذا التوجُّه المحمود. وبعد فتح باب السجلّات، وعلى رأسها سجلّات المحاكم الشرعيّة ودفاتر الطابو وسجلّات التسوية وسجلّات

* **محاضر غير متفرِّغ- الجامعة الأردنية**

مدير الخدمات المكتبية والإيداع- دائرة المكتبة الوطنية

amjad.faouri@yahoo.com

الأديـرة والكنائـس والأوراق المحليـة ودفاتـر مقـررات المجالـس البلديـة والوقفيـات والمـدارس ظهـرت مجموعـة مـن الدراسـات الأكاديميـة تمكّـن الباحثـون والطلبـة خلالهـا مـن المزاوجـة بـين المصـادر المتعـددة ودراسـتها بعمـق ومنهجيـة، وبذلـك بدأنـا نتعـرّف إلى مصـادر جديـدة سـاعدتنا عـلى تقديـم الرُّؤيـة المحليّـة المبـاشرة التـي كانـت تغيّبهـا دراسـات التاريـخ التـي تعتمـد الوثائـق الغربيّـة فقـط. وتمثّلـت هـذه التجربـة بتحقيـق وطباعـة ونـشر هـذه السـجلّات المتنوعـة والتي تكتنـز بتفاصيـل الحيـاة اليوميّـة، وتحمـل الخصوصيّـة التـي لا نجدهـا عـادة في المصـادر التقليديّـة.

تمثّـل دراسـة هـذه السـجلّات، بكافـة أوعيتهـا المعرفيّـة، توجُّهًـا مدروسًـا لإسـناد الدراسـات السـابقة وتعميقهـا بمعلومـات مبـاشرة ودقيقـة وغنيّـة للواقـع الاجتماعـي والاقتصـادي والإداري والعمـراني للبـلاد، كـما تمثّـل هـذه المصـادر محاولـة لكتابـة تاريـخ البـلاد في بدايـة تكويـن الدولـة الحديثـة. ولأهميـة مـا سـبق شـهد عـام 1990 بدايـة الخطـوة الحاسـمة والرّاسـخة في توجـه أقسـام التاريـخ في الجامعـات الأردنيّـة طلبـة الدراسـات العليـا لاختيـار موضوعـات تتنـاول تاريـخ الأردن اعتـمادًا عـلى الأرشـيف العثـماني. ويعـود الفضـل في تشـكُّل هـذه المدرسـة إلى الدكتـور محمـد عدنـان البخيـت، الـذي كان الطلبـة يعملـون تحـت إشرافـه.

إنَّ خـطَّ هـذه المدرسـة الجديـدة بـدأ بفتـح الأرشـيف العثـماني، المُصـوَّر جـزء كبـير منـه في "مركـز الوثائـق والمخطوطـات" بالجامعـة الأردنيّـة، ودراسـته، والمزاوجـة بـين هـذه المصـادر التـي فُتحـت أمـام الباحثـين للمـرَّة الأولى، ومنهـا سـجلّات الطابـو العثمانيـة، وسـجلّات تسـوية الأراضي، والمحاكـم الشرعيّـة، والنّفـوس. وجـاءت النتيجـة بتأسـيس مدرسـة راسـخة تقـوم عـلى دراسـة عميقـة للمـكان وللأهـالي والسـلطة في فـترة التنظيـمات العثمانيـة، بحيـث يمكـن أنْ نقـول: إنَّ تاريـخ الأردن في العهـد العثـماني بـدأ خطًـا جديـدًا وراسـخًا، عـلى أصـول أكاديميـة، بفتـح الأرشـيف العثـماني، واتِّبـاع منهجيّـة واعيـة، أصبحـت هـي المدرسـة التـي تابعتهـا الدراسـات اللاحقـة في العقـود الثلاثـة اللاحقـة، وعُرفـت بأنهـا مدرسـة الدكتـور البخيـت.

بـدأت جهـود هـذه المدرسـة باهتـمام الأكاديميـين بالبحـث عـن مصـادر تاريـخ الأردن في العهـد العثـماني، فبـدأت جهـود لاحقـة بنـشر سـجلّات المحاكـم الشرعيـة، وسـجلّات البلديـات والنفـوس ودفاتـر الطابـو.

وبحسـب الدكتـورة هنـد أبـو الشـعر، فـإنَّ دراسـات لطلبـة الماجسـتير والدكتـوراه، ظهـرت لاحقًـا في كل مـن الجامعـة الأردنيـة وجامعـة اليرمـوك وجامعـة مؤتـة وجامعـة آل البيـت، لدراسـة تاريـخ الأردن، عـلى خطـى المدرسـة السـابقة، وصـارت تسـمية "القصبـات وجوارهـا" نموذجًـا للدراسـات اللاحقـة، مثـل "الفحيـص وجوارهـا"، "مادبـا وجوارهـا"، "المفـرق وجوارهـا"، أو دراسـة النّواحـي؛ "ناحيـة المعـراض" مثـلًا وجـرش. وقالـت أبوالشـعر: إنَّ المدرسـة التاريخيـة التـي تشـكّلت بجهـود البخيـت، تمكّنـت مـن ترسـيخ قواعـد جديـدة، وذلـك بفتـح الأرشـيف العثـماني والبحـث في المصـادر المحليـة، والاعتـماد عـلى دراسـة السـجلّات التـي تقـدّم مـادة أوليّـة ومبـاشرة ورسـميّة، ومنهـا دراسـة ملكيـة الأرض والضرائـب والأهـالي والحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، بدراسـة الحـارات والمرافـق والأسـواق وملكيـات الأراضي الزراعيـة والعقـارات والضرائـب والرسـوم والمـدارس والأوقـاف والعلاقـات الاجتماعيـة، مؤكـدة أنّهـا مدرسـة تجـاوزت التركيـز عـلى الدراسـات السياسـية التـي سـادت في الخمسـينات والسـتينيت. كل هـذا عـلى الرغـم مـن

أنَّ تلك الدراسات اتَّبعت منهجيّة واحدة ومصادر متقاربة، لكن سجلّات الطابو بقيت عصيّة على الدارسين نظرًا لصعوبة الحصول عليها، ولأنَّها باللغة العثمانية ويصعب التعامل معها، ولم يستخدمها غير هند أبوالشعر وجورج طريف والمرحوم نوفان الحمود السوارية.

وهنا يتوجَّب التفريق والتمييز بين الدراسات الأكاديميّة المنهجيّة وبين ما يُنشر من كتب تحت مسمّى "تاريخ الأردن"، فالمنهجية مطلوبة في كتابة التاريخ، وهي لا تتوافر إلا للأكاديميين المدرّبين، خصوصًا أنَّ الكثير من الكتب المنشورة باعتبارها تاريخ الأردن، تحاول الترويج لعائلات أو لشخصيّات. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الأكاديميون لإلقاء الضوء على الواقع الاجتماعي والسياسي والجغرافيا السكانية للمنطقة في العهد العثماني، إلا أنَّ تاريخ الأردن في العهد العثماني ما يزال في بداياته، ذلك أنَّ الأرشيف العثماني لم يُفتح تمامًا، وهو أساس القراءة المنهجيّة، جنبًا إلى جنب مع الوثائق الغربيّة، وعلى رأسها الوثائق البريطانية.

تُعتبر السجلّات الشرعيّة من المصادر المهمّة في التاريخ الحديث والمعاصر نظرًا لما تحويه من معلومات متعددة ما بين إدارية وعمرانية واقتصادية واجتماعية وتربوية. وقبل الحديث عن أهمية السجلّات الشرعيّة لا بد من الإشارة إلى الأمور التالية: أن جزءًا من هذه السجلّات فُقد ولم يصل إلينا؛ إمّا فُقد نهائيًّا أو فُقد عدد من صفحاته، كما إنَّ عدد عقود النكاح (الزواج) لا يتناسب وحجم بعض المدن؛ وربّما يأتي هذا من أنَّ عددًا من الناس لا يوثّقون عقود الزواج لدى المحاكم الشرعيّة ويكتفون بالإجراءات التي يتطلّبها الشّرع من حيث الطلب والقبول وشهادة الشهود وبيان الصداق (المهر).

إنَّ دراسة هذه السجلّات تؤشّر على تاريخ البلاد بالأوضاع كافّة. ففي الجانب الاجتماعي هنالك إمكانية لدراسة فئات المجتمع وطوائفهم (مسلمون ويهود ونصارى)، وأصولهم والأماكن التي جاءوا منها، والمحلات والحارات التي سكنوا فيها، والتقاليد والعادات التي كانوا يؤمنون بها. كما أنَّها تزوِّدنا بمعلومات عن العشائر والحمايل والزواج والطلاق والمهور والإرث والوصاية والأوقاف والرعاية الاجتماعية للفقراء والمساجد والمرضى وأبناء السبيل والصلة بين المتزوجين. كما أنَّ هذه السجلّات مصدر مهم لمن يريد البحث في التاريخ الاقتصادي لدى الأفراد من خلال مبلغ المهر. وتقدّم لنا معلومات وفيرة عن أشكال الأراضي وطبيعتها الزراعية، ونوع التربة، والأشجار المغروسة فيها، وأثمانها والعيون والبساتين. وفي المجال الصناعي تشير هذه السجلّات إلى الطوائف والحرف والصناعات التي تشتهر بها البلد وذكر أثمانها. وفي المجال التجاري تشير السجلّات إلى الأوزان والمكاييل وإلى أنواع العملة المستعملة وأسعارها، والتجار الوافدون، والمواد المستوردة والمصدَّرة، كما تشير أيضًا إلى أنواع الحيوانات وأجرتها وأثمانها والقاعدة المتَّبعة في بيعها. وفي المجال العمراني تتحدَّث السجلّات عن الحارات والمحلات والإيجار والاستئجار وعدد الدكاكين وعن قنوات الصرف الصحي وشبكات المياه، والطراز المعماري وعدد الأوض -الغرف- والساحات والحمامات والمساجد والأديرة والكنائس والمدارس وغيرها. وفي المجال الإداري تزوّدنا السجلّات بأسماء الحكام الإداريين والقضاة ومدراء المال والكُتّاب ومجالس الإدارة، وأسماء المعلمين والمعلمات، ومدراء الأراضي

والمساحة، والمخاتير والوجهاء. وفيما يتعلق بسجلّات تحرير النفوس فقد كان قيد النفوس في الدولة العثمانية يُسجَّل في الدفاتر وفق أرقام متسلسلة للعائلات بشكل عام، ومعها أرقام متسلسلة بأسماء الذكور وأسماء الإناث بالإضافة إلى خانات كثيرة موزَّعة على صفحة السجلّ تتضمَّن اسم رب العائلة واسم والده وجدّه وعائلته، وتاريخ الميلاد لكل واحد، وهل هو حيّ أو ميت، واسم الزوجة واسم الوالدة وتاريخ الميلاد، والأوصاف الجسمانية، وكيفية التسجيل إلى غير ذلك. وكانت الدولة العثمانية قد قامت بتدوين سجلّات النفوس لكل ولايات الشام منذ عام 1905م، ممّا أدّى إلى قيام ثورات في السلط وعجلون والكرك ومعان والطفيلة ممتدّة إلى العربان والتي كان أعنفها في منطقة الكرك. ويبدو أنَّ سكان هذه المناطق قد أتلفوا هذه السجلّات أيام ثوراتهم لأنَّ ثمة ما يشير إلى حصول التسجيل في المناطق التي قامت بها حركات احتجاج؛ فنرى أنَّ أهل الكرك رضوا بالتسجيل شريطة إعفائهم من رسوم التسجيل. وعلى أيّ حال فإنَّ سجلّ الشوبك يُعتبر سجلّ النفوس الوحيد الذي وصل إلينا في الأردن، ويتبعه السجلّات التي أطلق عليها اسم السجلّات الفيصلية في السلط، والتي تم إجراؤها أيام المملكة العربية بزعامة فيصل بن الحسين، ملك العراق فيما بعد. تقع السجلّات الفيصلية في ستة دفاتر، وفيها مسح شامل للعشائر المقيمة في السلط.

تنبع أهميّة هذه السجلّات من فحوى المعلومات المهمة التي تكتنزها من حيث الأنساب والجماعات السكانية ومهنهم وأوضاعهم. ومع أنَّ هذه السجلّات لا تُظهر الأرقام الدقيقة لعدد السكان، إلا أنها كانت مؤشرًا اجتماعيًا، بل واقتصاديًا يدلّ على معرفة السكان وأنسابهم، بالإضافة إلى دلالتها بشكل واضح على وضع الزيادة السكانيّة أو نقصانها، ففي حالة الزيادة لا بدّ من معرفة أسبابها هل هي زيادة طبيعية، أم أنها جاءت عبر الهجرات. أمّا في حالة النقصان فربّما يعود ذلك إلى الهجرات منها أو بسبب الأمراض والأوبئة والكوارث، وهو الأمر الذي يصعب التحقُّق منه إلا في حال وجود الوثائق المتعلقة بذلك. وجاءت أهميّة دفاتر الطابو لما تتضمّنه من معلومات قيّمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية. ففي الجانب الاجتماعي تقدِّم معلومات دقيقة لعدد السكان في القرى والنواحي، وعدد المسلمين والنصارى، وعدد العزّاب والأئمة والمؤذنين، وفئاتهم: فلاحين وبدو، والمعلومات الواردة فيه عن القبائل البدوية في شرقي الأردن على درجة من الأهمية، فهي تمثِّل الإطار العام للوجود القبلي في المنطقة، من خلال تعداد الجماعات التي تنتسب لكل قبيلة، وعدد الخانات، والمواشي، والرسوم المفروضة عليهم. وفي الجانب الاقتصادي تساهم الدفاتر في رسم ملامح الحياة الاقتصادية للمناطق منذ مطلع القرن السابع عشر، وتتيح لنا معرفة ملكية الأرض وأنواع الضرائب والرسوم المفروضة على السكان ومقدارها، وأنواع المحاصيل الزراعية من الأشجار والحبوب والثروة الحيوانية، وتقدِّم لنا معلومات، وإن كانت شحيحة، عن الأسواق التجارية.

وفي الجانب العمراني تتيح دفاتر الطابو معرفة بعض المرافق العامة التي أقيمت في المنطقة، من خلال ما أوردته عن الجوامع وما أوقف عليها ليصرف في وجوه العمارة وفي دفع أثمان القناديل والحصر، وما

أوردتـه عـن الزوايـا والمقامـات والأضرحـة والإشـارات العديـدة للطواحـين التـي تُـدار بالمـاء وتتركّـز في الأوديـة. وتنفـرد دفاتـر الطابـو مـن بـين المصـادر جميعهـا في المعلومـات القيّمـة التـي قدَّمتهـا عـن المعـاصر التـي كانـت تسـتخدم لعـصر الزيتـون، وربّمـا لعـصر قصـب السـكَّر الـذي اشـتهرت بـه منطقـة الغـور. ومـن بـاب أهميّـة المـادة التـي توفرهـا دفاتـر الطابـو نشـير إلى مـا لـه علاقـة بالتقسـيمات الإداريـة، وأسـماء البلـدان والقـرى وأسـماء السـكان بمـا في ذلـك أبنـاء العشـائر والجماعـات. كـما يـدوَّن بهـا أسـماء المـزارع وقطـع الأراضي، هـذا بالإضافـة إلى بيـان أسـماء أصحـاب الإقطاعـات. وترفدنـا هـذه الدفاتـر بأسـماء المحاصيـل الشـتوية والصيفيـة وأنـواع الأشـجار المثمـرة ومـن أهمهـا الزيتـون الرومـاني والإسـلامي، وتـأتي عـلى تعـداد المـواشي مـن الماعـز والأغنـام، ومقـدار الرسـوم التـي كانـت تجبيهـا الدولـة ومَـن يمثِّلهـا.

أمّـا سـجلّات البلديـات، فتُعـد سـجلّات مقّـررات المجالـس البلديـة مـن أهـم المصـادر المباشرة لدراسـة قصبـات المـدن في الأردن في أواخـر العهـد العثـماني ومطلـع عهـد إمـارة شرق الأردن، وتلقـي هـذه السـجلّات الضـوء عـلى العمـران وعـلى تركيبـة السـكان وفعاليّاتهـم، وتبـيِّن العلاقـة بـين الإدارة -الحكـم المحـلي- والأهـالي؛ فهـي مـن المصـادر المبـاشرة التـي تناولـت تاريخنـا المحـلّي في العقديـن الماضيـين، وقـد غـيَّرت مـن الرُّؤيـة التقليديـة لكتابـة تاريـخ الأردن، فبعـد أن كانـت الوثائـق الغربيّـة وعـلى رأسـها البريطانيـة، هـي مصـدر رؤيتنـا لأنفسـنا، وجدنـا أمامنـا الكـمّ الهائـل والمُعتـبر مـن الوثائـق المحليـة التـي لم يكـن لهـا الحضـور الـذي تلاقيـه المصـادر المحليّـة لـدى الشـعوب الأخـرى. ومـن خـلال هـذه السـجلّات يمكـن تقديـم الحيـاة اليوميّـة والإداريّـة والتطـوُّر الـذي عايشـته مؤسسـات الحكـم المحـلي الأردنيـة، ضمـن الحيـاة السياسـية، وهـو مـا يعطـي الباحـث مـدى مـن الرؤيـة المحليـة لمتابعـة الفعاليـات المحليـة عـن قـرب.

إنَّ دراسـات هـذه السـجلّات تؤسِّـس لحالـة أكاديميـة مسـتقبلية، فالبحـث عـن المصـادر وتقديمهـا للباحثـين مدروسـة ومحقَّقـة -كـما تقـول الدكتـورة هنـد أبوالشـعر- يسـاعد بالتأكيـد عـلى تشـكيل رؤيـة شـمولية ومبـاشرة ودقيقـة نحتاجهـا في حياتنـا الأكاديميـة، خدمـة للمنهجيـة وللوطـن ولمتابعـة المؤسسـية في تجربتنـا في هـذا الوطـن الغـالي.

وتنبـع أهميّـة هـذه السـجلّات كونهـا توفـر فرصـة ثمينـة لقـراءة آمنـة ومتوازيـة ومتنوعـة لدراسـة المـكان والإنسـان عـلى حـد سـواء، نظـرًا لثرائهـا بالمعلومـات المبـاشرة والتـي احتفظـت بخصوصيـة للأوضـاع الاقتصاديـة والاجتماعيـة ومعرفـة أحـوال السـكان وأعدادهـم، ومسـاهمتها بتوفـير دائـرة معلومـات متكاملـة لأنـواع الملكيـات والأراضي ومصـادر الميـاه والمرافـق العامـة مـن دور عبـادة (مسـاجد وأديـرة وكنائـس) ومـدارس وأسـواق ودكاكـين ومخابـز وطوابـين ومعـاصر ومطاحـن ومصانـع ومقابـر.

فسـجلّات البلديـات وقراراتهـا تحفـظ لنـا التاريـخ المحلّي بخصوصيتـه وتنوعـه وتميـزه، وهـي بذلـك تـؤرِّخ لحيـاة النـاس اليوميّـة وللمرافـق والمحـلات والبيـوت، وتقـدِّم لنـا بالتـالي علاقـة النـاس بالسـلطة، وأسـلوب إدارتهـم للمـكان والإمكانـات، وتعاملهـم مـع الانتخابـات، وظهـور النُّخـب الإداريـة، وتحوُّلهـا إلى نخـب سياسـية.

إنَّ أقـدم تجربـة في تأسـيس المجالـس البلديـة لدينـا هـي قصبـة إربـد، وهـي مـع الأسـف أتلفـت. وتُعـدُّ سـجلّات بلديـات السـلط والكـرك وعـمّان ومعـان

ومادبا والزرقاء من أغنى المصادر، وقد تمَّ تناول بعضها من قبل الدكتور هاني العمد والدكتور محمد خريسات والدكتوره هند أبوالشعر والدكتور عبدالله العساف.

هذا ولا تقل سجلّات الكنائس في الأهميّة في رفد مصادر تاريخ الأردن، فهي إحدى دفاتر الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية. إنَّ هذه الوثائق هي، في حقيقة الأمر، أحكام أو أوامر كانت تصدر في العادة ردًّا على طلب يتقدَّم به بعض المواطنين المسيحيين، أو اليهود في قرية أو مدينة ما من بلاد الشام أو العراق، أو يتقدَّم بهذا الطلب رئيسهم الروحي المباشر، أو غير المباشر. وهي ذات أهمية قصوى، بوصفها مصدرًا أوليًا لدراسة أوضاع العرب المسيحيين في الولايات العربية من الدولة العثمانية، وسياسة الدولة تجاههم. تشتمل هذه السجلّات على التراخيص الممنوحة للطوائف المسيحية في كافة أرجاء الدولة للقيام بأعمال بناء كنائس جديدة، أو إعادة تعمير، أو ترميم الكنائس القائمة، أو القيام ببعض التعديلات، أو الإضافات كبناء برج للناقوس، أو غرفة للقس. كذلك تشتمل هذه السجلّات على التراخيص الممنوحة للطوائف، أو الأفراد المسيحيين لإنشاء مدارس، أو مستشفيات، أو مياتم، أو دور للعجزة، أو مقابر، أو أيّ مؤسسات خيريّة أخرى. وتشتمل أيضًا على التراخيص الممنوحة للهيئات التبشيرية الأجنبية المختلفة، من كاثوليكية وبروتستانتية، للقيام ببناء الكنائس والمدارس والأديرة والمستشفيات، أو أيّ مؤسسات خيريّة أخرى.

كذلك، تُعتبر قرارات غرف التجارة من المصادر المهمة عند دراسة تاريخنا الاقتصادي، فهي تؤشِّر لمدى التطوُّر الاقتصادي الذي وصلت إليه المدينة في منطقة الأردن أبان الحكم العثماني، وذلك من خلال إيراد أسماء التجار، وأصحاب رؤوس الأموال، والأشخاص المتنفذين في المدينة، ومقدار ثروتهم، فضلًا عن انتماءاتهم، والكفالات التجارية، التي تشكل القسم الأكبر من القرارات. إضافة لما سبق تحتوي قرارات الغرف التجارية معلومات تفصيلية وفريدة عن التجار، والمشاكل التي واجهوها، إضافة للأوزان والمكاييل التي استُخدمت في المدينة، خاصة في الفترة التي سبقت التحوُّل إلى اعتماد النظام المتري، وبيان موقف التجّار من هذا التحوُّل. كما تضمَّنت القرارات معلومات تفصيليّة عن المنتجات الزراعية مثل: الحبوب والخضار والثروة الحيوانية، وبيان الكميات المصدَّرة منها للخارج، والمستهلكة داخل المدينة، وأسعار تلك المنتجات في أوقات مختلفة. وضمن قرارات سجلّ غرف التجارة يلاحظ أنواع العملات المتداولة وأسعارها في المدينة.

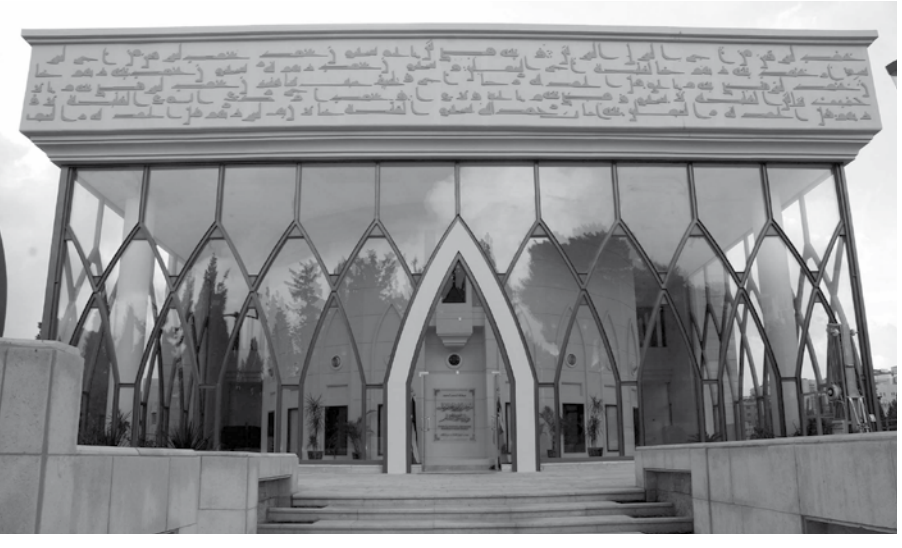

مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية

محمد عدنان البخيت مؤرِّخًا

د. عليان الجالودي*

أسَّس البخيت للمدرسة التاريخية الأردنيّة في الدراسات العثمانيّة التي انصبَّت أساسًا على ترجمة وتحقيق ودراسة ما جمع من وثائق، وتيسيره للباحثين، وكانت هذه المصادر حتى الثمانينات من القرن المنصرم مجهولة أمام كثير من الباحثين، وبالتالي أسهمت في حصيلتها في تصحيح التصوُّر الخاطئ الذي تداوله بعض مَن أرَّخوا للأردن سابقًا، مستندين بشكل أساسي على الوثائق البريطانية التي تؤرخ للأردن بعد قيام الإمارة عام 1921م، وهذا الفهم القاصر مفاده أنَّ شرقي الأردن كانت مهملة، وكان اهتمام الدولة العثمانية بها ينحصر في فترة محدودة، وهي فترة مرور قافلة الحج الشامي.

وُلد محمد عدنان البخيت في مدينة ماحص من محافظة البلقاء، بتاريخ 15/1/1941م، وأكمل تحصيله العلمي لمرحلتي البكالوريوس والماجستير في الجامعة الأميركية في بيروت، ثم تابع دراسته لمرحلة الدكتوراه في التاريخ الحديث في مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن في العام 1972م. عمل البخيت في قسم التاريخ في الجامعة الأردنيّة منذ عام 1972م، وتسنَّمَ خلال عمله عددًا من المواقع الأكاديميّة والقياديّة منها: عميد البحث العلمي، ثم نائبًا لرئيس الجامعة الأردنيّة في الأعوام (1991-1989م)، ثم رئيسًا لجامعة لمؤتة (1991-1993م)، ومؤسسًا ورئيسًا لجامعة آل البيت (1993-2000م)، كما ترأس مجلس أمناء جامعة آل البيت، ومجلس أمناء المركز الوطني لحقوق الإنسان، ونال عضوية العديد من المجالس والمؤسسات الأكاديمية، وترأس هيئة تحرير عدد من المجلات العلمية، وكُرم من قبل العديد من المؤسسات الأكاديمية والمحافل العلمية، من أبرزها حصوله على جائزة الملك فيصل العالميّة، ونال العديد من الأوسمة وشهادات التقدير، من أبرزها: وسام الاستقلال من الدرجة الأولى، ووسام الحسين للتميُّز والعطاء من الدرجة الأولى عام 2008م، وجائزة الدولة التقديرية في العام 1992م، وآخرها تكريمه بوسام مئويّة الدولة الأردنيّة من قبل جلالة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين في 25/5/2021، بمناسبة عيد الاستقلال الخامس والسبعين، ضمن الرَّعيل الأوَّل من البناة الذين أسهموا في بناء الأردن عبر مائة عام.

أَنجز البخيت كمًّا كبيرًا من البحوث العلمية والكتب وأعمال التحقيق والتحرير المتصلة بالتاريخ العثماني، وتاريخ العرب الحديث، وتاريخ بلاد الشام والأردن وفلسطين والقدس، باللغتين العربيّة والإنكليزية، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه المتصلة بتاريخ العرب الحديث[1].

* **أستاذ التاريخ الإسلامي- قسم التاريخ/ جامعة آل البيت**

jaloudi1961@yahoo.com

والكتابة عن قامة علميّة وشخصيّة وطنيّة كبيرة بحجم شيخنا ومعلمنا البخيت، أمدَّ الله في عمره، والإحاطة بمنجزه العلمي والفكري، وبصماته الإداريّة الواضحة، أمرٌ صعب المنال، خصوصًا إذا كان محكومًا بإعداد مقالة محدودة الصفحات والمطلوب اختزال هذا العطاء الثّر بحيِّز من الكلمات من الصَّعب أن تفي أستاذنا حقّه.

إنَّ مجرَّد إلقاء نظرة فاحصة على منتج البخيت الفكري تضع الباحث في حيرة أي من الألقاب الجامعة التي نسم فيها تلك القامة العلمية، فهناك الكثير من الألقاب منها: شيخ المؤرخين الشاميين، شيخ المدرسة التاريخية الأردنيّة ورائدها ومَن أرسى قواعدها، شيخ مؤرّخي القدس وفلسطين الأمين على وثائقها. وبالمحصّلة فإنه يستحقها جميعًا، ولكلّ منها ما يبرِّره، فما أنجزه حول التاريخ العثماني، وحول تاريخ البلدان الشامية من دراسات وبحوث وأعمال تحقيق وتحرير، بالاستناد على الوثائق والسجلّات من جهة، وجمعه لتلك الوثائق وحفظها في مركز علمي وبحثي متميز، وهو "مركز الوثائق والمخطوطات" في الجامعة الأردنيّة، والذي له اليد الطولى في تأسيسه ورعايته ورفده بالوثائق والسجلّات والكتب منذ عام 1972م وحتى الآن، بحيث يُباهي أعرق دور الكتب والوثائق ليس فقط في البلاد العربيّة، بل والعالم أجمع.

ناهيك عن جهوده في إرساء حجر الزاوية للدراسات العلمية والمنهجية حول تاريخ بلاد الشام من خلال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الذي ترعاه الجامعات: الأردنيّة واليرموك وجامعة دمشق، وللبخيت اليد الطولى في العمل على بلورته منذ العام 1972م، واستمرارية انعقاده بشكل منتظم، فيكفي أن نشير إلى أنه عُقِدَ حتى الآن ثلاثة عشر مؤتمرًا وثقت تاريخ بلاد الشام منذ العصر البيزنطي وحتى النصف الأوّل من القرن العشرين، شارك فيها المئات من الباحثين العرب والأجانب ببحوث علمية رصينة، ونشرت حصيلة أعمال تلك المؤتمرات في منشورات أثْرت المكتبة الشامية بالجديد والمفيد، عكف البخيت على تحريرها وإتاحتها بين أيدي الباحثين والمهتمّين.

ويستحق البخيت بجدارة لقب مؤرخ القدس وفلسطين الحارس الأمين على تراثها، سواءً من خلال جهوده في جمع السجلّات والوثائق المملوكية والعثمانية، وسجلّات المحاكم الشرعية للمدن الفلسطينية: القدس، وحيفا، ويافا، واللد، وعكا، ونابلس، والخليل، وغزة، والرملة، وطبريا، وغيرها، ناهيك عن جهوده في تصوير مخطوطات المكتبات الفلسطينية في القدس ويافا وعكا[2].

ولولا تصدّي البخيت لهذا المشروع الوطني الضخم لضاعت تلك الأصول، ولسطت أيدي الصهاينة عليها، ولطُمست في إطار المشروع الصهيوني الساعي إلى طمس تراث فلسطين، الشاهد على عروبتها، وجذورها العربيّة الإسلامية الضاربة في عمق التاريخ.

ولم يكتفِ البخيت بجمع تلك الوثائق، بل شمَّر عن ساعد الجد في إثرائها بالدراسات العلمية الرصينة، وقدَّم خدمة جليلة للتاريخ العربي الإسلامي من خلال دراساته حول تاريخ المدن الفلسطينية وفي مقدمتها القدس، والحفر بعمق في تاريخها الإداري والاقتصادي والاجتماعي، وتحليل مكنوناتها، وتوثيق حياة الناس والأرض والشجر والعمران، واضعًا بذلك حجر الأساس لدراسات علميّة رائدة انطلق منها وبنى عليها جيل من تلامذة المدرسة "البخيتيّة"، ومضوا على خطاه في إنتاج العديد من الدراسات المنهجية الرصينة في رسائلهم وبحوثهم الأكاديمية، لتبقى شاهدًا لا يدمغ

على عروبة فلسطين وعظم المنجز الحضاري العربي الإسلامي على ثراها، في مواجهة سيل من الدراسات المزوَّرة التي أنتجتها المدرسة الصهيونية، ومحاولاتها العبثيّة لإثبات حقها المزعوم في فلسطين، وسعي الآلة الإعلامية الصهيونية مدعومة بتلك الدراسات المشوّهة لإقناع الغرب وصانعي القرار بأنَّ هذه الأرض كانت قفرًا، خالية من السكان والحضارة، وأنَّ اليهود هم مَن صنعوا تاريخها، وهم مَن أحياها وعمَّرها. فجاءت دراسات البخيت وطلبته شاهدًا لا يدمغ على غنى التاريخ الفلسطيني، ومنجز الإنسان العربي الفلسطيني الحضاري.

ويستحقّ البخيت بجدارة لقب رائد المدرسة التاريخيّة الأردنيّة، وريادته هنا تتجسد بعدّة مظاهر، نجملها فيما يلي:

أوَّلًا: جَمْع الوثائق والمظان التاريخية ذات الصلة بتاريخ الأردن، سواءً الوثائق العثمانية، وسجلّات الطابو، ودفاتر المالية، والمهمة، والسالنامات، وسجلّات المحاكم الشرعية التي تعود للمدن والقصبات الأردنيّة، وكتب الرحّالة الأوروبيين الذين زاروا الأردن أو مرّوا به خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والصحف، والمذكرات، والأوراق الشخصيّة، إضافة للكتب والدراسات، وتوفيرها ورقيًّا أو على شكل (ميكروفيلم) أو أشرطة ممغنطة، وإتاحتها للباحثين والطلبة من روّاد مركز الوثائق والمخطوطات[3].

ثانيًا: الرِّيادة في إعداد البحوث والدراسات المبنيّة على سجلّات الطابو العثمانية التي أعدَّها البخيت منفردًا، أو بالاشتراك مع باحثين آخرين في طليعتهم المرحوم الأستاذ الدكتور نوفان السوارية. وتعدُّ تلك الدراسات نماذج رائدة سواء من خلال المنهجية الصارمة في ترجمة تلك النصوص عن اللغة التركية، والمنهجية الرصينة في تحقيق النصوص والدراسات الضافية لمحتواها، وشكَّلت بالمحصلة النهائية نماذج احتذاها عدد من الطلاب الذين عكفوا على دراسة هذه السجلّات، وتوظيفها في بحوثهم ودراساتهم[4].

ثالثًا: الجهود البارزة في نشر وثائق الديوان الملكي الهاشمي التي تعود إلى عهد المغفور له الملك عبدالله الأوَّل ابن الحسين (1951-1921م)، والتي تمّ نشرها تحت إشراف البخيت باسم "الوثائق الهاشميّة"، وصدرت أعمال هذه السلسلة على مرحلتين:

المرحلة الأولى: ما بين عامي (2001-1993م)، صدرت عن جامعة آل البيت.

المرحلة الثانية: منذ عام (2014م) وحتى الآن، وتولّى مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات تاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنيّة إصدارها، وبلغ ما صدر منها حتى اليوم ثلاثين مجلدًا، وزوِّدت هذه الوثائق بفهارس تحليلية شاملة لتيسير الإفادة منها، وحوت وثائق تاريخية قيّمة عن تاريخ الأردن في الحقول السياسية والاقتصادية، وعلاقات الأردن العربيّة والدوليّة، ووحدة الضفتين[5]، وقدَّم البخيت بتصدّيه لنشر هذه الوثائق خدمةً جليلةً للتاريخ الأردني، وغدت هذه المجموعات الوثائقيّة مصدرًا للكثير من الدراسات ذات الصلة بتاريخ الأردن، وحصر الدراسات التي أفادت منها أو بُنيت عليها هي من الكَمّ، بحيث يصعب حصرها في هذه العجالة[6].

رابعًا: وللبخيت منجزٌ آخر من المهم الإشارة إليه، ألا وهو دوره في تعزيز البحث العلمي وبتأسيس والنهوض بالمجلات العلمية المحكمة، والمجلات الثقافية في المؤسسات الأكاديمية التي تسنَّم إدارتها، فعندما شغل منصب عميد البحث العلمي في الجامعة الأردنيّة خلال السنوات (1989-1984م)،

دفع بالنشر العلمي دفعة مهمة، إذ فتح باب النشر على مصراعيه، فنشرت العديد من الدراسات المتخصصة والمؤلفات ووقائع الندوات والمؤتمرات، والكتب التذكارية، كما خطت مجلة "دراسات" المجلة العلمية المحكمة التي تصدرها عمادة البحث العلمي، خطوات متقدمة، وأصبحت تصدر في عدة سلاسل تغطي شتى جوانب المعرفة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والعلوم التطبيقية، والعلوم البحثية[7].

وخلال فترة عضويّته في جمعية الشؤون الدولية، كان وراء تأسيس مجلة "الندوة" وحرَّرها لسنوات، ونشر وشجَّع على النشر فيها العديد من المقالات في ميادين السياسة المحلية، والعلاقات الدولية.

وأثناء فترة رئاسته لجامعة مؤتة (1993-1991م)، أعطى البحث العلمي زخمًا يذكره له الفريق الذي عمل بمعيّته، سواء من خلال عقد المؤتمرات المتخصصة، أو من خلال إصدار الصحف والمجلات، ومنها صحيفة "مؤاب" الطلابية، ومجلة "راية مؤتة" الثقافية، كما خطت مجلة "مؤتة للبحوث والدراسات" المحكمة خطوات متقدمة، سواء من حيث التنوُّع في أبواب المجلة، أو التوسُّع في إصدارها، ناهيك عن نشر قائمة من المؤلفات والبحوث المتخصصة من إنتاج أعضاء هيئة التدريس في الجامعة[8].

وخلال تأسيسه ورئاسته لجامعة آل البيت (1993-2001م)، أولى المناشط الفكرية والطلابية جُلّ اهتمامه، فكانت الجامعة شعلة نشاط، وشهدت زخمًا في عدد المؤتمرات والندوات وورش العمل، والمحاضرات العامة، ونشرت العديد من المؤلفات الأكاديمية المتخصصة، وأعمال الندوات والمؤتمرات، كما ساهم في إنشاء ورعاية عدد من المجلات في مقدمتها مجلة "المنارة" كمجلة علمية محكمة، ومجلة "البيان" الثقافية، ومجلة "الزهراء" الإخبارية، وصحيفة "الشورى" الطلابية[9]، ولعلَّ ذروة إنجازات البخيت في المجال الأكاديمي والبحثي، تأسيس ورئاسة تحرير "المجلة الأردنيّة للتاريخ والآثار" في العام 2006م التابعة لوزارة التعليم العالي، والموطنة في الجامعة الأردنيّة لتكون بذلك أولى المجلات المتخصصة في حقل التاريخ والآثار على مستوى الأردن، ومن بين بواكير المجلات العلمية المتخصصة على المستوى العربي، صدر العدد الأول منها بتاريخ 31 آذار 2007م، ولا زالت تصدر بانتظام بواقع أربعة أعداد سنويًّا، وكان لجهود البخيت وهيئة تحرير المجلة الفضل الأكبر في السمعة العلمية الطيبة التي تحظى بها المجلة الآن في الأوساط الأكاديمية، والتي توِّجت في هذا العام 2021 بالحصول على معايير اعتماد معامل أرسيف (Arsif) المتوافقة مع المعايير العالمية ضمن تخصص التاريخ والجغرافيا، وصُنِّفت ضمن الفئة الأولى (الأولى Q1).

خامسًا: توجَّهت الجهود السابقة للأستاذ البخيت نحو طلبة الدراسات العليا لمرحلتي الماجستير والدكتوراه، وتوجيههم في إعداد دراسات أكاديمية على درجة عالية من الرصانة والمنهجية العلمية حول تاريخ الأردن خلال عصر التنظيمات العثمانية وحتى تأسيس الإمارة (1921-1864م)، وتَرجَمَتْ تلك الدراسات مشروع البخيت في التأسيس للمدرسة التاريخية الأردنيّة في الدراسات العثمانية التي انصبَّت أساسًا على دراسة ما أمكن جمعه وتيسيره للباحثين من مصادر متنوِّعة، وكانت هذه المصادر

حتى الثمانينات من القرن المنصرم مجهولة أمام كثير من الباحثين، وبالتالي أسهمت في حصيلتها في تصحيح التصوُّر الخاطئ الذي تداوله بعض مَن أرَّخوا للأردن سابقًا، مستندين بشكل أساسي على الوثائق البريطانية التي تؤرخ للأردن بعد قيام الإمارة عام 1921م، وهذا الفهم القاصر مفاده أن شرقي الأردن كانت مهملة، وكان اهتمام الدولة العثمانية بها ينحصر في فترة محدودة، وهي فترة مرور قافلة الحج الشامي، ثم تعود بعد ذلك إلى حالة من الحكم الذاتي.

لقد أثبتت تلك الدراسات بما استطاعت جمعه وحصره من مصادر ووثائق متنوعة خطأ تلك المقولة، والمتتبِّع لتلك الدراسات والرسائل الجامعية التي أشرف عليها البخيت يجدها على مرحلتين:

المرحلة الأولى: رسائل ماجستير أُعِدَّت في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي، تناولت التشكيلات الإدارية على مستوى الأقضية، والألوية، والجماعات الاستيطانية خلال الفترة ما بين تطبيق قانون الولايات العثماني في عام 1864م وحتى نهاية الحرب الكونية الأولى، وتعمَّقت في دراسة الجغرافيا التاريخية، والتنظيم الإداري، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وكان لتلك الدراسات فضل السبق والريادة في التأسيس لدراسة تاريخ الأردن خلال حقبة التنظيمات العثمانية[10].

المرحلة الثانية: رسائل دكتوراه وجَّه البخيت فيها طلابه لدراسة تشكيلات إدارية أصغر تناولت نواحي بني جهمة، وعمان، والسلط، وتعمَّقت هذه الدراسات في دراسة وتحليل محتوى المصادر المعنيّة بتاريخ تلك القصبات[11].

لقد كان الصيد وفيرًا، فغدا طلبة البخيت الروّاد الذين تتلمذوا على يديه، وتشرَّبوا منهجيّته، وتعمّقوا في دراسات المصادر وتحليل مكنوناتها، امتدادًا لمدرسة البخيت، سواء بتحقيقاتهم ونشر بحوثهم ودراساتهم في حقل تاريخ الأردن المعاصر، أو من خلال إشرافهم على طلبتهم لمراحل الماجستير والدكتوراه[12].

كذلك، اتَّسعت دائرة الاهتمام لتشمل عددًا من الأساتذة، ممَّن هم من زملاء البخيت في قسم التاريخ في الجامعة الأردنيّة، ليحذوا حذوه في الكتابة حول الحقبة العثمانية، وحقبة التاريخ المعاصر، كما تصدّى بعضهم للإشراف على طلبة كتبوا عن تشكيلات إدارية أصغر على مستوى الأقضية والنواحي، واتَّسعت دائرة الاهتمام لتشمل أساتذة آخرين في أقسام التاريخ في جامعة اليرموك وجامعة مؤتة، بحيث يمكننا القول بكل ثقة إنَّنا أمام مدرسة تاريخيّة أردنيّة مكتملة الأركان، وواضحة الملامح في دراسة تاريخ الأردن الحديث والمعاصر.

ويُسجَّل للبخيت بكل أمانة وموضوعيّة فضل السَّبق والرِّيادة في إرساء قواعد تلك المدرسة، وتحديد سماتها المنهجية، ورسم الإطار العام لخطة البحث وتحديد المصادر.

ولا ننسى في هذا السياق رعاية البخيت لطلابه بعد التخرُّج، واستثمار علاقاته بنشر رسائلهم وبحوثهم، بدعم من عدد من المؤسسات الثقافية والبنوك الوطنية، كما له اليد الطولى في الأخذ بأيدهم للالتحاق بالعمل الأكاديمي في الجامعات، وكان لنشر تلك الدراسات فرصة أتاحت المجال أمام الباحثين والمهتمين للاطلاع عليها، بدلًا من أن تبقى مخطوطة وقابعة في زوايا المكتبات، كما أسهمَ التحاق طلابه بالعمل في أقسام التاريخ في الجامعات ومراكز البحوث بالنُّهوض بعبء البحث والتدريس والإشراف

عـلى الرسـائل الأكاديميـة، مـمّا أتـاح لخريجـي تلـك المدرسـة اسـتمرارية العطـاء، والسـخاء في العطـاء.

ويـدرك تلاميـذ البخيـت -وأنـا أحدهـم- أنَّـه في تعاملـه مـع طلابـه يجمـع إلى جانـب الصَّرامـة قلبًـا حانيًـا، فتبدو صرامتـه مـن خـلال المتابعـة الحثيثـة لمسـيرتهم وقراءتـه المتأنيـة لحصـاد جهدهـم في جمـع المـادة الأوليـة مـن المصـادر التاريخيـة وفي إعـداد الفصـول؛ الأمـر الـذي كان لـه أثـر بـارز في صقلهـم منهجيًّـا، لكـنّ البخيـت وبالرّغـم مـن الصرامـة التـي تبـدو عـلى محيّـاه، إلا أنـه يخفـي تحتهـا قلبًـا حانيًـا، وأبًـا كبـيرًا يحنـو عـلى طلابـه، ويذلّـل الصعوبـات التـي تعـترض مسـيرتهم، وتسـبق اتصالاتـه مـع الدوائـر والمؤسسـات والجهـات التـي يوجِّههـم إليها، بحيـث يجـدون توصيـة منـه تسـبقهم، ممّا يسـهم مـن ثـم -إكرامًـا لأسـتاذهم- بفتـح كل الأبـواب المغلقـة، وتكـون المحصّلـة صيـدًا وافـرًا مـن الوثائـق والسـجلّات، مـا كان ليتـاح لهـم الاطـلاع عليهـا دون عـون البخيـت لهـم.

والأمـر الآخـر الـذي لا يمكـن إغفالـه هـو شـخصية البخيـت الإداريّ، فهـو بحـق مـن بـين قلائـل ممَّـن تسـنَّموا سـدّة الإدارة في مؤسسـاتنا الأكاديميـة ويجمعـون بـين المقـدرة العلميـة والكفـاءة الإداريـة، فالبخيـت يملك شـخصية إداريـة فـذة قـادرة عـلى اسـتشراف المسـتقبل، واسـتنهاض همـم العاملـين بمعيّتـه مـن أكاديميـين وإداريـين، ناهيـك عـن قدرتـه في السـيطرة عـلى تفاصيـل الأمـور ودقائقهـا، ورؤيتـه الاسـتشرافية التـي كان يغـذّي بهـا المجالـس الأكاديميـة والإداريـة في النهـوض بتلـك المؤسسـات، إلى جانـب مـا يتحـلى بـه مـن فراسـة في حسـن اختيـار الفريـق الـذي يعمـل إلى جانبـه مـن كفـاءات أكاديميـة وإداريـة، وبالمحصلـة نجـح البخيـت أيّمـا نجـاح في إدارتـه، وغـدت تلـك المؤسسـات خـلال العهـود التـي تـولّى فيهـا إدارتهـا شـعلة في النشـاط، وترك رصيـدًا مـن الإنجـاز يُحمـد لـه[13]).

ولا أنـسى في هـذا السـياق اهتماماتـه الإنسـانية بالعاملين بمعيَّتـه وتواصلـه الإنسـاني معهـم، ومشـاركتهم أفراحهـم وأتراحهـم مـمّا تـرك أثـرًا طيبًـا، وذكـرًا جميـلًا يحفـظ لـه، ويعـترف بفضلـه كل مَـن عمـل بمعيَّتـه.

السّمات المنهجيّة في بحوث البخيت ومؤلّفاته

يحمـدُ لمؤسسـة عبدالحميـد شـومان العنـوان الجامـع الـذي اختارتـه للنـدوة التـي نُظِّمـت عـلى مـدار يومـين في العـام 2008م، ونـشرت حصيلـة أوراق المشـاركين في النـدوة في العـام 2010م، تحـت عنـوان: "محمـد عدنـان البخيـت مؤرخًـا وموثقًـا وأسـتاذًا ومؤسسًـا"، جمعـت بـين دفتيهـا أوراقًـا علميّـةً تناولـت بحوثـه ومؤلفاتـه ومنجـزه القيـادي والإداري، أُعـدَّت مـن قِبَـل أسـاتذة عرفـوا البخيـت عـن كثـب؛ مـن زمـلاء وإداريـين وطلبـة عملـوا بمعيّتـه أو أشرف عـلى رسـائلهم العلميّـة.

ومَـن يمعـن النظـر في مجمـل إنتـاج البخيـت البحثـي، سـواء كانـت جهـودًا بحثيـة منفـردة، أو جهـودًا بالاشـتراك مـع آخريـن، يلاحـظ أنَّ ذلـك الإنتـاج ينضـوي تحـت عـدة اتِّجاهـات[14]:

الاتِّجـاه الأول: دراسـات تناولـت التاريـخ العثـماني عامة، أو دراسـة بعـض الأعـلام في التاريـخ الحديـث، مـن بينهـا دراسـة عـن الأمـير حسـين بـن الأمـير فخرالديـن المعنـي الثـاني، وعـن آل الحنـش في ريـف دمشـق، وأُخـرى عـن السـيد محمـد المرتـضى الزبيـدي.

الاتِّجـاه الثـاني: دراسـات تناولـت تاريـخ بـلاد الشـام، يـأتي في مقدمتهـا أطروحـة للدكتـوراه أعدَّهـا في مدرسـة

اللغـات الآسـيوية والأفريقيـة، ونشرهـا عـام (1981م) تحـت عنـوان:

The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century, Beirut, 1982

إلى جانـب غيرهـا مـن الدراسـات التـي تناولـت عـددًا مـن المـدن الشـامية؛ دمشـق، حلـب، بـيروت، صيـدا، طرابلـس[15].

الاتِّجـاه الثالـث: كتـب وبحـوث تناولـت تاريـخ البلدانيـات الفلسـطينية مـن خـلال الوثائـق العثمانيـة، شـملت: القـدس وحيفـا ومـرج بنـي عامـر واللجـون والرملـة واللـد ونابلـس وبيـت لحـم وبيـت جـالا وأريحـا وجوارهـا[16].

الاتِّجـاه الرابـع: كتـب وبحـوث تناولـت تاريـخ الأردن في العهـد العثـماني في طليعتهـا كتابـه عـن مملكـة الكـرك في العـصر المملـوكي، وهـو بالأصـل أطروحتـه للماجسـتير، مـن الجامعـة الأميركيـة في بـيروت سـنة 1965م، ومـا كتبـه عـن معـان وجوارهـا وناحيـة بـن الأعـسر وبنـي كنانـة وبنـي جهمـة ودفاتـر مفصـل لـواء عجلـون في القـرن 10هـ/16م[17].

الاتِّجـاه الخامـس: تحقيـق المخطوطـات ونصـوص الرحـلات، في مقدمتهـا كتـاب المنـازل المحاسـنية في الرحلـة الطرابلسـية، ومذكـرات الدكتـور جميـل التوتنجـي، وكتـاب التمييـز لحسـين بـن فخرالديـن المعنـي، وتاريـخ القـدس والخليـل للشـيخ الخليـلي، وحـادي الأظعـان النجديـة لمحـب الديـن الحمـوي[18].

الاتِّجـاه السـادس: إصـدار الفهـارس التحليليـة والكشـافات لسـجلّات المحاكـم الشرعيـة في الأردن وفلسـطين، والفهـارس التحليليـة لسـجلّات القـدس، وفهـرس المخطوطـات المصـوّرة، وفهـارس دفاتـر الطابـو المحفوظـة في مركـز الوثائـق والمخطوطـات[19].

الاتِّجـاه السـابع: أعـمال الإعـداد والتحريـر، في مقدمتهـا تحريـر موسـوعة تاريـخ البشريـة، وأعـمال مؤتمـرات تاريـخ بـلاد الشـام، وأعـمال اللجـان والنـدوات الصـادرة عـن عـمادة البحـث العلمـي في الجامعـة الأردنيّـة، وتحريـر تاريـخ مدينـة القـدس عـبر العصـور[20].

الاتِّجـاه الثامـن: الإشراف والمشـاركة وإعـداد الوثائـق الهاشـمية ونشرهـا (أوراق عبداللـه بـن الحسـين)، وصـدر منهـا حتـى الآن (30) ثلاثـون مجلّـدًا[21].

الاتِّجـاه التاسـع: المقـالات التـي كتبهـا بالإنجليزيـة للموسـوعة الإسـلامية الطبعـة الجديـدة، والمقـالات التـي نشرهـا في مجلـة "النـدوة" التـي تصـدر عـن جمعيـة الشـؤون الدوليـة، وكان البخيـت يتـولى تحريرهـا، ناهيـك عـن مـا نـشر في الصحـف الأردنيّـة والسـعودية، وكلماتـه الافتتاحيـة في افتتـاح النـدوات والمؤتمـرات التـي تعقـد في الجامعـات ومراكـز البحـوث، والتـي لـو قُـدِّر لهـا مَـن يجمعهـا ويدرسـها لكانـت ثـروة معرفيّـة تنبـئ عـن جانـب مهـم في شـخصيّة البخيـت وتكوينـه الفكـري[22].

إنَّ الباحـثَ يلمـس مـن خـلال القـراءة المتأنِّيـة لمؤلفـات البخيـت وبحوثـه المتخصِّصـة ملامـحَ منهجيّـة البخيـت كمـؤرِّخ ملتـزم بالموضوعيّـة والنزاهـة والحياديّـة، في إطـار البحـث عـن الحقيقـة التاريخيّـة، وعـدم تحميـل النصـوص أكـثر مـمّا تحتمـل، وهـي سـمة أساسـية في تكويـن المـؤرِّخ، ناهيـك عـن تركيـزه عـلى دراسـة التاريـخ الحضـاري وتاريـخ النظـم والمؤسسـات، متجـاوزًا بذلـك الدراسـات التـي ركّـزت عـلى التاريـخ السـياسي، ودور الأفـراد في التاريـخ، التـي وسـمت كتابـات مؤرّخـي الخمسـينات والسـتينات مـن القـرن المنـصرم، وتوصـف جهـوده البحثيـة بالإحاطـة والشـمول بمصـادر التاريـخ الحديـث، فـلا يقتـصر عملـه عـلى مصـادر بعينهـا، أو روايـات منفـردة، أو دراسـات حديثـة كـما يفعـل بعـض

المتصدّين للكتابة التاريخية، وإنَّما نراه يوظِّف المصادر الأولية، ويبني عليها استنتاجاته، ممّا يعطي تلك الاستنتاجات سمة المصداقيّة.

والتزم البخيت بالمنهج العلمي الأمثل في تحقيق النصوص والمقابلة بين المخطوطات، إذ يعمد إلى دراسة تحليلية ضافية لمحتوى تلك النصوص، فهو لا يكتفي بنشر النصوص المحققة وسجلّات الطابو والمالية المدوّرة كما هي، وإنما يثري تلك النصوص بتحليلات علمية شمولية مبنية بالأساس على محتوى النص الأصلي، ورفد النص المحقَّق والدراسة بالمزيد من الإحالات إلى البحوث، والدراسات، والاستشهادات التي تعين القارئ المتخصص، ناهيك عن الثروة المعرفية من تعريف المصطلحات والأمكنة والأعلام التي تعين القارئ على الإفادة من تلك النصوص. ونراه يلج مولجًا صعبًا في التصدي لتحقيق النصوص باللغة التركية (العثمانية) ويترجمها مع زميله نوفان رجا الحمود السوارية، ترجمة دقيقة، وهو أمر يُحجم الكثيرون عن خوض غماره؛ لصعوبة التعامل مع لغة تلك النصوص، وصعوبة قراءة الخطوط والمصطلحات، وهو بعمله هذا وضع بين أيدي الباحثين والطلبة، نماذج علمية وعملية رائدة للاقتداء بها، والسَّير على خطاها عند التعاطي مع تلك النصوص، ونرى ذلك واضحًا في تأثيره المنهجي في طلبته الذين ارتسموا خطاه، وتأثروا بمدرسته، وشكّلوا امتدادًا له، وجسرًا عبر عليه غيرهم من الطلبة والباحثين، بحيث اخضرَّت وأثمرت وأتت أكلها ثمارًا ناضجة. وحسب الأستاذ البخيت أنْ يترَكَ بصمات في تكوين الأجيال اللاحقة، ليستمرّ العطاء والسّخاء في العطاء جيلًا تلو جيل.

إنَّ اهتمام البخيت بالتاريخ القُطْري المحلّي وتواريخ المدن والحواضر، لا يمكن عدّه بحال من الأحوال ترويجًا للقُطْرية، وإنَّما يُفهم في إطار التركيز على دراسة الجزئيات، والحفر في تفاصيل التاريخ الإداري، والاقتصادي، والاجتماعي، وتنوُّع النسيج الإثني والمذهبي، بعيدًا عن النظرة المسبقة، والتنظير السياسي، والتعمُّق في الجزئيات في إطار الوحدة الشاملة لتاريخ الأمة.

وتتَّسم مؤلفات البخيت حول التاريخ الحديث عمومًا، وتاريخ الولايات العربيّة والبلدانيات الشامية في ظل الحكم العثماني خصوصًا، بنظرة موضوعية تجتهد لتبديد سوء الفهم، والنظرة غير الموضوعية التي أنتجتها الكتابات ذات اللون القومي في فترة الخمسينات والستينيات من تشويه متعمَّد أحيانًا، وعن جهل أحيانًا أخرى، في إطار الدفاع عن القومية العربيّة لصورة الدولة العثمانية، وتصدي البخيت لذلك السيل من الدراسات، وساهم ببحوثه ودراساته في تقديم نظرة موضوعية واعية، توازن بين الإيجابيات والسلبيات في التاريخ العثماني، فساهم بعمق في تبديد سوء الفهم، كما أنه في دراساته تجاوز نظرة أولئك المسكونين بهوس الخلافة وإعادة إحيائها الذين عظّموا الإيجابيات، وأهملوا عن قصد السلبيات في التاريخ العثماني.

والبخيت وطني مُحبّ لوطنه الأردن، مثلما هو معتزّ بعروبته، مسكونًا بالتأصيل لتاريخه، وهو في مقالاته ناقد للممارسات السلبية التي يمارسها الأفراد والمؤسسات، يسلط الضوء على مظاهر الخلل، ويسعى لتقويم المسيرة ممّا يعتريها من اعوجاج، وهو جريء في قول الحق.

وفي الختام، لقد ترجم شيخنا البخيت انتماءه الإسلامي العروبي، ووطنيته الأردنيّة من خلال عمل دؤوب في البناء والإنجاز، بعيدًا عن التنظير، وخدم تراث الأمة وتاريخها وعروبة مقدساتها من خلال

حفـظ وثائقهـا، ودراسـة تراثهـا ونـشره نـشرًا علميًـا محققًـا، ومـا أمكننـا أن نلفـت الانتبـاه إليـه مـن جهـود في هـذه العجالـة، أمـر يسـير، قياسًـا بضخامـة منجـزه، والـذي تجسّـد عـلى أرض الواقـع مـن خـلال مسـيرة حافلـة بالإنجـاز عـلى الصعيديـن البحثـي والإداري، وسـيبقى شـاهدًا لا يدمـغ، ونبراسًـا للآخريـن ليحتـذوا حـذوه.

لقـد كان البخيـت -ومـا يـزال- عـروبيّ الانتـماء، خـدم وطنـه الأردن وتوأمـه فلسـطين، وعمـل بإخـلاص عـلى الحفـاظ عـلى هويّـة القـدس العربيّـة الإسـلاميّة، ونهـض بعـبء تقـصر عنـه مؤسسـات، رائـده في ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ﴾ صـدق اللـه العظيـم.

الهوامش:

1. للمزيد حول السيرة الذاتية للأستاذ البخيت، ينظر: محمد عدنان البخيت مؤرخًا وموثقًا وأستاذًا ومؤسسًا، منشورات مؤسسة عبدالحميد شومان، ط1، المطبعة الوطنية، عمّان، 2010م، ص746-731. وهي محملة على الرابط الإلكتروني: //http ujnews2.ju.edu.jo

2. د.زياد المدني، تصوير التراث الفلسطيني والتعريف به، تصوير المخطوطات العربيّة وسجلّات المحاكم الشرعية ودفاتر الأوقاف ومخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، ونشر فهارسها، ضمن محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص380-359.

3. للمزيد حول تلك السجلّات والوثائق نوفان رجا السوارية، تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة، منشور ضمن محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص357-339.

4. ينظر على سبيل المثال لا الحصر حول تلك السجلّات والمحاولة الرائدة لاستنطاقها، د.المهدي الرواضية، جغرافية الأردن التاريخية والبشرية من خلال وثائق الطابو التي ترجمها ونشرها البخيت والحمود، ضمن كتاب محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص-45 93.

5. للمزيد حول الوثائق الهاشمية وعناوين المجلدات التي صدرت، ينظر: المهدي الرواضية، أنظار وملامح حول الكتابة التاريخية عن الأردن، خلال المئوية الأولى، بحث غير منشور، مركز الدراسات الاستراتيجية، الجامعة الأردنيّة، 2021م، ص75-74.

6. ينظر على سبيل المثال لا الحصر، نماذج من تلك الدراسات التي استندت على محتوى الوثائق الهاشمية: د.محمد الأرناؤوط، العلاقات الأردنيّة- السورية من خلال الوثائق الهاشمية، ضمن كتاب محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص500-481، د. عيسى أبوسويلم، خط حيفا- بغداد (I.P.C)، المرجع نفسه، ص536-501، عليان الجالودي، العلاقات الأردنيّة السعودية من خلال الوثائق الهاشمية، المرجع نفسه، ص563-537، وزهير غنايم، العلاقات الأردنيّة- الفلسطينية ووحدة الضفتين من خلال الوثائق الهاشمية، المرجع نفسه، ص592-565.

7. موسى الناظر، البخيت وإدارته للبحث العلمي في الجامعة الأردنيّة، ضمن محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص593-523.

8. محمد المجالي، التجربة الثقافية في جامعة مؤتة، ضمن كتاب محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص454-435، فايز القيسي، مؤتة المشروع النهضوي الجديد، المرجع السابق، ص479-255.

9. شكري الماضي، محمد عدنان البخيت والفعل الثقافي في جامعة آل البيت، المرجع السابق، ص646-625.

10. ينظر رسائل الماجستير، د.عليان الجالودي، قضاء عجلون، ود.محمد سالم الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء والكرك ومعان، ود.جودت ناشخو، الشراكسة والشيشان في الأردن، وجمعيها منشورة.

11. ينظر: د.هند أبو الشعر، إربد وجوارها، د.نوفان السوارية، عمان وجوارها، د.جورج طريف الداؤود، السلط وجوارها، وجميعها منشورة.

12. حاول الباحث الدكتور الرواضية تتبع إسهامات هذا الجيل، ينظر: أنظار وملامح حول الكتابة التاريخية عن الأردن، ص51-36.

13. حول منجز البخيت الإداري، ينظر: د.محمد سالم الطراونة، اهتمام البخيت بتجميع وثائق محافظة الكرك خلال رئاسته لجامعة مؤتة، ضمن كتاب محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص389-381، د.محمد المجالي، التجربة الثقافية في جامعة مؤتة، المرجع نفسه، ص454-435، ود.فايز القيسي، مؤتة المشروع النهضوي الجديد: قراءة في وعي البخيت رسالة مؤتة الحضارية، المرجع نفسه، ص479-455، د.موسى الناظر، البخيت وإدارته للبحث العلمي في الجامعة الأردنيّة، المرجع نفسه، ص593-523، د.شكري الماضي، محمد عدنان البخيت والفعل الثقافي، جامعة آل البيت، المرجع نفسه، ص664-625، طه الذنيبات، الزراعة والحصاد المائي في جامعة مؤتة، المرجع نفسه، ص691-687، عدنان الصالحي وآخرون، الزراعة والحصاد المائي في جامعة آل البيت، المرجع نفسه، ص691-687.

14. جمع إنتاج البخيت من البحوث -باستثناء الكتب- وأعمال التحقيق والمقالات في كتاب تحت عنوان: دراسات في تاريخ بلاد الشام، اختص المجلد الأول بدراساته عن الأردن، والمجلد الثاني شمل بحوثه عن فلسطين، والمجلد الثالث بحوثه عن سوريا ولبنان، في حين خصص المجلد الرابع لدراساته المنشورة باللغة الإنكليزية، وصدرت عن وزارة الثقافة.

15). للمزيد حول تلك الدراسات ومحتواها، د.عبدالكريم رافق، الشام في دراسات محمد عدنان البخيت، ضمن كتاب محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص43-15، د.عصام خليفة، الجغرافيا البشرية والاقتصادية عن لبنان في دراسات البخيت، المرجع السابق، ص245-209.

16. للمزيد حول تلك الدراسات، ينظر: د.محمود يزبك، فلسطين في مؤلفات البخيت، ضمن محمد عدنان البخيت مؤرخًا، ص159-129، د.هند أبو الشعر، الجغرافيا البشرية والاقتصادية للقدس وجوارها، المرجع نفسه، ص207-161.

17. د.المهدي الرواضية، جغرافية الأردن التاريخية والبشرية، المرجع السابق، ص93-45، محمد رفيع، الأردن في دراسات البخيت، المرجع السابق، ص-95 128.

18. د.سمير الدروبي، منهج البخيت والسوارية في تحقيق النصوص ونشرها، المرجع السابق، ص313-279.

19. د.نوفان السوارية، تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات، المرجع السابق، ص357-339.

20. د.خيرية قاسمية، فلسطين في مؤتمرات بلاد الشام، مراجعة وتقييم، المرجع السابق، ص277-247.

21. د.المهدي الرواضية، أنظار وملامح، بحث مخطوط، ص75-74.

22. د.محمد عصفور، مساهمة محمد عدنان البخيت في التخطيط لكتاب تاريخ البشرية وتحريره، المرجع السابق، ص337-315، د.محمد عبيدالله، فن المقالة عند محمد عدنان البخيت، المرجع السابق، ص661-647.

سليمان الموسى: شخصيَّته ومنهجه في كتابة تاريخ الأردن والثورة العربيّة الكبرى

د.حسين علي محافظه*

تسعى هذه الدراسة الموجزة إلى الكشف عن أبرز ملامح شخصيّة الموسى ومنهجيّته في كتابة تاريخ الأردن والثورة العربيّة الكبرى، من خلال دراسة كتب سيرته ومؤلَّفاته. وهو أحد الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم التأريخ للأردن الحديث والمعاصر، واتَّبع في كتابته لتاريخ الأردن منهجًا حُرًّا استمدَّه من خبرته وتجربته الذاتيّة، ومن خلال ثقافته التاريخيّة الواسعة، فساهم في التأسيس للحركة الأدبيّة والثقافيّة عبر جوانبها المختلفة، ممّا جعله علمًا بارزًا في ميادين الكتابة التاريخيّة والآداب العربيّة.

"الكاتب الحق شاهد عصره، والمؤرِّخ الحق شاهد ضميره"

سليمان الموسى

كان أبرز ما عني به سليمان الموسى تدوين تاريخ الأردن السياسي والعسكري والفكري، وعُرف عنه ولعه الشديد بالمصادر التاريخية الوثائقية المحلية والعربية والأجنبية والمقابلات الميدانية. ولمّا كان من المؤمنين بالنهضة العربية الحديثة، فقد أصبح مغرمًا بربط تاريخ الأردن بمنطلقات الثورة العربية الكبرى وأهدافها بالتحرُّر والاستقلال والنَّهضة والتقدُّم.

ومن الجدير بالذكر، أنَّ مؤلفاته في تاريخ الأردن والثورة العربية الكبرى اتُّخذت ولا تزال مصادر لا غنى عنها للدارسين المختصين والمثقفين على حدٍّ سواء، ولعلَّ هذا ما يعطي لهذه الدراسة أهميّتها وهي تحاول تسليط الأضواء على سيرة المؤلف ومنهجيّته بالكتابة لما تشتمل عليه من موجبات مثل: تدوينه لمعلومات استمدَّها من وثائق نادرة ومعاصرته للأحداث التي كتب عنها وبراعته في تناولها وعرضها بأسلوب أدبي شيّق وتسلسل دقيق واضح.

أمّا فيما يخصّ منهج الدّارس الحالي، فقد قام على اعتماد أعمال المؤلِّف مراجع لبحثه، وانتقاء بعضها لتدلّ على غيرها، مع الإشارة لمنهجيّة مؤلّفها وأسلوبه باختصار شديد،

* **أستاذ التاريخ- جامعة البلقاء التطبيقية**

hussainmahafzah@gmail.com

استجابةً لشروط وقواعد نشر هذا البحث في المجلة الموقرة. وسوف يتم ذلك من خلال المحورين الآتيين:

أوَّلًا: سيرة المؤلف

إنَّ أوَّل معالم ذكاء الموسى وحسّه التاريخي العميق، انتباهه إلى ضرورة تدوين سيرته الذاتيّة؛ ممّا سهَّل على الدّارسين التعرُّف إلى أدق تفاصيل حياته منذ ولادته عام 1919م وحتى وفاته عام 2008م، وقد كتبها بكتابين الأوَّل عنوانه (خطوات على الطريق، سيرة قلم) والآخر عنوانه (ثمانون، رحلة الأيام والأعوام) وفيهما استعرض مجمل مراحل حياته وطبيعتها وأثرها على سيْر تطوُّر تفكيره وأعماله وطموحاته وإنجازاته، وهي تُعدُّ من أوفى كتبه وأضخمها في مجال كتابة السير والتراجم الشخصيّة والغيريّة التي تخصَّص بها إلى جانب الحقول الدراسيّة الأخرى السياسيّة والأدبيّة والثقافيّة.

يحدِّثنا الموسى عن نفسه؛ اسمه ومولده وأسرته، فهو "سليمان بن موسى بن سليمان بن خليل الناصر" وُلد عام 1919 في قرية "الرفيد" شمالي مدينة إربد، وهو من أسرة مسيحيّة من الطائفة الأرثوذكسيّة التي تعود أصولها إلى جبل لبنان، واستقرَّت في الرفيد حوالي منتصف القرن التاسع عشر، وعملت في الزراعة وبعض الحرف اليدويّة، وعانت من الفقر الشديد، إلا أنها امتلكت الرغبة بالتعلُّم والمعرفة حيث سعت لتدريسه عند شيخ كُتّاب قريته، ثم أرسلته والدته إلى مدرسة "الحصن" جنوب شرق إربد عام 1934م وأقبَلَ على التعلُّم حتى أتمَّ دراسته الابتدائيّة، لكنه اكتفى بهذا المستوى من التحصيل لعدم قدرة أسرته على دفع تكاليف دراسته بعد أن فقد والده عام 1919 وتولت أمه الإنفاق عليه وعلى شقيقاته.

ولذلك قام بالبحث عن العمل، فدرَّس مؤقتًا في المدرسة التي تخرّج فيها، ثم ذهب للعمل في يافا في فلسطين، وعمل في إحدى المكتبات وهو ما وافق ميوله في المطالعة بنهم شديد، فأخذ يفكر في ما كان يكتبه من مقطوعات شعرية وبعض القصص القصيرة، كما قام بجمع ما كان يقرأه عن أحداث الثورة العربية الكبرى 1916م، وفكَّر بكتابة مؤلَّف قصير عن قائدها الشريف حسين بن علي، لكنه لم يوفَّق في مسعاه، إلى أن أعاد كتابته مرَّة ثانية ونشره بعد مدة طويلة.

عاد الموسى إلى قريته ليرعى أسرته بعد أن أمضى ثلاث سنوات في يافا (1936- 1939) وقد تزوَّد بحصيلة معرفيّة وثقافيّة أهّلته للعمل في ورشات عمل الجيش البريطاني العاملة في الأردن في بلدة المفرق، فتقوَّت لغته الإنجليزية، وحفّزته علاقته بالموظفين الإنجليز على القراءة والكتابة، فأخذ بكتابة المقالات لتنشر في الصحف والمجلات العربية، وهذا ما ساعده في الحصول على وظيفة في الإذاعة الأردنية في عام 1957 في عمّان، وتنقّل بين الوظائف إلى أن استقرَّ في (دائرة المطبوعات والنشر) وأصبح محرِّرًا لمجلة "رسالة الأردن" التي تصدرها الدائرة، كما عمل في وزارة الثقافة، وظلَّ عاملًا فيها إلى أن تقاعد من العمل عام 1983.

أمضى الموسى حياته كلها بالعمل في الشؤون الكتابيّة والنشاطات الثقافيّة، وهو ما حلم به طوال حياته، وانشغل بالهمّ الثقافي والكتابي الذي رأى فيه أهمّ مجالات الحياة التي تعبِّر عن صدق الحياة نفسها وسعادته الشخصيّة.

تميَّز الموسى بعمق التفكير وسعة الثقافة، وإنَّ الناظر إلى أعماله يجدها منظّمة مرتّبة أحسن ترتيب لغةً وأسلوبًا، وأنَّها تقوم على أربعة مرتكزات هي:

- التفكير البسيط الواقعي.
- المنهج الوصفي السردي.
- الانتماء القومي العربي.
- الحس الإنساني المرهف.

وهـذا عائـد إلى نمـط تربيتـه وظروفـه وثقافتـه المسـتندة إلى مفاهيـم الانتـماء الصـادق لوطنـه الأردن وأمّتـه العربيّـة.

أمّـا صفاتـه، فقـد كان مـن المميّزيـن بالطبـع الهـادئ ودماثـة الأخـلاق والتسـامح، وتجلّـت صفاتـه الذهبيّـة بالطمـوح والصـبر والإرادة والمثابـرة، فقـد عـدَّت هـذه الصفـات المسـؤولة عـن نجاحـه وإنجازاتـه بمـا قـدَّم عطـاءً لنفسـه ولوطنـه مـن خـلال الشِّـعار الـذي تبنّـاه ((كـم أعطيـتَ لا كـم أخـذتَ)).

ثانيًا: مؤلَّفاته ومنهجه في الكتابة التاريخيّة

إنَّ نقطـة التحـوُّل في حيـاة المـوسى الكتابيّـة في مجـال التاريـخ بـدأت بعـد تأليفـه كتابـه الأوَّل "تاريـخ الأردن في القـرن العشريـن"، فقـد تحوَّلـت رغبتـه في كتابـة التاريـخ بعـد نجـاح هـذا الكتـاب إلى مـا يشـبه الفيـض العـارم الـذي لا يُقـاوَم، فتقـوَّت عزيمتـه وأخـذ يجمـع المعلومـات مـن المصـادر كافـة المتاحـة لـه، وانشـغل في البحـث والتقـصّي والكتابـة والطباعـة والنـشر.

بلـغ عـدد مؤلَّفاتـه أكـثر مـن أربعـين كتابًـا، إضافـة إلى عـشرات الدِّراسـات والمقـالات، تركّـزت كلهـا عـلى تاريـخ الأردن الحديـث والمعـاصر والثـورة العربيـة الكـبرى، وهنـا يمكننـا طـرح بعـض الأمثلـة مـن مؤلفاتـه للتدليـل عـلى أهميّتهـا؛ يُعـدُّ كتابـه "تاريـخ الأردن" مـن أهـمّ كتبـه وأشـملها، وهـو الـذي منـح مؤلفـه شـهرته مؤرِّخًـا، وانطـوى عـلى جهـة المـؤرِّخ المدقِّـق الضّابـط لتفاصيـل الأحـداث التـي شـهدها الأردن منـذ مـا قبـل قيـام الدولـة في عـام 1921 إلى سـنة تأليفـه عـام 1957، وكانت غايـة الكتـاب الحديـث عـن تأسـيس الدولـة الأردنيـة، التـي عدَّهـا المسـؤولة عـن كل تطـوُّر شـهدته البـلاد بعدمـا عاشـت حالـة الفـوضى والتخلُّـف في أواخـر عهـد الدولـة العثمانيّـة.

أمّـا كتابـه الثـاني "لورنـس العـرب: وجهـة نظـر عربيّـة"، فهـو الـذي منـح المؤلـف شـهرته العالميّـة، إذ تُرجـم إلى معظـم اللغـات العالميّـة، وفيـه دحَـضَ المـوسى آراء "لورنـس" حـول الثـورة العربيـة الكـبرى، وبـيَّن المغالطات التـي قـام بهـا "لورنـس" ومبالغتـه حـول دوره في حـروب الثـورة العربيـة الكـبرى. ووضَّـح المـوسى أنَّ الثـورة بقيادتهـا كانـت واعيـة لأهدافهـا وهـي المسـؤولة عـن تحريـر البـلاد مـن السـيطرة العثمانيـة.

وأمّـا كتابـه المعنـون بـِ"أيـام لا تنـسى، الأردن في حـرب 1948"، فهـو أشـهر كتبـه في مجـال التاريـخ العسـكري، وفيـه وضَّـح دور الجيـش العـربي الأردني ودفاعـه البطـولي عـن القـدس وفلسـطين. والكتـاب أشـبه مـا يكـون بكتـاب يوميّـات للحـرب، ولذلـك يُعـدَّ مـن أفضـل المراجـع عـن حـرب عـام 1948.

وحـول طريقـة المـوسى في التأليـف، فيمكـن القـول إنهـا كانـت مسـتمدّة مـن مفاهيـم أدبيّـة، إذْ عـدَّ التاريـخ في مجملـه ((قصـة جديـرة بالرِّوايـة))، وهـو برأيـه عبـارة عـن كتابـة محـدَّدة تُعـرَّف فيهـا الأحـداث كـما وقعـت بحسـب تسلسـلها الزمنـي، ومـا عـلى المـؤرخ أو الكاتـب الحصيـف إلا أن يسـجِّلها ويدوِّنهـا كـما هـي أو كـما وردت بمصادرهـا ومراجعهـا. وفي رأي آخـر لـه يشـبِّه عمـل المـؤرِّخ بعمـل القـاضي الـذي يفـرض عليـه واجبـه

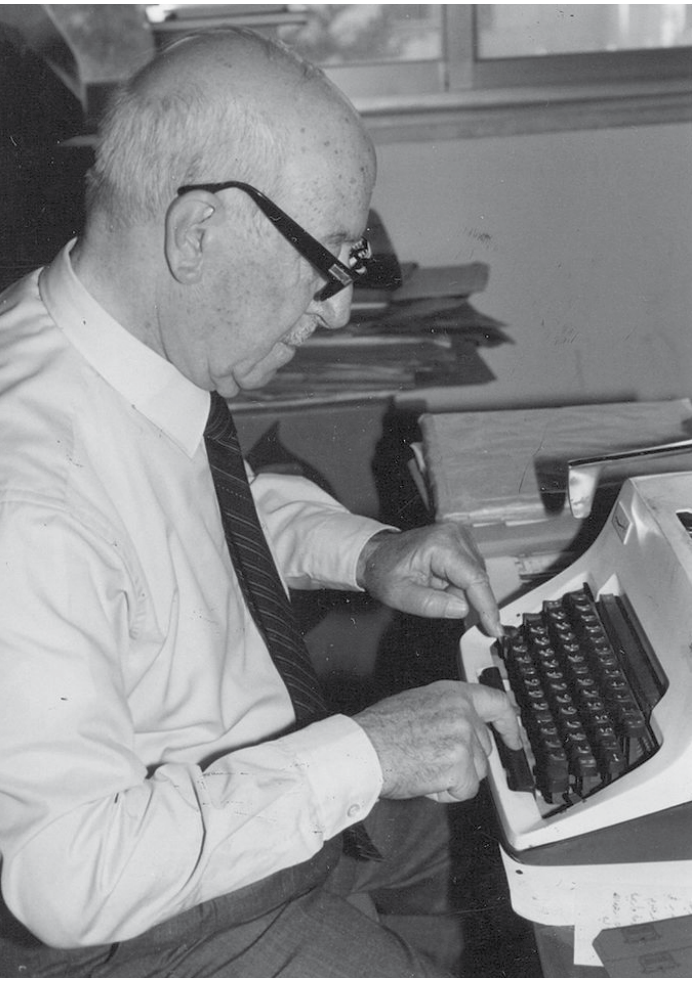

محاكمة الأشياء المطروحة عليه بعدالة ونزاهة ليكون حُكمه أقرب ما يكون إلى الحقيقة.

أمّا دوافعه للكتابة في مجال التاريخ، فقد جاءت تعبيرًا عن حيويّة ذهنيّة لدى المؤلف واستجابةً منه لتحدّيات طبيعية ووظيفية ساهمت في تفجير طاقاته؛ إذ كان يشعر بنفسه أنّه قادرٌ على ملء فراغ في الكتابة حول تاريخ الأردن، وأنَّ واجبه يفرض عليه أن يتصدّى للمهمّة الكبرى التي أنيطت به، وأنّه بذلك يكون قد أسدى خدمة جليلة لوطنه وأمته مثلما يحقِّق لنفسه المجال لإثبات الذات والشعور بالرضا والسعادة.

ويمكن القول في نهاية هذا المحور إنَّ سليمان الموسى اتَّبع في الكتابة منهجًا حُرًّا استمدَّه من خبرته وتجربته الذاتيّة، من خلال ثقافته التاريخية الواسعة.

لقد تعرَّف الموسى إلى أسس وقواعد الكتابة التاريخيّة، وتعرَّف إلى مصادر المعلومات وبخاصة الوثائقيّة منها العربية والأجنبية، إضافة للدراسات الميدانية والمقابلات الشخصية، فاستنبط الأدلّة من شواهدها الكتابيّة، وأحاط بالظاهرة المدروسة من مختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية.

واتَّسم أسلوبه في الكتابة بأعلى مستويات الدقة والوضوح والشمول بسبب موهبته الأدبية، فجاءت كتاباته متسلسلة شيّقة ممتعة، وبذلك يكون قد استوفى غالبيّة شروط الكتابة التاريخيّة المشهورة، وحقَّق ما استطاع بتميُّز أعماله ومؤلفاته، فهي أصيلة في موضوعاتها، وحازت الأفضليّة في ميدان السّبق والرِّيادة.

المصادر والمراجع:

- استندت هذه الدراسة إلى مؤلفات سليمان الموسى نفسه مثل:
- خطوات على الطريق، سيرة قلم: تجربة كاتب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- ثمانون، رحلة الأيام والأعوام، ط2، وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، 2008.
- منيب الماضي وسليمان الموسى: تاريخ الأردن في القرن العشرين، 1959-1900، الجزء الأول، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط3، عمّان، 2017.
- الحركة العربية، سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1924-1908، الأعمال الكاملة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط4، عمّان، 2013.
- وجوه وملامح، صور شخصية لبعض رجال السياسة والعلم، منشورات وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، ط1، 1980.
- نوافذ غربية (كتب وكتاب وقضايا عربية)، وزارة الثقافة والشباب والآثار، عمّان، الأردن، ط1، 1984.

الشيخ المُعلّم عبدالكريم غرايبة و"إنارات فريدة"

د. أمجد أحمد الزعبي*

أسّس عبدالكريم غرايبة مدرسته الخاصة بالتاريخ التي أثّرت بشكل مباشر وغير مباشر في التأريخ للدولة الأردنية؛ ضمن رؤية مختلفة عن التقليديّة ممزوجة بروح من الحداثة في إطار الشموليّة الإنسانيّة. ونظر غرايبة إلى الدولة الأردنيّة على أنها دولة داخليّة لا تستطيع أن تنفصل عن جوارها العربي، وله أيضًا نظرته في الحركة التي قادها الشريف الحسين بن علي التي تستند لها الدولة الأردنيّة، فقد أكّد أنَّها نهضة وليست ثورة، فالملك المؤسس عبدالله الأوَّل جعل وسام النهضة أرفع وسام.

تُعدُّ حياة عبدالكريم محمود غرايبة (1923-2014م) بحدّ ذاتها إنارات فريدة، فهو يقول: "لا أحقد ولا أعاتب ولا أكره، لكنّي ضعيف في الحب"؛ فمشروع حياته أو حلم حياته أطلق عليه "إنارات فريدة"، وهو مشروع يتجايل مع عمر الدولة الأردنية التي تحتفل بمئويّتها؛ فنُضج عبدالكريم ترافق مع استقلال المملكة الأردنية الهاشمية، ومسيرة حياته محطّات تؤرّخ في سيرتها الذاتية لكل محطات الدولة، ففي كل محطة حكاية مشوّقة امتزج فيها الشخصي العاطفي بالتطوُّر التاريخي لهذا البلد، وقد ساقها موشّحةً بمسحة جميلة من الطّرافة وخفّة الظلّ، حيث لازمت شيخنا المعلم طوال سني حياته، ليؤسِّس مدرسته الخاصة بالتاريخ التي أثّرت بشكل مباشر وغير مباشر في التأريخ للدولة الأردنية؛ ضمن رؤية مختلفة عن التقليدية ممزوجة بروح من الحداثة في إطار الشمولية الإنسانيّة.

سُئل شيخنا عن هويّته فقال: "أنا عربي سوري حوراني من الأردن"، فقد وُلد شيخنا الحوراني كما يسمّي نفسه أحيانًا كثيرة (الحوراني بالنسبة للشامي فلّاح خشن، وتأتي أحيانًا من باب التقليل من الشأن مقارنة بالشامي المدني) في قرية المغيّر من قرى شمال مدينة إربد، حيث بدأ دراسته الأولى فيها، ليتنقل في تعليمه من مدينة أردنية إلى أخرى: مادبا، وعجلون، والسلط، حيث تخرّج في مدرسة السلط سنة 1941م، ليلتحق بعدها بالجامعة الأميركية بكلية الطب نزولًا عند رغبة والده؛ إلا أنه لظروف صحيّة لم يكمل مشواره فيها في السنة التحضيرية التي كان عليه أن يعيدها، لكنه رفض الإعادة ليلتحق بالتخصُّص الذي يعشقه وهو التاريخ. التحق بعدها بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن The School Of Oriental and African Studies على نفقة وزارة التربية والتعليم؛ حيث يذكر: "نلتُ البعثة بسبب

* **أستاذ مشارك - جامعة فيلادلفيا**

dr.amjadzoubi@gmail.com

خطأ بروتوكولي في الديوان الملكي، فقد أدخلني رئيس التشريفات هزاع المجالي مع مجموعة كان المفروض أن لا أعرفها ولا تعرفني، كانت المجموعة سورية الطابع تعمل على مشروع سوريا الكبرى وتنقل الأخبار، ويفترض أن تكون سريّة. ولمّا أدركوا أني عرفت ما لا يجب أن أعرفه، سألوني عن طلباتي، فقلت: إيفاد إلى لندن، ولديّ قبول...". عاد عبدالكريم بعد إنهاء دراسته مباشرة إلى الأردن ليكون أوَّل أردني يحصل على شهادة الدكتوراه في حقل العلوم الإنسانية، وفي هذا يذكر حادثة طريفة، حيث يقول: "أخذني والدي لأقبّل أيادي الملك عبدالله المؤسس. وسألني: مَن هو السلطان التركي العثماني الثالث عشر؟ وأجبتُ فورًا: لا أعرف. مع أني كنتُ آنذاك أعرف، ولكن ركبني عناد. قال: كيف لا تعرف وأنت تقول إنّك دكتور تاريخ! قلتُ: إننا لا نهتم بالملوك والسلاطين بل نهتم بالشعب...". ليبدأ مشواره الطويل بحثًا عن موقعه الذي يستحقه، حيث بدأ عمله موظف درجة رابعة براتب 32 دينارًا شهريًّا، وكان قد وصله أوَّل عرض للعمل من جامعة بغداد بضعف الراتب، لكنَّ والده ومتصرف إربد منعاه من السفر لأنه ملتزم بالعمل مع الحكومة، حيث عُيِّن في دائرة الآثار، وأستاذًا زائرًا في جامعة دمشق لاحقًا، ثم رئيسًا لدائرة المظالم، وعاد مرة أخرى إلى دائرة الآثار.

وبعد تأسيس الجامعة الأردنية التحق بها ليحمل الرقم 100101 "إنني أقدم مَن فيها وما فيها"، ليكون مؤسِّسًا لقسم التاريخ، حيث ترك أثره وبصمته فيها، كأوَّل عضو هيئة تدريس، واستمرّ فيها لحين انتقاله إلى الجامعة الإسلامية وفي نفسه غصّة كبيرة تجاه مشروعه "إنارات فريدة" الذي كان يحلم في أن يكون في جامعته التي عشقها وأفنى حياته فيها، فقد أسهم إلى جانب التدريس والبحث العلمي في إدارة الجامعة رئيسًا للقسم وعمادة كلية الآداب: 1966-1968م، 1973-1977م، 1978-1980م، 1984-1989م. تاركًا بصماته الكبرى، فقد كان له دور في تأسيس مؤتمر تاريخ بلاد الشام بالشراكة ما بين جامعة دمشق والجامعة الأردنية، وفي تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات في مكتبة الجامعة الأردنية، وتأسيس متحف الآثار ومتحف التراث الشعبي الأردني وتأسيس نادي أعضاء الهيئة التدريسية. تخلَّل ذلك إجازات البحث العلمي التي عمل فيها في تركيا 1969-1970م بدراسة الوثائق العثمانية، وسافر إلى الولايات المتحدة باحثًا في الوثائق الأميركيّة -1977 1978م.

ترك الغرايبة أثره على كل مَن عرفه وزامله بخاصة أنه تنقَّل أستاذًا زائرًا في العديد من الجامعات العربية: دمشق وبيروت والرياض، ومن أبرز الأساتذة الذين أثّر فيهم نذكر على سبيل المثال: قسطنطين زريق الذي أطلق على عبدالكريم لقب "النبّاشة" لأنه كثير التحرّي والنَّبش، ومنهم: نبيه فارس ونيقولا زيادة، ونورالدين حاطوم وغيرهم. ومن طلابه -الذين كان يُحبّ أن يطلق عليهم طلابه وليس تلاميذه- كبار مؤرخي الأردن وعلى رأسهم: خيرية قاسمية وعلي محافظة وعبدالعزيز عوض وغيرهم. كان شيخنا من المقلّين في التأليف فكتب بنوعيّة كتبًا وأبحاثًا منها: "تطور مفهوم النضال ضد الاستعمار"، "مقدمة في تاريخ العرب الحديث"، "العرب والأتراك"، "أفريقيا العربية في القرن العشرين"، "قيام الدولة العربية في السعودية"، و"تاريخ العرب الحديث 1780-1925م". وله نظرة تاريخية في حاضرنا: حديث المفاوضات وتخفيف الخلطة. وله العديد من المقالات المنشورة في رؤيته للأحداث وتطوُّرها في الأردن.

قامت فلسفة التاريخ لدى الغرايبة على أنه الدارس والهائم والباحث والكاتب، فالتاريخ من وجهة نظره

غيبـة ونميمـة؛ أي أنـكَ تكتـب عـن أحـداث ماضيـة تقـول وتدّعـي حدوثهـا؛ وهنـاك مَـن يلجـأ إلى لَيٍّ عنـق الحقيقـة باتِّجـاه معـيَّن، فالبحـث التاريخـي هـو بحـث قائـم عـلى الشـكّ؛ فـإذا كان القـول القانـوني: "المتَّهـم بـريء حتـى تثبـت إدانتـه" فقـد قـال الغرايبـة بالنقيض: "عـدم بـراءة الذمـة"، فالتاريـخ هـو مـادة متفجّـرة، تنمـي الغـرور، وتشـجِّع العـداوات بـين الشـعوب، وتـؤدّي إلى إشـعال الحـروب وتشـيع وتعـرّض البشريـة لأخطـار أشـد مـن الإشـعاعات النوويـة. واسـتخدم كلمـة "هائمًـا" لأنهـا وصـف دقيـق لعشـق يصـل الجنـون، وفائـدة عمـل المـؤرخ وعلمـه مـن وجهـة نظـره أن يعلـم (الذيـن ظلمـوا أيّ منقلـب ينقلبـون)؛ فشـمس رواياتهـم الحارقـة لا يسـترها سـحاب ولا سـطوح. ويـبرز موقفـه الإنسـاني في التاريـخ عنـد حديثـه عـن السَّـلام؛ فالسَّـلام لـن يحـدث إلا إذا كُتـب تاريـخ يمهِّـد للسَّـلام ويؤكـد عـلى الإنسـانيّة أكـثر مـن الـدول المتفوقـة. فهـو يذكـر في لقـاء صحفـي: "لا نريـد أن يكـون التاريـخ عبئًـا علينـا، ولا نسـمح لـه ولا نسـمح لأنفسـنا أن نكـون عبئًـا عليـه". كان الغرايبـة يعتقـد أنَّ البحـث الجيِّـد يحتـاج نوعـين مـن البـشر: عالِـم كبير سـنًّا لـه خـبرة، إلّا أنَّ عمـره خفَّف مـن نشـاطه، وشـاب يسـاعده يتميَّـز بالنشـاط والصَّـبر، قـادر عـلى العمـل لسـاعات طويلـة، فيكتشـف نتيجـة بحثـه أو بالصدفـة أمـورًا قـد لا يفهـم قدرهـا، فيتدخَّـل العـالِم الكهـل ليوضِّـح الأمـور. أي أنَّ البحـث الجيِّـد هـو نتيجـة جهـد اثنـين مختلفـين بالعمـر والنشـاط والخـبرة. وينـال الشـاب عـادةً شـهادة عاليـة عـلى إنجـازه وقـد يُمنـح الكهـل تقديـرًا وجائـزة. فالباحـث عليـه أن يبحـث عـن الحقيقـة ومعرفـة خفاياهـا وتمكـين الإنسـانية منهـا لخـير البـشر ورفاهيتهـم. فالمعرفـة مـن وجهـة نظـره يجـب أن تكـون مشـاعيّة ولا حقـوق ملكيّـة فكريّـة فيهـا.

نظـر الغرايبـة إلى الدولـة الأردنيّـة عـلى أنهـا دولـة داخليّـة لا تسـتطيع أن تنفصـل عـن جوارهـا العـربي، ولا يمكـن أن تكـون أسـوأ ولا أفضـل؛ فهـي كـما يقـول عنهـا: "مـن وجهـة نظـر الأمـير عبداللـه كان مؤمنًـا بالنهضـة العربيـة لهـذا أسـماها الـشرق العـربي، أمّـا مـن وجهـة نظـر بريطانيـا فهـي تهـدف لخلـق دولـة لاسـتيعاب مـا يهجّـر مـن الفلسـطينيين لبنـاء الدولـة اليهوديـة، لـذا فقـد اسـتثنى الإنجليـز الأردن مـن وعـد بلفـور".

ولـه أيضًـا نظرتـه في الحركـة التـي قادهـا الشريـف الحسـين بـن عـلي التي تسـتند لها الدولـة الأردنيّـة، فقد أكَّـد أنَّهـا نهضـة وليسـت ثـورة، فهو كـما يقـول: "تألَّمت كثـيرًا لأنَّ رئيـس وزراء غَـيَّر الاسـم الجميـل وسـمّاه عيـد الثـورة العربيـة الكـبرى وقَرَنـه بعيـد الجيـش... وهـذا مـا أراه أمـرًا غـير مقبـول لم يكـن لـيرضى عنـه الشريـف حسـين والملـك المؤسـس عبداللـه الأوَّل الذي جعل وسـام النهضـة أرفـع وسـام... وقدمـت احتجاجـات سـنوية إلى جلالـة الملـك الحسـين عـلى هـذا الإخـلال الكبـير بالواجـب. وتشرَّفـت بمقابلـة الملـك المرحـوم بحضـور الرئيـس الـذي شـوّه الذكـرى الجميلـة. وقلـتُ لـه: إنَّ الجيـش لا يحتفـل بالثـورات لأنـه وُجـد لمنعهـا وسـحقها إنْ حدثـت". ومـن الطريـف قولـه لرئيـس الـوزراء زيـد الرفاعـي حـول إسـقاط حـرف The مـن اسـم المملكـة عـام 1952م مـن قِبَـل السـفير البريطـاني "كركبرايـد" واللـورد "هاردنـج" إنـه كان لـه هـدف شـيطاني، فقـد قـال للرفاعـي: "إنَّ الحـرف يـدلّ عـلى أنَّ المملكـة هـي مملكـة حـوض نهـر الأردن؛ فـإذا حذفنـا The أصبحـت مملكـة الأردن غـير مرتبطـة بالنهـر، وكنـتُ مطلعًـا عـلى الوثائـق السريّـة حـول الأمـر".

مشروع "إنارات فريدة"

"إنارات فريدة" هي نتاج عمل حياة شيخنا على مرّ السنوات، تلك الطريقة الفريدة التي بدأها في بيروت منتصف الأربعينات، في كيفيّة ترتيب وتنظيم المادة التاريخية التي يجمعها، وقد نظّمها بداية على بطاقات للمراجع والأحداث، ثمّ سرعان ما بدأت بالنمو والتكدُّس لتصبح مشكلة وتحتاج إلى مجهود لإعادة ترتيبها. وفي لندن سرعان ما تكيَّف مع عصر البطاقات والتقنين، حيث يذكر حول ذلك: "قابلتُ الأستاذ المشرف في معهد الآثار وكلية الدراسات الشرقية -المستشرق المعروف "برنارد لويس"- وأعجب أستاذ التاريخ في الكلية ببطاقتي ولامني لأنَّ اسمه لم يكن في البطاقات. ونصحني بتغيير الأسلوب واتِّباع نظام الملفّات ذات الأوراق المتحركة على أربعة ثقوب...".

كان لي الشرف -حين كنتُ طالبًا عنده- بالاطلاع على طريقته المبدعة، فقد كانت عادته أنه يدعو طلبته إلى بيته في نهاية الفصل الدراسي ليطلعهم على طريقته في الكتابة وجمع المادة؛ حيث كانت الدهشة تعلو وجوهنا جميعًا عندما دخلنا البيت الذي هو عبارة عن مكتبة تجمع كل ما هو نفيس من أمهات الكتب والوثائق، كان البيت كبيرًا لدرجة أننا لم نهتدِ لغرفة الضيوف، حيث قال: "الأماكن التي يمكن استخدامها فقط غرفة الضيوف الواسعة، وغرفة النوم والباقي كما رأيتم مكتبة...". في الجولة القصيرة اطَّلعنا على طريقته في البطاقات التي أرانا فيها كشّاف الموضوعات والفهارس بداية وكلها بخط يده. حيث سحب لنا أحد الملفّات الكبيرة حول تاريخ الحكومات الأردنية المتعاقبة بتاريخ كل حكومة وشخوصها وكتاب التكليف وملاحظاته عن كل اسم فيها وسيرة مختصرة عن كل واحد فيهم. وهكذا باقي البطاقات والملفات.

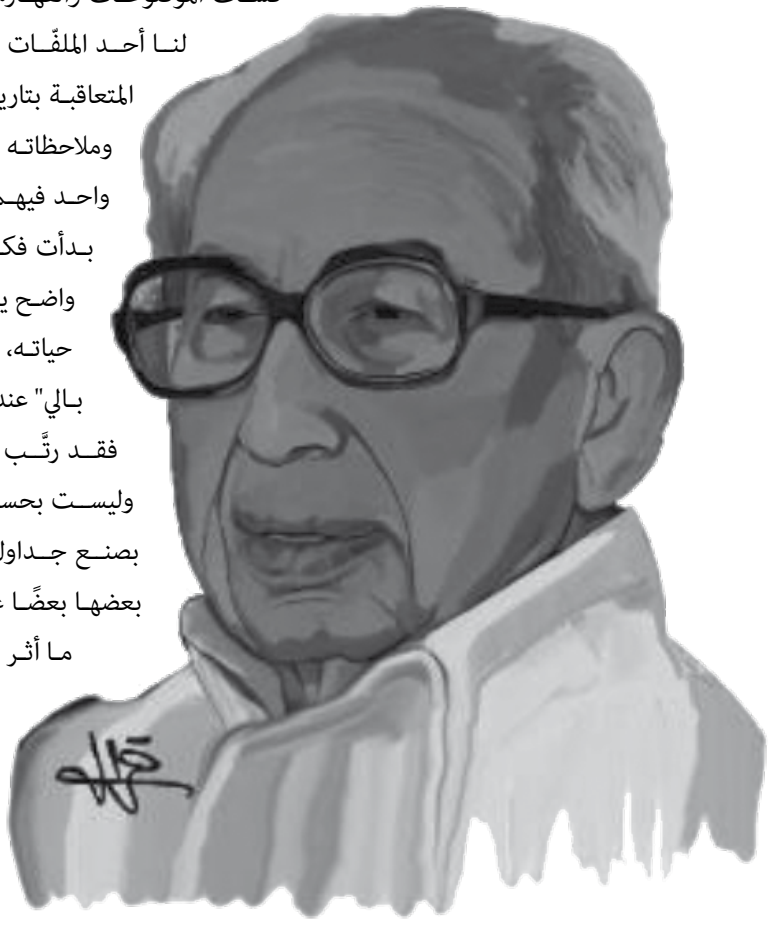

بدأت فكرة "إنارات فريدة" في سنة 2011م، بهدف واضح يتمثل في أن لا يضيع ما جمعه عبر سنوات حياته، وأن لا يصبح كصندوق العرس "ينباع خلق بالي" عندما تمضي السنين كما يقول مظفر النواب، فقد رتَّب بطاقاته وملفّاته بطريقة غير تقليدية وليست بحسب الموضوع أو الجهة أو المؤلف، وإنَّما بصنع جداول للأحداث تُظهر ترابطها واتِّساقها مع بعضها بعضًا على الرغم من اختلاف مواضيعها، فمثلًا: ما أثر حطين على الأحداث في الأندلس؟ وتوضيح

الفـرق والارتبـاط بـين الحـروب الصليبيـة في الأندلـس وبـلاد الشـام. وبيـان أثـر نضـوب مناجـم الذهـب في وادي العـلالي عـلى إنهـاء دولـة المماليـك، وجعـل الشـام ومـصر ولايتـين عثمانيتـين.

ضمـن هـذه الرُّؤيـة تقـدَّم الغرايبـة لإدارة الجامعـة الأردنيـة -متبرعًـا بـكل تعبـه مجانًـا وبحـب- بمشروعـه "إنـارات فريـدة"، حيـث ناقشـه مجلـس العمـداء في الجامعـة، وفي الوقـت نفسـه حـاول الحصـول عـلى تمويـل مـن القطـاع الخـاص كي لا يحمِّـل الجامعـة كامـل النفقـات، وبالفعـل اتَّفقـت مؤسسـة عبدالحميـد شـومان والجامعـة عـلى إنجـاز المـشروع بحيـث تدفـع مؤسسـة شـومان ثلـث النفقـات، وبـدأ العمـل بالمـشروع ولكنـه توقـف، وكـما يقـول غرايبـة: "لكـن عجلـة التغيـير والتخريـب أطاحـت بالرئيـس وتوقـف اهتـمام الجامعـة". حيـث تقـدَّم الغرايبـة باسـتقالة قُبلـت بشـكل سريـع؛ فخـرج غاضبًـا أسِـفًا باحثًـا عـن أمـل جديـد. فـكان الاحتضـان مـن قبـل الجامعـة الإسـلامية ورئيسـها عبدالنـاصر أبـو البصـل الـذي تعـاون مـع ثابت الطاهـر عـلى اسـتكمال المـشروع؛ حيـث يقـول غرايبـة: "مـن واجبـي أن أشـكر الصديقـين لأنهـما أحييـا آمـالي".

هـذا المـشروع مـا زال مـادة خـام تصلـح للتصنيـع وإعـادة التشـكيل؛ فالمـشروع وإن تحقَّـق لم يكـن كـما أراده الغرايبـة لأنَّ المنيّـة لم تسـعفه لإكـمال مـا بـدأه بتلـك الرُّؤيـة التـي أرادهـا، والأمـل معقـود عـلى طلبـة الدراسـات العليـا في الجامعـات الأردنيـة وبخاصـة في الجامعـة الإسـلامية لإخراجـه بأفـكار جديـدة وقوالـب حديثـة.

المصادر والمراجع:

- ندوة عبدالحميد شومان: "الشيخ عبدالكريم غرايبة مؤرخًا، ومعلمًا، وإنسانًا". مراجعة وتقديم: عبدالعزيز الدوري، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006.
- رؤوف أبوجابر، عبدالكريم غرايبة: سيرة حياة حافلة، عمّان، الجامعة الأردنية، 1988.
- عبدالمجيد الشناق، ذاكرة وطن: عبدالكريم غرايبة مؤرخًا عربيًّا، عمّان، منشورات الجامعة الإسلامية، 2014.
- مقالات ومقابلات للدكتور عبدالكريم غرايبة منشورة في الصحافة الأردنية في مناسبات مختلفة.

علي محافظة * هند أبوالشعر * نوفان السوارية
صُوَرٌ عن قُرب

د. عبدالله مطلق العساف*

أولئـك أسـاتذتي؛ التاريـخ حقلهـم التخصُّـصي الأكاديمـي، لكـنَّ مسـيرتهم الأكاديميّـة والفكريّـة الحافلـة، وجهودهـم المعرفيّـة والبحثيّـة والتأليفيّـة، جعلـت كلًّا منهـم قامـة علميّـة فريـدة، فالدكتـور محافظـة مـؤرِّخ ومفكِّـر شـموليٌّ، يـرى في التاريـخ بطاقـة الدُّخـول الإجباريّـة إلى حقـول الفكـر والمعرفـة وشـؤون الثقافـة الأخـرى. أمّـا الدكتـورة هنـد فقـد أرسَـتْ لونًـا مـن التقاليـد البحثيّـة التاريخيّـة الأصيلـة، قـد ترقـى إلى مسـتوى المدرسـة التاريخيّـة، لا سـيّما في الدراسـات المتعلقـة بـالأردن. وكان المرحـوم الدكتـور نوفـان أكاديميًّـا ملتزمًـا، وباحثًـا أصيـلًا وجـادًّا، عمـل بـدأب لا مثيـل لـه عـلى دراسـة السـجلّات والوثائـق ونشرهـا، فـكان لـه في هـذا المضـمار إنتـاج علمـي وفيـر، قـد لا يدانيـه فيـه أحـد. وأضـاء فيـه جـزءًا مهـمًّا مـن التاريـخ الأردني، وأخرجـه مـن عتمـة المخـازن والسـجلّات المركونـة، وأتاحـه للباحثـين والمؤرّخـين والمثقفـين عامـة.

الأستاذ الدكتور علي محافظة

الكتابـة عـن الأسـتاذ الدكتـور عـلي محافظـة والحديـث عـن سـيرته الشـخصية، ومسـيرته الأكاديميـة والفكريـة وغيرهـا، أمـرٌ ذو شـجون. يجـرّك بـين مسـافتي إغـواء الإسـهاب، والاسترسـال في الإطنـاب، لا لغـرض مقصـود في المـدح والثنـاء، وهـو مـن قبـل ومـن بعـد جديـر بهـما، ويليـق شـخصه الكبـير بهـما، لكـن لأنَّ الأسـتاذ المعلّـم إنسـان ذو تاريـخ حافـل بالعطـاء أوّلًا، ثـم هـو مـن بعـد مـؤرخ ومفكـر وأكاديمـي وإداري، وجميعهـا مزايـا حصـد فيهـا مـن الخـبرات الكبـيرة اللافتـة مـن المعرفـة وجليـل العلـم وثاقـب الرُّؤيـة وحنكـة المؤسسـة والإدارة، فضـلًا عـن سـجايا الإنسـان الحـق. وأسـبغت عـلى شـخصيّته مناقبيّـة مُـبرّأة مـن العيـب، وترقـى إلى الفضائـل العليـا. فـكان بهـذا وذاك قامـة علميّـة فريـدة.

وهـو وإن تسـمَّى مؤرِّخًـا امتهـن التاريـخ وانتسـب إليـه، فصـار حقلـه التخصُّـصي الأكاديمـي، إلّا أنـه تجـاوز هـذا إلى معنـى المفكـر العـروبي، بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى. فنحـن نجـده قـد اسـتنهض طاقتـه المعرفيـة والبحثيـة والتأليفيـة في ميادين شـتى وحقـولٍ متنوّعـة المشـارب، إلى أن صيّرتـه مفكـرًا أصيـلًا، نقديًّـا وشـموليًّا. وإنَّ الناظـر نظـرة دقيقـة وفاحصـة في بطـون كتاباتـه وأوراقـه البحثيـة وغـير البحثيـة، وفي صميـم آرائـهِ واجتهاداتـه، تؤكـد مـا ذهبنـا إليـه مـن وصفـه بالمفكـر الشـمولي، فهـو اسـتثنائي بمعنـىً مـن المعـاني.

مـا مـن شـك أنَّ زخـم الأحـداث وتعاقبهـا عـلى الأمـة العربيـة منـذ أكـثر مـن سـبعة عقـود، وهـي مـن بعـد أحـداث عاصفـة مُزلزلـة، وبعضهـا مصـيري بالنسـبة للإنسـان والكيـان، لهـا أثـر جـليّ في إنـزال الأسـتاذ محافظـة منزلـة ثقيلـة بوصفـه مؤرِّخًـا أوّلًا، ومهمومًـا بوطنيّتـه وعروبتـه ثانيًـا أمـام مسـؤولية كـبرى

* باحث وأكاديمي أردني
dr.abdullah.alassaf@gmail.com

استشعرها وسكنت فؤاده كمثقف ملتزم، فأحسَّ بأنَّ التاريخ، مع أنه يُعتبر الوعاء الحاوي لكل هذه الأحداث، والمعبِّر الرئيس عن أفكار مَن صاغوها وشاركوا فيها، منارةٌ أو بطاقة الدُّخول الإجباريّة إلى حقول الفكر والمعرفة وشؤون الثقافة الأخرى، لأنَّ المفكر بهذا المعنى هو مَن يضطلع بمهمّة تحليل الواقع واستقراء المستقبل، والمتطلِّع دائمًا إلى وضع العلاج الناجع لأوجاع الأمة وأمراضها، وزارع مادّة البعث الجديد لحياتها، فكان أستاذنا على هذا المستوى مفكرًا تنويريًا نقديًا، ملتزمًا برسالته التي آمن بها. كيف لا وقد سبق وأن تشكّل وعيه في مرحلة مفصليّة من تاريخ الحركة العربيّة وهي عقد الأربعينات والخمسينات، أي مرحلة الثورة والمطالبة بالاستقلال والتحرير، ثم هو من بعد عاصر في نضجه الفكري أزمات الأوطان والإنسان في دنيا العرب والعروبة ولا يزال.

عند استنطاق حروف كلماته وندواته وكتاباته ومحاضراته الممتدة زمنًا ومدى ثقافيًا طويلًا، نكتشف عمق الإيمان لديه بالمستقبل الأفضل للأمة، فلم يكن من هذه الناحية يائسًا أو سوداويًّا، بل إنّنا نلمس ونكتشف في أفكاره وتحليلاته طمأنينة بالمستقبل، لأنه يثق بتاريخ هذه الأمة، ونحن من جهتنا نثق بتحليلاته.

قد يبدو د.محافظة -بنظر بعضهم- في تعبيره عن آرائه وقناعاته، غير مُهادن ولا مُوارب، وربّما كان صادمًا في صراحته ونقده، ومن أنه يثير الشكوك ويزرع الألغام الفكريّة، لكنها جميعًا صفات ضروريّة للمفكر النقدي، ما دام أنه اصطنع لنفسه طريقَ أو موقف الأمين على الأفكار والتاريخ والواقع والمستقبل، فاحتسب ذلك من قبيل الموضوعية والمنهج العلمي الصواب. ذلك لأنَّ دور المؤرِّخ والمفكر أنْ ينفضَ

الغبار عن الأشياء، ويفتح الأضابير المختومة لتهويتها، وإعادة النظر في أحداثها وأشخاصها وأفكارها، ولا يكتفي بالوصف والسرد القصصي، بل هو يستقرئ فيها الماضي والحاضر والمستقبل، ويجترح منها الحلول ويستنبط الأفكار الجديدة، نحو النُّهوض والتقدُّم.

لعلّ الناظر في كتابات الدكتور محافظة، والمتابع لنشاطاته البحثية والفكرية وإسهاماته الثقافية يلمس عمق شعوره بأنَّ الشعوب العربية تعيش اليوم أزمة حضارية عامة، ما يستدعي الحاجة إلى طلب نهضة شاملة، تعزّزها إرادة مُخلصة للإصلاح والتغيير، بهدي من استنارة العقل. ومن هنا يكون دور المفكر في تجاوز هذه الأزمة.

ساهم الدكتور محافظة في إغناء الكتابات التاريخية وتلك الخاصة بالفكر القومي، وإنزاله على أرضية ثقافية وتاريخية مُستقاة من وجع الواقع العربي. وهو اليوم لا يزال يركب الصّعب من الأفكار. يواصل طرح أفكاره بتأنٍّ ودقة وتمحيص وموضوعية، وفوق هذا وذاك بصراحة معهودة فيه، غير ملتبسة بلباس الإثارة والشعبوية، خاض في بطون الماضي لكنه لم يسجن نفسه فيه وفي أفكاره، بل نراه دائمًا يتطلَّع إلى المستقبل نُشدانًا لبعث مجدّد نحو بناء مجتمع عربي ناهض متكامل.

تمثَّلت السيرة الشخصية للدكتور محافظة بمحطات عديدة واسعة، تضيق بها الصفحات القليلة، فقد سبق له وأن وضع رحاله في مواقع عديدة، مُؤسّسًا منابر علم ومعرفة، ما يجعله رجل تأسيس بامتياز، جمع أثناءها بين الكفاءة العلمية العالية والنشاط البحثي والتأليفي داخل أسوار الجامعة وخارجها، فضلًا عن عضويّته ونشاطه في هيئات فكرية في الأردن والعالم العربي، فأصاب نجاحًا لافتًا في هذه الميادين، وكان مبرزًا وريادياً في أكثرها، وترفّع فيها فوق كل الاستقطابات الضيّقة، فرسم شخصية مستقلة. وهو وإن كان لا يرسم خطوطًا حمراء تحجّم تفكيره، إلّا أنه ليس بصاحب نزعة راديكالية، كونه يؤمن بالتغيير التراكمي والإصلاح الرّشيد. يقول: "لن تنصلح أحوالنا إلّا إذا قرأنا تاريخنا المعاصر وإخفاقاتنا بمنهج علمي صارم ونستخلص العِبَر بأمانة وجرأة".

يُسجَّل للدكتور محافظة اقتداره على خيارات التنوُّع في الكتابة بين الوطني والعربي والقضايا الفكرية النهضوية، فهو لم يضِق بالجغرافيا الطبيعية، مثلما لم تضِق به جغرافيا الفكر والثقافة. فقد جاس في هذه الديار وارتاد مسالكها وقضاياها.

قال فيه مسعود ضاهر في حفل تكريمه: "علي محافظة قومي محموم لا يُساوم... رافع الرّاية عاليًا بعد أن تخلّى عنها كثير من دُعاة الفكر القومي... تبنّى على غرار قسطنطين زريق والدوري العروبة الحضاريّة، أو العروبة الثقافيّة... برع في رسم مسيرة الفكر القومي العربي في مرحلتي صعوده وانحداره، وحلّل في كثير من دارساته بصورة نقديّة لتاريخهم الثقافي... إنسانيّ النزعة وعميق الانتماء للعروبة، وقد طرح بتفاؤل تاريخي حول قدرة العرب على التوحُّد كمسار حتمي لا غنى عنه".

وُلد أستاذنا محافظة في بلدة كفر جايز التابعة لمحافظة إربد في شمال الأردن في 15 آذار 1938م. وعاش فترة من حياته فيها، بين أسرته الفلّاحية، التي

تتَّسم مثلها مثل بقية الأسر القروية آنذاك بالكدح والفلاحة وشظف العيش. التحق بكُتّاب القرية في سن السادسة وأمضى فيه سنة كاملة، حيث تعلّم القراءة والكتابة والحساب، وحفظ عدّة أجزاء من القرآن الكريم بالإضافة إلى الأناشيد والأشعار. ثم ما لبث أن التحق بالمدرسة الابتدائية في قرية "سما" المجاورة لبلدة كفر جايز، حيث أمضى خمس سنوات، وبعد اجتيازه امتحان الدراسة الابتدائية بتفوُّق التحق بمدرسة إربد الثانوية، وحصل فيها على شهادة الثانوية العامة عام 1955م، وكان ترتيبه الثاني في لواء إربد الذي ضمَّ آنذاك أربع محافظات هي إربد وعجلون وجرش والمفرق.

أُرسل في بعثة أكاديمية على نفقة وزارة المعارف إلى جامعة دمشق (الجامعة السورية آنذاك)، وفيها حصل على الإجازة في الآداب- قسم التاريخ سنة 1959م، كما حصل على الدبلوم العام في التربية من الجامعة نفسها عام 1960م. عمل بعدها معلمًا في وزارة التربية والتعليم. وفي عام 1962م قرَّرت الحكومة إصلاح وزارة الخارجيّة باستغلال طاقات الشباب الجامعية، فعُيّن في وزارة الخارجية متنقلًا بين سفاراتها (بون، وتونس، والجزائر، وباريس). التحق بجامعة "السوربون" الثالثة وحصل فيها على دكتوراه الحلقة الثالثة في الدارسات الإسلامية عام 1971م، ثم دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة "السوربون" الأولى بباريس عام 1980م.

دخل الدكتور محافظة سلك التعليم الجامعي بعد تعيينه في الجامعة الأردنية، وظلَّ حتى عام 1982 لينتقل بعدها لتأسيس جامعة مؤتة، التي شغل فيها موقع نائب الرئيس بين عامي 1984-81م، فرئيسها منذ عام 1989م، ثم انتقل بعدها رئيسًا لجامعة اليرموك، ليعود مرّة أخرى إلى عرينه أستاذًا للتاريخ في الجامعة الأردنية، حتى بلوغه سن التقاعد. وهو اليوم يحمل لقب "أستاذ شرف" في الجامعة الأردنية، ولا يزال -كعهد الجميع به- ينشط في شتى الحقول وفي مختلف المستويات؛ تدريسًا وإشرافًا على طلبة الدراسات العليا، فضلًا عن نشاطاته الأخرى في التأليف والمحاضرات والندوات.

هند أبو الشعر الإنسانة والباحثة المتميِّزة

مسيرة تجربة بحثيّة مُشتركة(*)

إنَّ عهدي ومعرفتي بالأستاذة الدكتورة هند أبوالشعر تعود إلى سنوات، كنتُ أحرص قبلها على متابعة أنشطتها البحثيّة وإصداراتها من الدراسات المتخصصة بتاريخ الأردن من جميع مناحيه ومجالاته، كما وأغبطها على هذا الجهد الدؤوب الذي يعزّ نظيره اليوم، وَخِلْتُ كما لو أنَّها بحقّ قد نذرَت نفسها لتاريخ وطنها، إنسانًا وجغرافيا على امتداد مساحة تواجدهما معًا في المدن والبوادي والأرياف، وفي كل مكان سطّر فيه الأردنيون حضورهم وانتماءهم، وكان من نتائج هذا الجهد كثرة كاثرة من الدراسات والأبحاث والكتب والندوات والمؤتمرات التي قامت بها أستاذتنا الفاضلة، وهي لا تزال بالنشاط والجهد والإيمان ذاته تتطلع إلى المزيد والمزيد، لا تَثْبُط لها همّة أو تفتر، فهي الإنسانة المؤمنة على رسوخ من الوعي التاريخي أنَّ الوطن الأردني يُعتبر كنزًا تاريخيًّا في الماضي والحاضر، وأنَّ هذا التاريخ لا يزال بحاجة

إلى أن نبحث عن مصادره ووثائقِه ونفتِّش عن رُواته ورواياته، وأن نُشبِعَه نقدًا وتوثيقًا ونشرًا لأنه يُجسِّد حضور الإنسان الأردني في الماضي والحاضر، في عيشه اليومي، ونشاطه الحضوري على هذه الأرض.

منذ حوالي عقدين من الزمن بدأ اهتمامي بتاريخ الأردن والدراسات التي تخصّ هذا التاريخ، لا سيما التاريخ المتعلق بالراوية الشفوية أو ما يُعرف بالتاريخ الشفوي، وهو حقل ثري جدًا بالمعلومات اللازمة للدراسات التاريخية.

وانطلاقًا من مدى ثقتي باحترافيّة وأكاديميّة أستاذتنا وخبرتها الطويلة، تشرَّفتُ في التعاون معها والتشارك في أعمال ودراسات تاريخية مشتركة، وقد أثمر هذا التعاون عن عدد من الإصدارات والكتب، ولا يزال عهدنا في هذا التعاون قائمًا، ونأمل أن يثمر الكثير من الدراسات.

لقد تشرَّفتُ، فوق ما سعدتُ، بالعمل مع الباحثة الأكاديمية المؤرخة الجادّة والملتزمة بحدود الصرامة المنهجية الأستاذة الدكتورة هند أبوالشعر في بعض الأعمال البحثيّة التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على خبرتي في الكتابة التاريخية. وأشعر أنني مَدِينٌ لها بحق قبل وأثناء فترة عملي معها بجُلِّ ما استفدتُه واكتسبتُه من جوانب معرفيّة ومنهجيّة أنارت أمامي الكثير من الدروب الصعبة والشائكة في نطاق البحث التاريخي.

كان يقيني الهادي يذكِّرني دائمًا بنموذجها المبدع، فأستلهم مثابرتها البحثيّة وجهودها الأكاديميّة المستمرّة، إلى أن صنَعَتْ عندي دافعًا قويًّا ورغبة أكيدة لأن أحذو حذوها، وأختطّ طريقها ونموذجها بخصوص دراساتي في تاريخ الأردن. ولا عجب، فإنَّ الدكتورة هند لم تقتصر جهودها في هذا الكمّ الوافر من الدراسات والكتب والأنشطة المتعددة، بل إنَّ ما قامت به طوال مسيرتها أجزم أنه أرسى لونًا من التقاليد البحثية التاريخية الأصيلة، قد ترقى إلى مستوى المدرسة التاريخية، لا سيما في الدراسات المتعلقة بالأردن، وهذا شيء غير منكور وغير مُستغرب خصوصًا لشخص مثلي عرف الدكتورة هند من قرب وعن كثب، واطَّلع على مقدار الشَّغف عندها في تأصيل الدراسات التاريخية، ونقدها

وتمحيصها، وتسجيلها بكل أمانة وموضوعيّة، وبحسٍّ تاريخي ومنهجي راكز وثابت، لأنها تستشعر دائمًا أنَّ مسؤولية المؤرخ، مسؤولية لا تدانيها مسؤولية، فهو المؤتمن على وعي الأمة والمجتمع، وذاكرة الشعب ووجدانه، وعن حضور الأوطان في هذا التاريخ. ما يستوجب الأمانة والموضوعية والحرص على تسجيل الحقيقة التي سوف تنتقل للأجيال القادمة.

كانت الدكتور هند وأثناء عملنا المشترك تحرص دائمًا على تشجيعي، فضلًا عن تفضُّلها بقراءة دراساتي البحثيّة، ولا أنسى فضلها وقيمة ملحوظاتها الذكيّة الدقيقة التي طالما أفدتُ منها، وجنَّبتني الكثير من العيوب المنهجيّة وغير المنهجيّة. ولذا فإنَّني إذْ أسجِّل شكري للدكتورة واعتزازي بهذه التجربة البحثية معها، أعترف بأنَّها تجربة أكثر من غنيّة وأزْيَد من الفائدة والخبرة التي حصلت عليهما، وأنا أحرص كثيرًا على مواصلة التعاون معها في الأعمال البحثية التاريخية، نحو مزيد من الدراسات التي تؤرِّخ للأردن مكانًا وإنسانًا، وفي كل جغرافيا حضور الإنسان الأردني ماضيًا وحاضرًا على أرض هذا الوطن.

***

أستطيع الجزم أنَّ تجربتنا مع السجلّات البلديّة كانت أكثر من غنيّة وممتعة ومثمرة في الوقت ذاته، وكان حرصنا دائمًا -ونحن نؤرِّخ للمناطق والمدن التي درسنا وثائقها- أن نستعينَ بأقدم السجلّات الخاصة بالمجالس البلديّة، التي تحتوي على معلومات غنيّة ومتنوِّعة تفيد الدراسات التاريخيّة فائدة عظيمة.

فقد اشتملت هذه السجلّات على تدوينٍ وافٍ وتفصيليّ لنشوء المرافق والمؤسسات، وأنشطة الخدمات المختلفة، ومعلومات تخصُّ أهاليها وقاطنيها، فضلًا عن مراحل نشوء الحكم المحلّي فيها وتطوُّره، ولذا فقد حرصنا على تضمين الدراسات والكتب قراءة تفصيلية وافية تخص البدايات الأولى لنشأة القرى والبلديات والمراكز الحضرية الأُخرى، كوحدات إدارية للحكم الإداري والأهلي.

كما كنّا نُضمِّن هذه الدراسات بكثير من الصور التاريخية النادرة والجميلة التي تخص هذه المدن والقرى، وتعكس بطبيعة الحال مظاهر الحياة المختلفة فيها، فضلًا عن أنماط العيش والعمران.

***

لقد أثمرت شراكتي البحثيّة مع الأستاذة الدكتورة هند عن حصادٍ جيد كان حصيلة جهود كبيرة لكلينا، وتمثّل في عدد من الإصدارات المنشورة في كتب، وقد كان الإصدار الأوَّل لنا من سجلّات البلديات بعنوان "مادبا الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل ومقررات بلديّة مادبا"، ويُعدُّ السجلّ البلدي المعتمد للتحقيق والدراسة في هذا الكتاب أقدم سجلّ لمقررات بلديّة مادبا والذي يعود تاريخه إلى عام 1923م حتى عام 1927م، وقامت وزارة الثقافة مشكورة بنشر الكتاب ضمن إصداراتها لمدينة مادبا مدينة للثقافة الأردنية لعام 2012م، ومن خلال مقرّرات ومحاضر المجلس البلدي يمكن للقارئ في هذا الكتاب أن يتعرَّف إلى ممارسات الحكم المحلي في بدايات عهد إمارة شرقي الأردن، والملامح الاجتماعية والاقتصادية لبلدة مادبا في تلك الفترة.

وأمّا الإصدار الثاني المشترك بيننا، فجاء في كتاب "الزرقاء النشأة والتطوُّر 1903-1935"، وتمَّ رصد نشأة قرية الزرقاء وتطوُّرها، وتحوُّلها إلى بلديّة بتأسيس أوَّل مجلس بلدي فيها. وتناولنا فيه الملامح

الاقتصاديـة والاجتماعيـة مـن خـلال سـجلّات مقـرّرات أوَّل مجلـس بلـدي للمدينـة، وألحـق بالكتـاب ملـف مُصـوّر. وقـد صـدر هـذا الكتـاب ضمـن سلسـلة كتـاب الشـهر، التـي تصـدر عـن وزارة الثقافـة، كتـاب رقـم "174"، للعـام 2014.

وجـاء الإصـدار المشـترك الثالـث بيننـا، بعنـوان "معـان المظاهـر الاجتماعيـة والاقتصاديـة مـن خـلال سـجلّ مقـرّرات مجلـس البلديـة 1931-1929م، وتضمَّن دارسـة وتحقيـق لأقـدم سـجلّات بلديّـة معـان، فضـلًا عـن تضمينـه ملـف صـور لبلـدة معـان ورجالاتهـا. وتكمـن أهميّـة هـذا الكتـاب والـذي صـدر ضمـن منشـورات البنـك الأهـلي لعـام 2016م مـن جهـة رصـده لمرحلـة انتقـال معـان مـن حـدود مملكـة الحجـاز إلى أراضي إمـارة شرقـي الأردن عـام 1925.

إنَّ مـا يجـدر ذكـره هنـا أنَّ عملنـا البحثـي المشـترك مُسـتمر إلى اليـوم بِخُطَـىً حثيثـة، ونأمـل بحـول اللـه وتوفيقـه أن يُتـوّج هـذا الجهـد بإصدارين قريبـين، أولهما عـن مدينـة عجلـون الملامـح الاجتماعيـة والاقتصاديـة مـن خـلال سـجلّات عقـود الـزواج، وثانيهـما، دراسـة عـن الثـورة العربيـة مـن خـلال الصحافـة العربيـة في الداخـل والمهجـر، مُؤمـلًا أن تزدهـر المسـيرة البحثيـة المشـتركة وتسـتمر في قـادم الأيـام.

***

وختامًـا، لا بُـدّ لي مـن إزجـاء الشـكر والعرفـان للدكتـورة هنـد، عـلى كل مـا أبدتـه وتبديـه مـن لطـف وتعـاون وسـخاء معـرفي ومنهجـي، والشـكر الموفـور لهـا عـلى تحمُّلهـا للجهـد العظيـم أثنـاء إعـداد الدراسـات وتدقيقهـا للسـجلّات والوثائـق لمـرّات عديـدة، بعـين فاحصـة وحـسٍّ بحثـيّ عـالي المسـؤولية، ولا يفوتنـي أن أذكـر أسـتاذتنا في جانبهـا الإنسـاني وشـخصها النـادر، ومـا تتمتَّـع بـه مـن مناقبيّـة أكاديميّـة وأخلاقيّـة ووطنيّـة وإنسـانيّة وخلـق علمـي قلّـما نجـد نظيره اليـوم. فـكل التقديـر والاحـترام والـودّ للأسـتاذة الدكتـورة هنـد أبوالشـعر عـلى مـا قدَّمتـه وتقدِّمـه في مجـال الدراسـات التاريخيّـة.

تجربتي البحثيّة

مع أستاذي الدكتور نوفان السوارية

تعرَّفـتُ إلى أسـتاذي المرحـوم الأسـتاذ الدكتـور نوفـان السـوارية في وقـت كان يعمـل فيـه في قسـم الوثائـق والمخطوطـات التابـع لمكتبـة الجامعـة الأردنيـة وذلـك عـام 1994، وكنـتُ حينهـا أحـد طلبـة قسـم التاريـخ في الجامعـة، فقـد اصطحبَنـا الدكتـور فالـح حسـين، الـذي كان يدرِّسـنا مـادة البحـث التاريخـي، إلى مركـز الوثائـق للتعـرُّف عـلى محتوياتـه، وهنـاك حدَّثنـا الدكتـور نوفـان السـوارية عـن محتويـات المركـز، كـما أطْلَعَنـا عـلى عـدّة مخطوطـات وسـجلّات نفيسـة وحدَّثنـا عـن محتوياتهـا، وكان يُظهـر حرصًـا شـديدًا في التَّعامـل معهـا.

قمتُ بعد ذلك بتسجيل مادّة "تاريخ الأردن" مع الدكتور نوفان السوارية، وأحسستُ عندما كان يحاضر فينا أنَّ حديثه في المحاضرات كان معبِّرًا عن مدى عمق الانتماء والحب عنده لهذا الوطن الأردني. وقد أبدى خلال محاضراته مناقبيّة شخصيّة غاية في اللُّطف والطيبة والدّماثة في الأخلاق، برز ذلك من خلال تعامله الدافئ والودود مع طلبته.

كنتُ في السنة الأولى من دراستي في الجامعة الأردنية شابًا متقدًا حماسةً ونشاطًا، وصادف حينها أنْ كان المرحوم الدكتور نوفان والدكتورة غيداء خزنة كاتبي يعملان على تنشيط وتحفيز طلبة قسم التاريخ، ويسعيان إلى إشراكهم في نشاطات مختلفة، فكان أنْ قاما بتشكيل لجنة ثقافيّة لطلبة قسم التاريخ من قِبَل الطلبة تكون معنيّة بالنشاطات المختلفة لطلبة القسم، وأن تكون في الوقت نفسه حلقة اتِّصال بين الطلبة والأساتذة أعضاء الهيئة التدريسيّة، وتعمل على تفعيل الندوات وإصدار مجلة حائط، والنشرات لا سيما نشرة "اقرأ"، هذا فضلًا عن نشاطات تعنى بالرحلات والاحتفالات بالمناسبات المختلفة.

وكانت اللجنة تُشكَّل بطريق الانتخاب، ويعنى بها إشرافيًّا الدكتور نوفان والدكتورة غيداء. ولمّا كنتُ أحد الطلبة الذين فازوا بعضويّة هذه اللجنة "رئيسًا"، فقد أتيحت لي الفرصة للتقرُّب أكثر من أستاذي المرحوم الدكتور نوفان الذي حفَّزني إلى دراسة تاريخ الأردن في مرحلة الماجستير، فقد كان يقول: إنَّ التخصُّص في تاريخ الأردن يُعدُّ حقلًا بكرًا في البحث، فالتاريخ الأردني لم يُبحث بعد، فثمّة موضوعات كثيرة فيه يستلزم بحثها ودراستها.

عند انتهائي من دراسة مرحلة البكالويوس في التاريخ، التحقتُ ببرنامج الماجستير في الجامعة الأردنية، وكنتُ حينها عازمًا على الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنيّة الأردنيّة من خلال الشخصيّات الوطنيّة التي كانت لها بصمات واضحة في تاريخ الأردن المعاصر. وشعرتُ حينها أنَّ التوجُّه العام في القسم هو تحاشي الكتابة في بعض الموضوعات الوطنيّة التي تُعدُّ حسّاسة، خاصّة ما يتعلق منها بالسلطة والنظام، علمًا بأنَّ الشخصية الوطنيّة التي كنتُ أرغب في الكتابة عنها كانت شخصيّة معارضة لسياسة نظام الحكم. وبالفعل قمتُ -على الرغم من عدم رغبة القسم آنذاك- بتسجيل الموضوع وإقرار الخطّة، وذلك أمام إصراري على البحث والكتابة في هذا الموضوع الذي يُعدّ (تابو) محرَّمات آنذاك في الدراسة الأكاديميّة. ووافق القسم على تسمية مشرف لي، والذي وافق بدوره على الموضوع، لكنَّني لمستُ منه الحذر الشديد، وبالفعل وبعد مضيّ سنة تقريبًا على البدء في البحث، بدأت المشكلة عند إصرار المشرف على تغيير عنوان الرِّسالة، لكنَّني بقيتُ على موقفي الرافض لذلك، لقناعتي أنَّ مثل هذا الموضوع في التاريخ المعاصر للأردن جدير بأن يُطرق ويُبحث بموضوعيّة وأمانة علميّة وأكاديميّة، وأنَّ الإنسان الأردني من حقّه أن يعرف تاريخ وطنه من جميع الجوانب.

أخيرًا، تمَّ استبدال المشرف لرفضِه المُواصلة، وكان البديل هو أستاذي المرحوم الدكتور نوفان، وكنتُ أوَّل طالب يشرف عليه في القسم. وقد كان رحمه الله يتوخّى الحيطة والحذر من ناحية المعلومات والمنهجيّة في كل ما أكتبه، كون الموضوع بالنسبة له في غاية الحساسيّة من نواحٍ عدّة. وكان يعمل على

إعادة توجيهي، كما وإعادة الصّياغة، والتّلطيف من حدّة اللغة ومنسوب الأفكار الواردة، كما حثَّني على حذف بعض الفقرات التي كان يعتقد أنَّها لا تناسب الطَّرح. وكان في كل إرشاداته وتوجيهاته لطيفًا وطيّبًا وودودًا. يقرأ ما أكتبة بجديّة وعمق وتمحيص شديد بالنَّظر إلى إدراكه لحساسيّة الموضوع، ومحاذير الخوض فيه.

وكان رحمه الله يقول: "هذه تُعدُّ من المحظورات قولًا وبحثًا وكتابةً، وأنت تكتب في حقل ألغام. ولذلك يتوجَّب عليكَ أن تأخذ بملحوظاتي كلها، إلى أنْ أصلَ بك برّ الأمان، ومن ثم تتعدّى المرحلة، وعندها تكتب ما تشاء وبالقناعات التي تشاء". لقد أحسستُ دائمًا أنَّ الدكتور نوفان كان مثلي مُستشعرًا خطورة هذه الموضوعات، وأنه كان يعيش الحذر في الكتابة في هذا الموضوع، إلّا أنه من جانب آخر كان يبدو راضيًا بل ومسرورًا بما أكتب. وبعد مخاضٍ عسير انتهيتُ من الدراسة، وكان عليّ أن أتقدَّم للمناقشة. وأحسب أنه كان متخوّفًا من نتيجة المناقشة، وهذا تخوُّف مشروع. وكانت النتيجة "التعديل الجذري"، متضمّنًا العنوان والمحتوى والمصادر وغيرها. كنتُ حزينًا جدًا، لكنه بفضيلته المعهودة شاطرني الحزن نفسه، لكن وللحق أقول كان صلبًا في موقفه، ووقف إلى جانبي في شأن التعديلات، وبذل جهدًا كبيرًا في إقناع أعضاء لجنة المناقشة بمدى الجهد البحثي الذي قدَّمته في الدارسة.

وبعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحذف بعض الموضوعات التي ارتأت اللجنة أنها حسّاسة، تمّ منحي الدرجة والموافقة على الرِّسالة.

استمرَّت العلاقة الوثيقة بيني وبين أستاذي الدكتور نوفان، وكانت أقرب إلى الصداقة منها إلى العلاقة بين الأستاذ وطالبه، ومن وجهتي فقد داومتُ على التردُّد عليه وزيارته حيث مركز عمله في مركز الوثائق والمخطوطات، أطمئنّ على أحواله، وأتزوَّد من كثير من إرشاداته البحثيّة. وكذلك بعد تسجيلي في برنامج الدكتوراه وانتهائي من المواد واصلتُ التردُّد عليه وكان لا يبخل عليّ في المساعدة والإجابة، مع مشرفي، وكان حينها الدكتور محمد خريسات.

كان موضوع أطروحتي في الدكتوراه عن "ثورة البلقاء"، الذي هو جزء متمِّم لرسالة الماجستير التي أشرف عليها الدكتور نوفان، وكان عنوانها "ماجد العدوان". وكان أستاذي المرحوم أحد أعضاء لجنة المناقشة. وأذكر أنه أبدى إعجابه فيما كتبت، وقدَّم ملحوظات قيِّمة، ساهمت في إثراء الدراسة.

عندما تخرَّجت من مرحلة الدكتوراه، قمتُ بكتابة بحث لي لغايات النشر، وارتأيتُ أن أعرضه على الدكتور نوفان لكي يقرأه ويبدي ملحوظاته، وعندما انتهى منه قال لي: "أنت باحث جيد استمرّ في هذا النهج"، فعندما اختيرت مادبا في عام 2012 مدينة للثقافة الأردنية، وكان الدكتور نوفان هو المشرف على إعداد الحقل التاريخي في موسوعة مادبا التي كان يجري إعدادها في هذه المناسبة، هاتفني هو رئيس اللجنة وأخبرني أنه وقع عليّ الاختيار لأكون ضمن فريق الباحثين، وتكليفي بكاتبة الحقل التاريخي لمدينة مادبا. وافقتُ حينها بلا تردُّد وبدأتُ الكتابة في الموضوع، وكنتُ على تواصل مستمرّ مع الدكتور نوفان الذي عرفتُ فيما بعد أنه هو الذي رشَّحني للكتابة عن مدينته مادبا التي أحبّها، وعندما كنتُ

أنهي فصلًا أزوِّده به ليطّلع عليه. وأذكر أنه في إحدى المرّات اتَّصل بي الدكتور نوفان هاتفيًا وكان مسرورًا حيث قال لي: "هذا هو التاريخ الحقيقي لرجالات مادبا، أبدعتَ في إظهار ذلك، واصِل الكتابة على هذا النَّهج". وكنتُ قد تناولتُ فيه التاريخ السياسي للمكان والإنسان الذي تعرّض لدور أهالي مادبا وجوارها في التاريخ الأردني، وقد ابتعدتُ بذلك عن المنهج السابق المُتَّبع من قِبَل المؤرخين الذين كتبوا عن المدن الأردنية؛ ممّا أعجب أستاذي الراحل الدكتور نوفان.

كنتُ أتحيَّن الظروف أو المناسبات لكي أقوم بعمل بحثي مشترك مع أستاذي الدكتور نوفان. وكرَّرتُ طلبي عليه عدّة مرّات، ولكنه كان يتعذّر لانشغاله الدائم في البحث، وحدث أنْ قرأتُ له بحثًا كان قد أعدّه عن عمّان من خلال سجلّات المحاكم الشرعيّة وذلك عندما كان طالبًا، فخطرت لي فكرة على تطوير البحث وتحقيق الوثائق التي اعتمد عليها ونشرها في صورة كتاب، ذهبتُ إليه واقترحت عليه ذلك، فوافق. والحق أقول إنَّني كنتُ سعيدًا في موافقته كوني كنتُ راغبًا أن أشاركه في تأليف كتاب عن الأردن. وعملتُ إثر موافقته على الإعداد البحثي للموضوع، بيد أنَّ المرض الذي ألمَّ به عاجله، وتوقَّفت الفكرة عند هذا الحدّ. حرصتُ من باب الوفاء لأستاذي المرحوم على الاتِّصال به باستمرار للاطمئنان على صحّته وأحواله والتَّواصل معه في المناسبات والأعياد. لقد كان أستاذي العزيز الدكتور نوفان أكاديميًّا ملتزمًا بمتطلّبات هذا المسمّى الجدير بالاحترام، وباحثًا أصيلًا وجادًّا، عمل فترة طويلة بدأب لا مثيل له على دراسة السجلّات والوثائق ونشرها. فكان له في هذا المضمار إنتاج علمي وفير، قد لا يدانيه فيه أحد. وأضاء فيه جزءًا مهمًّا من التاريخ الأردني، وأخرجه من عتمة الغرف والمخازن والسجلّات المركونة، لكي يطّلع عليه أبناء هذا الوطن، من باحثين ومؤرّخين ومثقفين وعامة الأفراد المهتمين بالشأن الوطني.

المرحوم الدكتور نوفان يُعدّ من هذه الناحية شهيد الوطن، لأنه عمل بدأب وجهد لا يلين في سبيل إنارة جزء مهم من التاريخ، وهذا بالإضافة إلى تعليم أبناء الأردن عن تاريخهم المجيد، فألمَّ به المرض نتيجة ذلك، فقد قال لي الدكتور نوفان رحمه الله عند آخر زيارة لي في منزله للاطمئنان عليه: "أنا استنفدتُ حياتي وأنا أبحث وأكتب عن تاريخ الأردن. ولم أكن أجلس مع أبنائي بالقدر نفسه الذي كنتُ أجلسه بين الوثائق والسجلّات".

لقد اعتدنا على لقاء أستاذنا العزيز بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية إذْ أصبح مرجعًا مهمًّا لنا لا يمكن تجاهله، كما أصبحَت كتبه كذلك. لذا نهيب برئاسة الجامعة الأردنية بإطلاق اسم الدكتور نوفان السوارية على إحدى القاعات في المركز.

(*) شهادة مقدّمة من د.عبدالله العساف، ألقيت في الاحتفالية التي أقامتها جامعة آل البيت يوم الاثنين 30/ 4/ 2018م تكريمًا للدكتورة هند أبوالشعر.

القدس في مؤلَّفات الأردنيّين
عرض لكتب التاريخ

د. رياض حمودة ياسين*

اهتمَّ المؤلفون الأردنيّون، والمؤرِّخون بصورة خاصة، بتوثيق ودراسة مدينة القدس بجميع جوانبها، فهناك كتب ذات طابع تاريخي وأخرى ذات طابع سياسي، وهناك كتب تناولت الجوانب القانونيّة، الاقتصاديّة، الاجتماعيّة، المعماريّة... وينبع هذا الاهتمام من الحرص على حماية تاريخ المدينة وصون هويَّتها الدينيّة والحضاريّة أمام ممارسات الاحتلال السّاعية لتغيير روح المدينة وشخصيّتها التاريخيّة عبر طمس المعالم وتبديل الحقائق وخلق واقع ثقافي وسياسي جديدين فيها لنفي أصالتها والعَبَث بهويّتها. كما اعتنى المؤلّفون الأردنيّون بصورة خاصة بموضوع الإعمار الهاشمي لمدينة القدس من منطلق الدَّور الأردني منذ مئة عام في الحفاظ على الأماكن الدينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة في المدينة.

مدخل

حظيت القدس باهتمام المؤرخين والسياسيين والمثقفين والفنانين والقانونيين ورجال الدين والشيوخ، وتنوَّعت المؤلفات عن المدينة وفاقت الكتابات عن القدس غيرها من المواضيع، خاصة أنَّ المدينة هي مركز الصِّراع وأرض الرِّسالات السماويّة، وما يعنيه ذلك من صفة عالميّة لها.

أمّا الكتابات والمؤلَّفات باللغة العربيّة، فهي ثريّة وزخمة أيضًا وشاملة لكل الجوانب، ولعلّ تاريخ القدس استحوذ على اهتمام الباحثين والمؤلفين منذ أقدم الأزمنة باعتبار أنَّ الصراع على المدينة قديم جديد ومتجدِّد، والمشروع الصهيوني نفسه استند إلى مقولات وادِّعاءات تاريخية ودينية ترجع للعهد القديم وتاريخ الشعوب القديمة.

على ما يبدو فإنَّ الاحتلال يراهن على تغيير روح المدينة وشخصيّتها التاريخية من خلال طمس المعالم وتبديل الحقائق وخلق واقع ثقافي وسياسي جديد فيها لنفي أصالتها والعبث بشخصيتها الدينية والحضارية، لذلك نجد المؤلفين الأردنيين، والمؤرخين بصورة خاصة، يهتمون بدراسة المدينة بجوانبها كلها، فهناك كتب ذات طابع تاريخي وأخرى ذات طابع سياسي، وهناك كتب تناولت جوانب أخرى: الجوانب القانونية، الجانب المعماري للمدينة، مظاهر الأدب والثقافة والفنون، المدينة من نواحٍ دينية، وهناك كتب تناولتها من ناحية اقتصادية واجتماعية. وقد اعتنى المؤلفون الأردنيون بصورة خاصة بموضوع الإعمار الهاشمي لمدينة القدس من منطلق الدَّور الأردني منذ مئة عام في الحفاظ على الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية في المدينة.

* **باحث وكاتب أردني**

rhyasen@hotmail.com

عرض الكُتُب والمؤلَّفات الأردنيّة عن تاريخ

القدس

يلاحَظ أنَّ تاريخ المدينة، بحسب المؤلفين الأردنيين، قد اتَّخذ طابع التاريخ العام لها؛ بمعنى تناول المدينة عبر العصور ولفترات زمنية طويلة، وهناك الكثير من الكتب التي درست القدس في إطار فترة زمنية محددة وفي عصر تاريخي محدد أو عصرين، وهكذا.

سيتم استعراض الكتب لمؤلفين أردنيين أو بعض تلك التي صدرت عن دور نشر أردنية من مؤلفين غير أردنيين. وسنبدأ بكتب التاريخ العام للمدينة ثم نستعرض الكتب وفقًا للعصور التاريخية من الأقدم إلى الأحدث.

مؤلّفات في التاريخ العام للقدس

- عارف العارف، "المفصل في تاريخ القدس"، مكتبة الأندلس، القدس، 1961.
- معين أحمد محمود، "تاريخ مدينة القدس"، (د.م.)، دار الأندلس، 1979.
- رفيق شاكر النتشة، "تاريخ مدينة القدس"، دار الكرمل، عمّان، 1984.
- كامل العسلي، "مكانة القدس عند العرب والمسلمين"، عمّان، وزارة الشباب، 1988
- محمد عدنان البخيت، "تاريخ مدينة القدس عبر العصور منذ الألف الرابع قبل الميلاد إلى الوقت الحاضر"، من إصدارات وزارة الثقافة، عمّان، 2017.
- رياض حمودة ياسين، "السجل الزمني للقدس"، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمّان، 2004. وكتاب "تاريخ القدس السياسي والحضاري"، دار وائل للنشر والتوزيع، عمّان، 2012م. وكتاب "التكوين السياسي والتاريخي لمدينة القدس"، مؤسسة القدس الدولية، بيروت، 2020م.
- وضمن التاريخ الاجتماعي كتب فائز أحمد أبوفردة، "موسوعة عشائر وعائلات فلسطين: القدس: مدنها وقراها"

Encyclopedia of palestinian tribes and families

Jerusalem: towns and villages

وصدرت عن دار الجليل في عمّان عام 1991.

- مجموعة مؤلفين أردنيين، "القدس في العصور القديمة والمتوسطة والحديثة"، دار المسيرة، عمّان، 2018.
- فايز فهد جابر، "القدس ماضيها حاضرها مستقبلها"، دروب ثقافية، عمّان، 2013.
- عبلة المهتدي الزبدة، "القدس تاريخ وحضارة 300ق.م- 1917م الصادر في عمّان عن مؤلفه، 2000.
- حسن محمد الطوالبة، "القدس: المكانة، التاريخ، المستقبل"، دار دجلة، عمّان، 2019.
- محمود كامل دنون، "عيون على القدس- أبعاد الزمان والمكان"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، 2011.
- محمد أديب العامري، "شعاع النور القدس العربية عروبة فلسطين في التاريخ"، وزارة الثقافة، عمّان، 2013.
- عبلة المهتدي، "القدس: تاريخ وحضارة (3000ق.م-1917م)"، وزارة الثقافة، عمّان، 2012.
- فاطمة محمود الجوابرة، "موسوعة القدس"، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، 2003.
- يوسف بشير البرغوثي، "مدينة القدس التاريخ والحضارة"، دار أمجد، عمّان، 2016.
- هايل خليفة الدهيسات، "القدس تاريخ وحضارة

من الكنعانية إلى الرعاية الهاشمية"، دار كنوز المعرفة، عمّان، 2012.
- أحمد محمد أحمد، "تاريخ مدينة القدس"، دار الإعصار العلمي، عمّان، 2016.
- عبدالرحمن أبوعرفة، "القدس تشكيل جديد للمدينة"، دار الكرمل، عمّان، 1986.
- غازي ربابعة، "تاريخ القدس السياسي"، وزارة الثقافة، عمّان، 2010.
- عزم عزمي محمد أبوعليان، "القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة"، (د.ن)، عمّان، 1993.
- مهند حسن أحمد، "تاريخ القدس عبر العصور"، المؤلف، عمّان، 2009.
- محمود سالم رحال، "القدس مدينة الحجر"، دار البداية، عمّان، 2011.
- زهير عبداللطيف غنايم، "القدس دراسة تحليلية لأبعاد قضية القدس التاريخية والديموغرافية والقانونية والسياسية"، دار نورالدين للنشر، إربد، 2002.
- كامل جميل العسلي، "وثائق مقدسية تاريخية مع مقدمة حول بعض المصادر الأولية لتاريخ القدس"، عمان: [د. ن.]، 1983.
- فهمي توفيق مقبل، "حق العرب والمسلمين في القدس وفلسطين"، دار روائع مجدلاوي، عمّان، 2003.
- محمد أديب العامري، "القدس العربية الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية"، دار الطباعة والنشر، عمّان، 1971.

وتناولت بعض الكتب عدة حقول مرتبطة بمدينة القدس في محاولة لرسم صورة شاملة للمدينة مثل الكتاب الذي أصدره إبراهيم جورج ثيودوري، بعنوان "القدس في العيون"، (عمّان: المؤلف، 2011)، وقد جاءت عناوين فصوله على النحو التالي: احتفالات الوطن العربي بمناسبة إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية -2009 ظهور السيد المسيح عليه السلام وموقف اليهود منه- القدس في الاحتلال البريطاني (-1917 1948م)- القدس الشرقية في عهد المملكة الأردنية الهاشمية (-1948 1967م)- معلومات عامة عن القدس (الأماكن الإسلامية المقدسة، الأماكن المسيحية المقدسة، الأماكن اليهودية المقدسة)- أهم القرارات التي صدرت من قِبَل جمعية الأمم المتحدة حول القدس منذ 1947.

وجاءت مدينة القدس حاضرة بشكل أساسي في بعض الكتب التي تناولت تاريخ فلسطين مثل كتاب فهد خليل زايد وعنوانه "فلسطين وعاصمتها القدس"، الصادر في عمّان عن دار يافا العلمية، 2016، وفيه مختصر الأحداث التي شهدتها المدينة وأبرز مشاريع التسوية من قبل الميلاد ولغاية 2015.

وتناول مؤلفون جوانب محدَّدة من الحياة العامة في استعراض تاريخ القدس لفترات زمنيّة طويلة، فكتبَ كامل جميل العسلي "مقدمة في تاريخ الطب في القدس منذ أقدم الأزمنة حتى سنة 1918"،عمّان: الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، 1994.

وكتبَ كذلك "أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة أثرية تاريخية لمقابر القدس وتربتها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها"، عمّان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1981.

يُلاحَظ على كتب التاريخ العام أنها وثَّقت شخصيّة المدينة وعروبتها، وتناولت كذلك تاريخ فلسطين، فالقدس جوهر القضية الفلسطينية ودرّتها، كذلك يلاحَظ أنَّ معظم كتب التاريخ العام للمدينة حاولت أن تُظهر أهميّتها الدينية ومركزيّتها الروحيّة عند المسلمين والمسيحيين.

المؤلَّفات في حقب تاريخيّة متخصّصة

أوَّلًا: مؤلَّفات التاريخ القديم

أبرز المؤلَّفات:

- عبدالعزيز عزت الخياط، "اليهود وخرافاتهم حول أنبيائهم والقدس- الإسرائيليات"، دار المتقدمة للنشر والتوزيع، عمّان، 2004.
- محمود أبوطالب، "من السلط إلى القدس- أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم"، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمّان، 2006.
- خزعل زناد الماجدي، "تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني، دار غيداء، عمّان، 2017.
- خالد سليمان الشريدة، "عروبة القدس في الأسفار التوراتية والنصوص التاريخية الحضارية"، مؤسسة حمادة، إربد، 2014.
- سندس نظير دنون، "التراث الحضاري في القدس"، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمّان، 2017.
- عارف العارف، "تاريخ الحرم القدسي: المسيحية في القدس"، وزارة الثقافة، عمّان، 2009.
- سهاد حسين قليبو، "الإسلام القدس: بنو إسرائيل؟ اليهود؟"، المؤلف، عمّان، 2008.
- عصام سخنيني، "القدس: تاريخ مختطف وآثار مزوّرة"، اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمّان، 2009.

يُلاحَظ أنَّ الكتب التي اختصَّت بالتأليف في تاريخ القدس في العصور القديمة قليلة بالمقارنة مع العصور التاريخية الأخرى، لكن يلاحَظ أنَّ أغلب المؤلفين، حتى الذين تناولوا الفترات الحديثة، لم يهملوا التاريخ القديم ضمن مؤلّفاتهم من باب استعراض تاريخ المدينة وأهميّة الفترة القديمة التي تؤسِّس لأصالة المدينة وعروبتها، ولأنَّ ذلك يساهم في تكوين صورة واضحة عن هويّة المدينة وتاريخها الحقيقي.

ثانيًا: مؤلَّفات عن القدس في العهود الإسلاميّة

الأولى

تناولت كتب عديدة الأهميّة الدينيّة للمدينة وقداستها والمقدسات فيها، ويمكن استعراض أبرز الكتب الدينيّة عن المدينة:

في التصوف كتب عبدالعزيز عزت الخياط "عبق القدس"، المؤلف، عمّان، 2004.

وفي الصراع الديني كتب عبدالرحمن مصطفى نصار "الصراع الديني حول القدس ومخططات الصهيونية العالمية"، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمّان، 2002.

وعن أهميّة المقدسات كتب فتحي عبدالرحمن العرقان "القدس والأقصى المبارك عبر التاريخ: أولى القبلتين.. ثالث الحرمين.. أرض المحشر والمنشر"، (د.ن.)، عمّان، 1996. وعن قداسة المدينة كتب عبدالله معروف عمر "ماذا خسر المسلمون بسقوط بيت المقدس: دراسة في فلسفة قضية القدس"، مؤسسة الفرسان، عمّان، 2018. وعن حُكم زيارة المدينة كتب محمود صدقي الهباش "زيارة القدس فضيلة دينيّة وضرورة سياسيّة"، دار أسامة، عمّان، 2012.

وحول أهميّة المدينة في الإسلام كتب عبدالحميد السائح "أهمية القدس في الإسلام"، (د.ن.)، عمّان، 1981. وعن أهميتها في القرآن والكتب المقدّسة كتب عون معين القدومي "القدس مبنى ومعنى"، دار المعين، عمّان، 2015. كما كتب أسعد بيوض التميمي

"القدس والمسجد الأقصى المبارك"، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمّان، 1977. وكتب عبدالله عبدالرازق مسعود السعيد "فضائل القدس"، المؤلف، عمّان، 2001.

وعن الأدلة الدينيّة التي تدحض أحقيّة اليهود في فلسطين كتب محمد تيسير التميمي "حقيقة القدس التي يدَّعون"، المركز القومي للنشر، إربد، 1997. وحول أحكام التمسُّك بالقدس وعدم التفريط بها كتب نادر التميمي "الخلافة الراشدة في القدس- مكانة فلسطين في الإسلام وحكم المفرّط بأيّ جزء من أرضها"، دار الإبداع، عمّان، 1991. وكتب عبداللطيف الطيباوي "الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها"، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات، الإسلامية، عمّان، 1981.

أمّا عن أبرز كتب التاريخ في الفترة الإسلاميّة الأولى، فيمكن الإشارة إلى:

- إبراهيم محمد الفني، "القدس في العصر البيزنطي والإسلامي"، دار اليازوري العلمية، عمّان، 2013.
- محمد ذياب أبوصالح، "العهدة العمريّة في القدس: نموذج للتسامح الديني في القدس"، وزارة الثقافة، عمّان، 2009.
- محمد نايف العمايرة، "القدس في التاريخ العربي الإسلامي"، دار كنوز المعرفة، عمّان، 2016.
- كامل العسلي، "مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين"، وزارة الشباب، عمّان، 1995.
- أحمد سلامة أبوخوصة، "القدس عربية إسلامية"، المؤلف، الزرقاء، 1999.
- شفيق جاسر أحمد محمود، "تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية"، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، 1984.
- يوسف حسن غوانمة، "صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، 1999.
- هايل خليفة الدهيسات، "تاريخ القدس في الإسلام"، خزائن القلم، عمّان، 2015.

ثالثًا: مؤلَّفات عن القدس في العصر الأيوبي وزمن صلاح الدين

- وائل عبدالرحيم اعبيد، "القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي"، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، 2005.
- ماجد عرسان الكيلاني، "هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس"، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، 2008.
- رويدة فضل أحمد، "المدرسة الصلاحية في القدس (588-1336هـ/1918-1992م)"، دار المأمون، عمّان، 2017.
- سلطان هاشم الحطاب، "عجلون بوابة تحرير القدس"، دار العروبة، عمّان، 2014.
- مقبولة حسن الحاج خليل، "مدينة القدس في العهد الأيوبي"، وزارة الثقافة، عمّان، 2009.
- عبلة المهتدي الزبدة، "صلاح الدين وتحرير القدس"، (د.ن.)، عمّان، 1993.
- جاسر علي العناني، "طريق صلاح الدين الأيوبي إلى القدس- المشهد السياسي والعسكري قبل الفتح وبعده"، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، 2006.
- أحمد صدقي الدجاني، "الطريق إلى حطين والقدس"، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، 1992.

واتَّسمت الكتب والمؤلَّفات في فترة التاريخ الأيوبي بالتركيز على البطولات العسكرية والجهادية والخطط والاستراتيجيات ودَوْر صلاح الدين الأيوبي، وكثير من الدروس والعبر التي رسَّخها المؤلفون في محاولة لتأكيد فكرة التحرير والتخلُّص من الاحتلال.

رابعًا: مؤلَّفات عن القدس في الفترة العثمانيّة

اهتمَّ المؤلفون الأردنيّون بتاريخ القدس في زمن الخلافة العثمانيّة في الفترة بين 1516 وحتى 1924م، ومن المؤلفات المهمة نجد كتب عن المسيحية في القدس، فكتب رؤوف سعد أبوجابر "الوجود المسيحي في القدس في القرنين التاسع عشر والعشرين". وكتب زياد عبدالعزيز محمد المدني "الأوقاف المسيحية في القدس وجوارها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين"، المؤلف، عمّان، 2010.

- نوار حسين الجبوري، "النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف (1840- 1900م)"، دار ومكتبة الحامد، عمّان، 2015.

- جاسم عزيز الجبوري، "أوقاف المسلمين في القدس الشريف خلال القرن الثامن عشر الميلادي"، دار ومكتبة الحامد، عمّان، 2017.

- محمد ماجد الحزماوي، "التاريخ الاجتماعي للقدس العثمانية 1700- 1900: بحوث ودراسات"، دار الوضاح، عمّان، 2019.

- محمد موفق أحمد الأرناؤط، "مقاربات بلقانية عن القدس خلال الحكم العثماني"، الآن ناشرون، عمّان، 2021.

- أحمد حسين عبد الجبوري، "القدس في العهد العثماني الجزء الثاني (1640ـ1799م): دراسة سياسية- عسكرية- إدارية- اقتصادية- اجتماعية- ثقافية)، دار ومكتبة الحامد، عمّان، 2011.

- زياد عبدالعزيز المدني، "أوقاف القدس في القرن السابع عشر الميلادي 1009-1112هـ/ 1600- 1700م"، المؤلف، عمّان، 2018.

- زياد عبدالعزيز المدني، "أوقاف القدس في القرن الثامن عشر الميلادي"، 1800-1700 [مخطوط]، المؤلف، عمّان، 2009.

- زياد عبدالعزيز المدني، "الأوقاف في القدس وجوارها في القرن التاسع عشر الميلادي 1215هـ/1800م- 1336هـ/1918م"، المؤلف، عمّان، 2020.

- زياد عبدالعزيز المدني، "مدينة القدس وجوارها 1215- 1245هـ/ 1800- 1830م"، بنك الأعمال، عمّان، 1996.

- زياد عبدالعزيز المدني، "مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني 1246- 1336هـ/ 1831- 1918م"، المؤلف، عمّان، 2004.

- زياد عبدالعزيز محمد المدني، "الأوقاف في القدس وجوارها خلال القرن التاسع عشر الميلادي 1215هـ- 1336هـ/ 1800م- 1918م"، المؤلف، عمّان، 2004.

- عبدالعزيز محمد عوض، "متصرفية القدس الشريف 1874- 1914م"، دار ورد الأردنية، عمّان، 2016.

- عبدالعزيز عزت الخياط، "مجدد القدس: السلطان العثماني سليمان القانوني"، مطابع الدستور التجارية، عمّان، 2010.

- محمد هاشم غوشة، "القدس في العهد العثماني 922هـ/1516م- 974هـ/1566م"، وزارة الثقافة، عمّان، 2009.

- محمد ماجد الحزماوي، "التاريخ الاقتصادي للقدس العثمانية 1850- 1900"، بحوث ودراسات، دار الوضاح، عمّان، 2019.

- هشام محمد الخطيب، "القدس مشاهد بانورامية"، جمعية يوم القدس، عمّان، 2015، ويوثق الكتاب تطوُّر مدينة القدس على مدى خمسة قرون ممتدة من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين من خلال صور ولوحات.
استفاد المؤلفون الأردنيون من السجلات والوثائق العثمانيّة في دراسة تاريخ المدينة في العصر العثماني، وقد أتاحت السجلات والوثائق -وبخاصة سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر الطابو- الفرصة للمؤلفين لدراسة أحوال المدينة ووقفيّاتها والتاريخ الاجتماعي والديني لها، وبخاصة الأوقاف والجوانب العمرانيّة.

خامسًا: كتب ومؤلَّفات عن القدس زمن الانتداب البريطاني

- عبلة المهتدي، "القدس والحكم العسكري البريطاني (1917 1920-)"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، 2003.
- عبلة المهتدي، "أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني"، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، 2005.
- صالح علي الشورة، "مدينة القدس تحت الاحتلال والانتداب البريطانيين"، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمّان، 2010.
- محمود سعد عبيدات، "المجاهد العقيد محمود الموسى العبيدات بطل معارك القدس القديمة وفارسها (-1914 1988)، المؤلف، عمّان، 1999.
- ناديا عصام حرحش، "نساء القدس: المرأة الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني"، جسور ثقافية، عمّان، 2018.
- محمود عبدالله عواد، "شهداء القدس (-1918 1999)، اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمّان، 2000.
- خليل شرف شلش، "القدس والمسجد الأقصى في الفكر الإسرائيلي المعاصر: قراءة تاريخية سياسية ودينية للمسجد الأقصى"، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، 2011.

سادسًا: كتب تناولت الاحتلال الإسرائيلي للقدس

وثَّقت بعض الكتب بطولات الجيش العربي في الدفاع عن فلسطين، ومن أبرز هذه الكتب:

- فندي يوسف عميش، "كتيبة المشاة الثالثة ومعاركها مع إسرائيل: حول أسوار القدس القديمة عام 1948"، المؤلف، عمّان، 2002.
- أحمد يوسف عبدالله التل، "عبدالله التل بطل معركة القدس"، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، 1999.
- أحمد عبدالوهاب الشرقاوي، "شاهد على النكبة: فلسطين والقدس واليهود منذ مائة عام"، دار أمواج، عمّان، 2016.
- يوسف حسن غوانمة، "بطولات الجيش العربي: القوات المسلحة الأردنية في القدس وفلسطين"، المؤلف، عمّان، 2010.

سابعًا: كتب عن القدس بعد الاحتلال الإسرائيلي

- توفيق أحمد الخليل، "تاريخ القدس من عام 1947 إلى عام 1967"، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمّان، 2013.
- رائف يوسف نجم، "القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي -1967 1987"، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمّان، 1988.

- عرفات حجازي، "صلاح الدين: ذكرى مرور 800 عام على فتح القدس"، دار الصباح للصحافة والطباعة والنشر، عمّان، 1987.
- شذا جمال خطيب، "القدس العربية ثلاثون عامًا من التهديد والتحدي"، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، 2001.
- محمد عبدالعظيم فياض سدر، "القدس بين الاعتداءات اليومية والتهويد (1967-2014)"، اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمّان، 2015.

وهناك كتب ركّزت على جانب واحد ضمن فترة زمنية طويلة نسبيًّا كما هي الحال عند صبحي سعدالدين غوشة في كتابه "الحياة الاجتماعية في القدس في القرن العشرين"، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 2010.

ثامنًا: كتب عن الهاشميين والقدس- الإعمار والوصاية

- محمد علي محمد مهلب، "الإعمار الهاشمي في القدس"، المؤلف، عمّان، 2002.
- سليمان الصمادي، "الأشراف الهاشميون والقدس"، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمّان، 2001.
- محمد علي محمد النفيعي، "الإعمار الهاشمي في القدس"، المؤلف، عمّان، 2015.
- كتاب تاريخي متخصص بالوصاية الأردنية من إصدارات مؤسسة آل البيت، "الوصاية الهاشمية على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس 1917-2020م"، عمّان، 2020.
- عبدالسلام العبادي، "الرعاية الأردنية الهاشمية للقدس والمقدسات الإسلامية في القدس الشريف"، وزارة الشباب، عمّان، 1995.
- رائف يوسف نجم، "الإعمار الهاشمي في القدس"، مؤسسة البيرق للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، 1994.
- إبراهيم زهران، "جلالة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين المعظم والإعمار الهاشمي للقدس والمقدسات"، [د.ن.]، عمّان، 2007.
- إحسان عرسان الرباعي، "العمارة الإسلامية في الحرم القدسي الشريف منذ العصر المملوكي حتى الإعمار الهاشمي المعاصر (1250-1994)، شركة الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمّان، 2011.
- غادة موسى حلايقة، "أوقاف القدس ومقدساتها في قلوب الهاشميين"، دار المراد، دمشق، 2018.

وهناك كتب ركّزت على العمارة بصورة عامة، نذكر منها:

- بديع يوسف العابد، "الهوية المعمارية لمدينة القدس- قبّة الصخرة أم الهيكل المزعوم؟"، المؤلف، عمّان، 2009.
- محمد هاشم موسى غوشة، "بوابات القدس"، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمّان، 1992.
- رائف نجم، "نحو خطة عملية لرعاية المقدسات الإسلامية وصيانتها في القدس"، مكتب المؤتمر الإسلامي، عمّان.
- بديع يوسف العابد، "المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض"، أمانة عمّان الكبرى، عمّان، 2008.

دراسات ومقالات

Photo Byjess Bailey on Unsplash

آرام ملـكاوي / ذكريـات حـرب / د. شريفـة بنزايـد / عرفة عبده علي / عامر الصمادي

الشرُّ والظَّلام في الخيال وعلاقتهما بالواقع

ريبيكا كراوس غالوني

ترجمة: آرام ملكاوي*

يشعر الناس بالارتياح أثناء اكتشاف وجهات نظر في الخيال، يتقبَّلونها مع أنَّها يمكن أن تكون شديدة التهديد في الحياة الواقعيّة، فهل يمكن للتقبُّل أنْ يمتدَّ للشرّ، للأخلاقيّة أو الشخصيّات المرفوضة التي تبدو مألوفة بشكل ما؟ إذا كان بإمكان الخيال أنْ يزيل الخوف من الأشرار المألوفين، فكل ما سيبقى هي فوائد شخصيّة يمكننا الارتباط بها وذات صلة بحياتنا. إنَّ تفضيل الأشرار المماثلين "لنا" يعتمد على قدرة الخيال بتقديم التَّماثل مع الأشرار على أنه غير ضار.

هل لديك جانب مظلم؟ إذا كان كذلك، فهل تشعر بعدم انزعاج من اكتشافه؟ بعض الباحثين يقترحون أنَّ الإجابة يمكن أن تكون غير كبيرة. نحن نتوق لنرى أنفسنا "جيدين". بشكل عام، فإنَّ الأشخاص الذين يشعرون بذلك في أعماقهم هم في الأساس صادقون وأخلاقيون. في محاذاة هذا نميل إلى تفادي فكرة أنَّ الظلام يمكن أن يكمن بداخلنا. مثلًا، الأشخاص لا يشعرون بالراحة عند مواجهة آخرين يبدون مماثلين لهم لكنّهم، بشكل ما، سيئون، مثلما يحدث حين يعلمون عن قاتلٍ متسلسلٍ ما والذي يصدف أنه يشاركهم بعض الصفات.

أن تكون شبيهًا بشخص يبدو غير مستقرّ عاطفيًّا، أو غير مهذَّب ومخادع، أو سيئ، هو أمر مقلق لأنه يقودنا للتساؤل: ما الذي يمنعني من أن أكون مثله أيضًا؟

لكنَّ الجانب المظلم قد لا يكون دائمًا رادعًا. خصوصًا، أنَّ الباحثين أظهروا أنَّنا نتجنَّب الأشخاص السيئين الذين يشابهوننا. لقد تساءلتُ إن كان الانغماس في العوالم الخياليّة يسمح للشخصيّة المظلمة بداخلنا بالانفتاح. الخيال تعريفًا هو الانفصال عن الواقع. لذلك يشعر الناس بالارتياح أثناء اكتشاف وجهات نظر في الخيال، والتي قد تكون شديدة التهديد في الحياة الواقعية. هل يمكن للتقبُّل أنْ يمتدَّ للشرّ، للأخلاقيّة أو الشخصيّات المرفوضة التي تبدو مألوفة بشكل ما؟ إذا كان بإمكان الخيال أن يزيل الخوف من الأشرار المألوفين، فكل ما سيبقى هي الفوائد: شخصيّة يمكننا الارتباط بها وذات صلة بحياتنا.

لاختبار النظرية، أنا والمؤلف المشترك "ديريك روكر" استطعنا الوصول لبيانات من منصة ترفيه عبر

* كاتبة ومترجمة أردنية

Arammalkawi330@gmail.com

الإنترنت تدعى CharacTour. الموقع لديه أكثر من 350 ألف مستخدم والذين يمكنهم تصفُّح أكثر من 5300 شخصيّة من أفلام شهيرة، وعروض تلفزيونية وكتب. المنصة توصي أيضًا بالشخصيات بناء على اختبارات الشخصيّة والتصويت عبر الإعجابات.
دراساتنا قارنت السِّمات الفرديّة للشخصيّة الخياليّة الشريرة مع معجبيها. كمثال، أردنا أن نعلم إذا كانت شخصيّة شريرة مثل "فولدمورت" التي تتَّسم بسرعة الغضب، من شأنها أن تتنافر أو تجذب المستخدمين سريعي الغضب (يتمّ تمثيلها إمّا بنسبة منخفضة جدًا أو نسبة عالية جدًا من معجبي فولدمورت الذين يعرفون بأنَّهم سريعو الغضب). لم نجد أدلة تشير على التنافر من قبل شخصيات شريرة كهذه، كما قد توحي به الأبحاث السابقة حول الخوف من اكتشاف الجانب المظلم للفرد. بدلًا من ذلك، أظهرت دراستنا أنه عندما يصبح الشرير أكثر تميُّزًا بسمة معيَّنة، فإنَّ نسبة أكبر من معجبيه يميلون إلى تملُّك هذه السمة أيضًا. بكلمات أخرى، فالمستخدمون الثرثارون يميلون للأشرار الثرثارين، والمستخدمون الأذكياء يميلون للأشرار الأذكياء، والمستخدمون سريعو الغضب يميلون للأشرار سريعي الغضب، وهكذا.

في دراسة أخرى، قدَّمنا للمشاركين العديد من اختبارات نموذجية للشخصيّة عمّا يراه المرء على الإنترنت: "ما هو الحيوان الأكثر تشابهًا مع شخصيتك؟"، "أيّ نوع من البطاطا أنت؟"، إلى آخر مثل هذه الاختبارات. جميع المشاركين عبَّروا عن عدم ارتياحهم لمثل هذا النوع من الاختبارات. بما يتفق مع فكرة أنَّ الخيال يجعل التشابه مع الشرير آمنًا، وجدنا أنَّ الناس توقَّعوا أخذ اختبار "أيّ شخصيّة شريرة خياليّة أنت؟" بحيث يكون أقل إزعاجًا من أخذ اختبار "أيّ شخصيّة شريرة من الواقع أنت؟". كان هناك اختلاف في عدم الارتياح حتى لأخطر الأشرار: أشار المشاركون إلى أنَّ إجراء اختبار "أيّ قاتل متسلسل من الأفلام أنت؟" سيكون أقل إزعاجًا من "أيّ قاتل متسلسل حقيقي أنت؟".

بعد هذا اختبرنا الفرضيّة عبر عرض فرصة على المتطوّعين لمشاهدة فيلم جديد افتراضي عن شخصيّة تدعى "سام". لقد وصفنا "سام" إمّا أنه مشابه للمتطوِّع أو غير مشابه، واكتشفنا أنَّ الناس كانوا مهتمين أكثر في الفيلم الذي يحتوي على الشخصيّة الشريرة المماثلة لهم. كان هذا التفضيل للتَّشابه مع "سام" الشرير قويًّا، بغضّ النَّظر عمّا إذا كانت السِّمات المشتركة إيجابيّة (ذكاء) أو سلبيّة (مراوغة). مرَّة أخرى يبدو أنَّ السِّياق الخيالي للفيلم سمح

فولدمورت- من فيلم هاري بوتر

للمشاركين بالافتتان بالشخصيّة الشريرة والتماهي معها بطريقة تماهيهم نفسها مع بطل الفيلم، من دون الشعور بعدم الراحة المرتبط بهؤلاء الناس في الواقع.

أكَّد البحث أنه عند موضوع الشخصيات الشريرة الخيالية، فإنَّ التشابه هو افتتان قوي. لكن هل القضية هكذا دائمًا؟ هل هناك مواقف تكون التشابهات فيها مع الشخصيّة الشريرة من المفضَّل تجنُّبها، حتى في الخيال؟ الأشرار كهؤلاء يكونون جذابين فقط لأنَّ الخيال يجعلهم غير ضارين. ولكن ماذا لو كان الشرير الخيالي يمكن له أن يجلب المخاطر أيضًا. مثلًا، عندما يواجه المرء الشرير تحت مجهر المجتمع.

تُظهر الأبحاث أنَّ إيماننا ضئيل جدًا بأنَّ الآخرين سيأخذون سياق العالم الخيالي في الاعتبار بالنسبة لنا. نحن نميل إلى افتراض أنَّ الآخرين سيحكمون علينا بناء على الانطباع الأوَّل، ولن يجهدوا أنفسهم بتمعُّن السياق الكامل. في هذه الحالة، قد لا يثق الناس بالآخرين لمنحهم خيار الشك، وسيتوقعون أنْ يتمّ الحكم عليهم بقسوة بسبب تشابهاتهم مع شخصيّة شريرة خيالية. لذلك، يتوجب على الناس تجنُّب مشاهدة الأشرار المشابهين لهم في سياق اجتماعي في حال قيام الآخرين بافتراضات حول الجانب المظلم لهم.

في دراسة أخيرة، قدمت قصة تعرض شخصيّة شريرة يمكن مشاهدتها من قبل المشاركين كل لوحده. أظهر المشاركون تفضيلًا أكبر قليلًا للفيلم مع الشرير المماثل مقارنة بالشرير المختلف، بما يتفق مع دراساتنا السابقة. ومع ذلك، عندما كانوا سيشاهدون الفيلم خلال موعد غرامي، ويفكرون في إمكانية الحكم المجتمعي، فإنَّ الناس أظهروا تفضيلًا أكبر للفيلم مع الشخصيّة الشريرة المختلفة عنهم. أيَّد ذلك فكرة أنَّ تفضيل الأشرار المماثلين يعتمد على قدرة الخيال بتقديم التماثل مع الأشرار على أنه غير ضار.

حين يأتي الأمر للخيال، يحب الناس التماثل مع الشخصيات في القصص، حتى حين تمثل هذه الشخصيات ذروة الشر.

يوفر هذا نظرة ثاقبة أوليّة حول كيف يجد الناس أحيانًا متعة في استكشاف التجارب حول النُّسخ الأكثر ظلمة من أنفسهم، ولكن هناك عمل إضافي يتعيَّن القيام به. فبينما يشير هذا العمل إلى أنَّ الناس يحبون المتشابهين من الأشرار على المختلفين، فإنَّ الدراسات المستقبليّة قد تختبر حين يفضل الأشخاص الشخصيات الشريرة على الأبطال؛ أي حين يكون للجانب المظلم قوة جذب أكبر من الجانب المضيء. قد نستكشف أيضًا كيف أنَّ الرغبة في رؤية أنفسنا في الشرير تؤثر علينا في الحياة الواقعية. يعتمد تفضيل الأشرار المماثلين على افتراض أنَّ ما يحدث في الخيال يبقى في الخيال، ولكن هل هذا صحيح فعلًا؟ أو، هل راحتنا في رؤية أنفسنا في شرير بعالم خيالي ستظهر في ظلام العالم الحقيقي أيضًا؟

(*) ريبيكا كراوس غالوني: طالبة دكتوراه في جامعة نورث وسترن في إلينوي الأميركية.

(*) المصدر: https://psyche.co

شارع الحمام

شارع الحمّام في السّلط... سحر المكان.. وعبق التراث

ذكريات حرب*

للمكان ذاكرة عبقة بتجاعيد الزَّمن وسحر الماضي وألق الحاضر... وحنين ممزوج بشوق لا ينضب، وحب خفي، وفتنة، تُغويك، فتجُرّك خطواتك لتتنسّم عبيرًا يحملك إلى إرث تاريخي موشوم بحكايات تُروى بين حين وآخر. هكذا هو شارع الحمّام في السلط؛ أيقونة جماليّة ممزوجة بعبير التراث، وحياة يوميّة نابضة تسري في تلك العتبات والزّوايا وأبواب المحلّات المصفوفة والدّرجات الكثيرة المتسلسلة هنا وهناك، وأصوات الباعة والمشترين والمارين فيه منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس، كلّها تروي لنا تفاصيل عراقة المكان، وأصالته التي تضفي عليه الكثير من السِّحر والرَّونق.

يُعدُّ (شارع الحمّام) أقدم الشوارع الحيويّة السكنيّة والتجاريّة في مدينة السّلط، مُشكلًا معلمًا بارزًا في الهويّة الحضاريّة الأردنيّة، مُحتفظًا بطابعه التراثي المعتَّق بالطراز المعماري النابلسي والحجر الأصفر إبان تأسيس الشارع في الفترة (1881- 1918)، فتوالت المحلات التجارية في الطوابق الأرضيّة، أمّا العليا فالشقق السكنية ذات الفتحات المُطلّة. ويتميَّز النظام الإنشائي للمباني بالعقود والقناطر والجدران السميكة والشبابيك بالأقواس المحدّبة والمدبّبة من الحجر الأصفر المتميّز في السّلط.

يحدِّثنا مدير مديرية سياحة محافظة البلقاء المهندس أيمن أبوجلمة قائلًا: "يقع (شارع الحمّام) في وسط مدينة السّلط القديمة، ويبلغ طوله 330م ممتدًا من ساحة العين إلى شارع الميدان، ويتراوح عرضه بين 4- 8م، وهو مخصَّص للمشاة فقط، وتعود تسميته لوجود حمّام تركي في ثلاثينات القرن العشرين، وكان الشارع يمتدّ من الساحة -فيها ثلاث عيون ماء للرجال والنساء ولشرب الدواب- حتى كراج خشمان مع بوّابتين رئيستين تُفتحان فجرًا، وتُغلقان مساءً، وكان موظف البلديّة يحرص على إضاءة الشارع ليلًا بقناديل الزيت. ويُقسم الشارع إلى قسمين: علوي، وكان يُستعمل لبيع الخضار والفواكه وباقي السِّلع، أمّا السفلي، فكان يُستغلّ لبيع المواشي والخيول. وتمَّ هدم الحمّام التركي مع بعض المباني مثل وكالة السُكَّر والسرايا العثمانيّة في العام 1965 رغبة في التجديد، وهذا أمرٌ محزن، لأنّ الناس في ذاك الوقت لم ينظروا إلى هذه المباني برؤية تراثيّة.

ويحظى الشارع بشعبيّة واسعة لما له من إرث تاريخي وسياسي واجتماعي، لأسباب متعدِّدة نذكر منها، ينابيع الماء في ساحة العين التي جذبت الناس للسَّكن والعمل فيه، والتي ارتبطت مع الشارع بنشاطاته وفعاليّاته، وهي من المظاهر البارزة المهمّة للسلط التاريخيّة، ودور العبادة والتجمُّعات السكنية، فضلًا أنّه كان قِبلةَ السياسيين والتجار إبان ازدهار مدينة السلط التي كانت حاضرة إمارة شرق الأردن بين العامين 1866 و1930، إضافة إلى أنّ الشارع

* كاتبة أردنيّة

thikrayat111@yahoo.com

مسجد السلط الكبير

يحتضن سوقًا كبيرةً للحرف اليدويّة التقليديّة المتوارثة عن الآباء والأجداد، والمهن التراثيّة المتنوعة، ومنها؛ مستلزمات الخيل، وتصليح الأحذية، والأجهزة المنزلية، وتصنيع الفراش العربي القديم، وتجارة الحبوب، والأعشاب، والعطور، وتصليح البوابير، وتصنيع الحلويات الشعبية يدويًّا، وأفران الخبز بأنواعه، والسلع الشعبيّة، مُلبّيًا لروّاده رغباتهم الشرائيّة حتى يومنا هذا، ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ عدد زوّاره يتراوح بين أربعة إلى خمسة آلاف زائر يوميًّا".

ووضَّح المهندس "أبوجلمة" أنّ "شارع الحمّام" التراثي يقع ضمن منظومة المسار السياحي، لأنّه يربط بين أهم المعالم المعمارية والتاريخية للمدينة، وقامت وزارة السياحة الأردنية وبلدية السلط بتحديثه وترميم مبانيه في العام 2010 حيث تمَّ استغلال الأجواء التراثية بغية إعادة إحياء التراث القديم، وهو المشروع الأوَّل ضمن مشاريع السياحة في الأردن.

ومن أهم المسارات التراثية لشارع الحمّام وجواره؛ مسجد السلط الكبير المعروف باسم "المملوكي"، والذي تعود أصوله إلى العصر المملوكي، وهو أنموذج للطابع العمراني الإسلامي المميَّز، وتمَّت الإشارة إليه في كتب الرحّالة "ستزن" و"بيركهارت"، ومسجد السلط الصغير الذي تبرَّع في بنائه أهالي السلط عام 1906، وكنيسة اللاتين والخضر التي تُعدُّ من أقدم الكنائس، و(بيت أبوجابر) الذي تعود ملكيّته إلى (صالح الناصر أبوجابر) الذي قدم من الناصرة، وقام النابلسي الحاج عبدالرحمن عقروق ببنائه في 1892

متحف السلط التاريخي
بيت أبو جابر

حتى 1906، وهو تحفة معماريّة تتكوَّن من ثلاثة طوابق، استُخدم الطابق السفلي مستودعًا للمؤن والحطب والتبن وخانًا للحيوانات، أمّا الطابق الأول فكان للمضافة والولائم، وقد حلّ فيه الأمير عبدالله الأوّل ضيفًا مدة ثلاثة أشهر عند إعلان الثورة العربية الكبرى في العام 1916، واستملكت وزارة السياحة والآثار بيت أبوجابر في العام 2003 ودفعت لأصحابه الأجرة، وتمَّ ترميمه، وتحويله إلى متحف السلط التاريخي، وعلى المسار السياحي نفسه تقع قلعة السلط التي يعود بناؤها إلى العام 1220م في عهد الملك عيسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، كما يتضمَّن المسار ترميم واجهات أبنية تراثية يزيد عمرها عن 150 عامًا.

ويتابع المهندس قائلًا: "من جهة أخرى، فقد تعاونت بعض الجهات المحليّة والدوليّة عام 1994 في الشأن التراثي بعد دراسة مستفيضة قامت بها الجمعية العلمية الملكية في العام 1990 وأحصت ما يقارب 657 مبنى تراثيًا، ومنها كما ذكرتُ سابقًا (بيت أبوجابر)، وساحة العين التي طُرحت فيها عدة مشاريع مع الوكالة اليابانية للإنماء الدولي "جايكا"، ومشروع آخر مع البنك الدولي لترميم الواجهات المعمارية الخارجية لأربعة مجمعات سكنية؛ الساكت، والسكر، والخطيب، وأبوصرهد. وعلى الرّغم من تحفظ الكثيرين على عمليات الهدم والترميم إلا أنّ هذه العمليات لأجل توسيع الشارع والساحة بسبب الضغط الهائل الذي تتعرَّض له المنطقة. ولا شك أنّ الهدف من المشاريع السياحية يصبّ في الحفاظ على الطابع المعماري والتراثي للمدينة، وقد قمنا عن طريق وزارة السياحة والآثار وبالتعاون مع بلدية السلط الكبرى وجهات أخرى محلية ودولية بتبليط الشارع بالبلاط الحجري، ورمَّمنا شوارع البلدية العلوي والسفلي، والميدان، والخضر، والساحة المقابلة لكنيسة الخضر التي تحوَّلت إلى ملتقى للزوّار والسيّاح، وتنظيف واجهات الحجر، وإزالة الآرمات العشوائيّة، واستبدال الأبواب للمحلات التجارية بأبواب خشبيّة، وتركيب مظلّات وآرمات تتناسب مع الطابع التراثي".

كنيسة الخضر - المغارة

كنيسة الخضر

في شارع الخضر الذي يرتبط بـ(شارع الحمّام) بدرج طويل، التقينا مع عضو لجنة أوقاف كنيسة القديس جاورجيوس الأرثوذكسية المعروفة بالخضر السيد هاني فنوش الدبابنة الذي روى لنا قصة مشوقة في بناء الكنيسة عام 1682م: "تأخَّر أحد الرُّعاة البسيطين وينتمي لآل حداد في العودة ليلًا إلى القلعة (نقصد قلعة السلط التي تبعد عنّا 400م)، والتي كانت تُغلق أبوابها قبل مغيب الشمس، فاضطرَّ أنّ ينام في منطقة حرجيّة مليئة بالذئاب، وفي الصباح عندما قدم عليه قومه، أخبرهم أنّ رجلًا يمتطي جواده وبيده حربة كان يحرسه في الليل، (يُقال إنّه القديس جاورجيوس) مُشيرًا إلى هذا المكان المقدَّس، وبعدما رأوا أنّ الأغنام لم يصبها مكروهًا في المغارة التي استتر فيها، أيقنوا بصحّة كلام الراعي، وبُنيت الكنيسة في هذا المقام، وما زالت المغارة التي خرج منها القدّيس ليلًا موجودة. وللكنيسة حكايات مباركة كثيرة، ففي الزمن البعيد، كانت النساء تأتي للصلاة طلبًا للغيث، وما إنْ يعدن إلى بيوتهنّ، حتى يستقبلن المطر بفرحة غامرة، وفي إحدى الليالي اتصل بعض الجيران يتساءلون عن صهيل الحصان الذي يسمعونه، وعندما جئنا لم نجد شيئًا. وحدث أنْ فاحت رائحة عطر عذبة لأكثر من ثلاثة أشهر دون أن نعرف مصدرها، كما تساقط من جوانب المغارة زيتًا منذ عشر سنوات، وبحثنا مع الجهات المسؤولة في الأمر، ولم نعرف مصدره قط. إنّ كنيسة الخضر نموذج حقيقي للتعايش بين المسيحيين والمسلمين الذين يأتون أحيانًا للصلاة فيها، هي مزيج من التوافق الاجتماعي بين أهالي السلط الذين لم يتردَّدوا في التبرُّع للكنيسة لترميمها في العام 2004".

سوق الإسكافيّة

يقع سوق الإسكافيّة في منتصف شارع الخضر المرتبط بـ(شارع الحمّام)، وسمّي بهذا الاسم نظرًا لأنّ الشارع ممتد بمهنة تصليح الأحذية وصناعتها، يقول (خضر قسطندي الفار): "يعتبر هذا المحل هو الأول في السلط، فقد افتتحه والدي في العام 1950 بعد قدومه من الرملة، ثم ورثت المهنة عنه، واستلمت المحل في ثمانينات القرن الماضي مع أخي الذي فارقنا عام 1999م. هي مصدر رزقنا. ولا ننكر أنّ هذه الحرفة لم تعد كما كانت فالأذواق تغيَّرت من جهة، وعمليات الهدم والتطوير السياحي، ورحيل معظم المؤسسات والدوائر الحكومية والوزارات خارج المنطقة للتوسعات التي تنتهجها وزارة السياحة من جهة أخرى".

محلّات الحلويّات

"الحارس" و"النابلسي"

في الشارع التراثي، استضافنا المهندس (لؤي الحارس)، وقدَّم لنا حلويات (شعيبيّات) قائلًا: "محل (الحارس) الموجود منذ 1868م، ويزيد عمره عن 133م، هو أقدم محل حلويات في المملكة، لقد ورثنا المهنة عن أبينا وأجدادنا، فهذه المهنة لها الفضل فيما وصلنا إليه من حياة كريمة علمية واجتماعية. كنا نعمل كل الحلويات التي كان يعشقها الناس في السابق يدويًا مثل؛ شعيبيّات وكنافة من دون جبنة وصرَّة بنت الملك وقطايف وغرَيْبة وهريسة، لكن في الوقت الحاضر تركنا بعض هذه الأصناف لأنّها لم تعُد مطلوبة، ولعلَّ (الشعيبيّات) أكثر الحلويات طلبًا. وربّما سُميت بهذا الاسم نسبة إلى شهر شعبان،

وأذكـر أنّ والـدي كان يذهـب إلى بيـت العريـس أو العـروس لعمـل عجـين الحلويـات، وبعـد الانتهـاء مـن عملهـا، يقـدِّم السِّـدر الأوَّل للعروسـين. وقـد أخبرنـا والـدي أنّ الأمـير عبدالله الأوَّل عندمـا كان يحـلّ ضيفًـا عنـد أحـد في السـلط، كانـوا يرسـلون في طلـب حلويـات (الحـارس)".

وفي محـل قطايـف (النابلـسي) الـذي تـمَّ افتتاحـه في مطلـع القـرن العشريـن، عشـنا تفاصيـل الجـدّ (أبوأحمـد) الـذي كان يعمـل تاجـرًا للأقمشـة وبضائـع أخـرى في نابلـس، لكنـه قـرَّر أن يسـتقر في السـلط التـي كانـت تابعـة لمدينـة نابلـس إداريًّـا، وفي أربعينـات القـرن المـاضي تسـلّم الابـن (يوسـف عفيفـي النابلـسي) إدارة المحـل، وبـدأ ببيـع الحمـص ومنتجـات الألبـان، إذ كان يقـوم بـشراء الحليـب الطـازج وينتـج منـه الألبـان والأجبـان. وفي السـتينات بـدأ والـد (أبـو أحمـد) بإنتـاج القطايـف الرمضانيـة بحشـوات الجـبن والجـوز، حيـث قـام بإعـداد طاولـة خبـز بسـيطة مسـتخدمًا برميـلًا مـن الصفيـح يوضـع بداخلـه حطـب لإشـعال النـار، وكان سـعر كيلـو القطايـف آنـذاك قرشًـا ونصـف. وفي أواخـر الثمانينـات، تسـلَّم صالـح (أبـو أحمـد) إدارة المحـل، وقـرر فتـح مطعـم لبيـع الساندويشـات والحمـص والفلافـل والباذنجـان المقـلي، مثـل جـدّه، لكنـه لم ينجـح في الساندويشـات، وقـرر العـودة لبيـع القطايـف، ليـس في رمضـان فحسـب، بـل كل يـوم جمعـة كما فعـل والده مـن قبـل، وبعـد اعتيـاد الزبائـن عـلى توفـر القطايـف عـلى مـدار العـام، بـدأ (أبـو أحمـد) بتوفيرهـا يوميًـا. ويُعـد محـل النابلـسي واحـدًا مـن المحـلات القليلـة في الأردن التـي تصنـع القطايـف عـلى مـدار العـام، ويـأتي إليـه الزبائـن خصيصًـا مـن المناطـق القريبـة، فقـد كان يبيـع مـا يقـارب مئـة كيلـو غرامًـا مـن القطايـف في رمضـان، مسـتخدمًا الوصفـة النابلسـية الأصليـة التـي ورثهـا عـن والـده.

عطارة (أبو حامد)

عـلى الرّغـم مـن الازدحـام الـذي رأيناه بـأم أعيننـا طوال اليـوم أمـام محلّـه، إلا أنّ العطّـار (أبوأحمـد أبوحويلـة) اسـتطاع الحديـث معنـا موضحًـا أنّ المحـل يشـهد كل يـوم ازدحامـات كثـيرة ربمـا لأنّ النـاس أصبحـت تـدرك أهميـة الأعشـاب في حياتنـا، وهـو -كـما يقـول- الأمـر الـذي تتبعـه ألمانيـا عـلى سـبيل المثـال، فهـي تعتمـد عـلى الأعشـاب في صناعـة الأدويـة لرعاياهـا، مُضيفًـا: إنّ مصنـع الأدويـة في السـلط اسـتملك أراضٍ لزراعـة الأعشـاب، فالعالَـم يعـود إلى الطبيعـة، إلى الأعشـاب للوقايـة، في حقيقـة الأمـر، فـإنّ تجـارة الأعشـاب تزدهـر بشـكل كبـير.

ولـدى سـؤاله عـن المحـل قـال لنـا: "اسـتقرَّ والـدي في الأردن عـام 1938، وكان يعمـل فنيًّـا في مطـار مـاركا، لكنـه بعـد ذلـك توجَّـه إلى التجـارة، ففـي العـام 1945م افتتـح المحـل الـذي تطـور عـبر السـنين، وعرفـه النـاس مـن خـلال الوصفـات التـي كان يصفهـا والـدي ويعدّهـا، أذكـر أنّ هـذه المهنـة لهـا جذورهـا في أجدادنـا، كأنّهـا خـبرة تـسري في العـروق، ونرثهـا نحـن الأبنـاء عنهـم، حتـى ابنـي المهنـدس أحمـد ورث عنـي المهنـة، ويعمـل حاليًـا معـي". ولمّـا سـألنا الابـن عـن شـعوره أجـاب أنّـه مرتـاح جـدًا ويشـعر بعلاقـة وثيقـة بينـه وبـين المحـل والنـاس، وأضـاف: "هـا هـم إخـوتي يأتـون إلى المحـل ليتعلمـوا، ربمـا أصبحنـا نسـلك الطريـق نفسـه".

الأدوات المنزليّة القديمة

محلات (برجوس) و (الأدهم)

ولـلأدوات المنزليـة القديمـة مكانـة بـارزة في المحـلات المتراصـة في (شـارع الحـمّام)، و(برجـوس) إحداهـا، يبـين لنـا (حسـان برجـوس) -بكالوريـوس إدارة الأعـمال- أنّ محلـه يختـص ببيـع الأدوات المنزليـة القديمـة والجديـدة، وقـد ورثـه عـن أبيـه وجـدّه، ولا يـزال محتفظًـا بطابعـه

أحذية أبو الياس

محلات برجوس

حلويات الحارس

والحجر الأصفر الذي تتميز به معظم محلات (شارع الحمّام). ويقول: "هذه المهنة مصدر رزقنا، عمر المحل يزيد عن سبعين عامًا، وهو الأوّل في بيع الأدوات المنزلية القديمة التي كانت تستخدمها العائلات في ذاك الوقت مثل؛ البابور، ولوكس الكاز، والبريموس، والمصابيح القديمة، والأباريق القديمة، وأواني الفخاريات كالصحون والأكواب والطناجر، وزير الماء، وغيرها من الأدوات التي تخطر على البال. للقديم دومًا رونقه، وهناك كثيرون ممَّن يرغبون في اقتناء هذه الأدوات كتحف وزينة خاصة في المجالس التراثية القديمة". وعندما سألناه عن فئات الناس التي تقتني هذه الأدوات أجاب: "معظم المشترين ممَّن يتجاوزون الخمسين، أمّا الجيل الحالي فلا يملك أيّ فكرة عن هذه الأغراض المنزلية".

أمّا (ضرار عادل الأدهم) الذي ورث عن أبيه وأجداده محل الخُردوات، فهو يشعر بالقلق والخوف من ضياع التراث أمام التحديات الكبيرة وعمليات الهدم والترميم وهجرة بعض العائلات السلطية، وتسليم محلاتهم للوافدين؛ ممّا يهدِّد هذا التراث بالاندثار، يقول: "بعض أصحاب المحلات ما زالوا يحتفظون بها ويعملون فيها بعد أنّ ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، لكنها لا تعدو أكثر من ثلاثين محلًا، مقارنة بالمحلات التي في الشارع والتي تتجاوز المئتين".

وعن طبيعة محله، يقول (الأدهم): "ورثت المحل عن أبي وجدّي، فقد بُني في العام 1909، وعندما استلمته لم أغيِّر فيه شيئًا، ولا أخفي عنكم أنني أصرف عليه من جيبي لأنّه تحفة تراثية، ولا أرغب في التفريط به على الإطلاق. نحن مسؤولون عن هذا التراث، ويجب على الجميع أنّ يتحمَّل هذه المسؤولية".

***

في الختام، تجدر بنا الإشارة إلى أنّ لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)، خلال دورتها الـ(44) التي عُقدت في الصين "افتراضيًّا"، قرّرت الموافقة على إدراج مدينة السلط "مدينة التسامح والضيافة الحضاريّة" على قائمة التراث العالمي. وتُعدُّ السلط أنموذجًا ملموسًا في العلاقات الاجتماعية المنبثقة من التكافل بين الأسر السلطية والزوّار، والتعايش والتآخي والتسامح بين الأديان، والوئام والعيش المشترك.

تشظّي الاختراق: بين لغة التّصوُّف والبحث رشيد القريشي وأنسنة الأبجديّات

د. شريفة بنزايد*

مثَّلت الرُّموز والأوشام والزَّخارف هويّة متساكني شمال أفريقيا، وهي شعار ثقافي متميِّز يلخِّص طريقة عيش سكانها إلى جانب معمارها الفريد، وهنا يمكن أن نتحدَّث عن ثقافة بصريّة سخيّة تقوم على أساس تنمية الحسّ الوجودي للذّات البشريّة بما فيه من صور بصريّة تجسّد ذاكرة لأنماط متتالية، وهو الأمر اللافت في أعمال الفنان "رشيد القريشي" حيث يأتي العمل الفنّي في شكلٍ متماسكٍ متراصّ بالكلمات والخطوط الإيحائيّة والرمزيّة المقروءة وغير المقروءة، دون أن ننكر عليها قيمتها الجماليّة والتشكيليّة.

"كيف يُتنج النّص وقعًا جماليًّا خاصًا؟ وكيف يُنتج النّص مدلوله الجمالي والأيديولوجي في الآن نفسه؟"[1].

إنَّ تمفصل تجلّي الدلالات يفرزه تراكم المعارف والخبرات، وهو إدراك الإنسان لظواهر متعدّدة تدفعه للتساؤل والتمعُّن عن حقيقتها وماهيّتها. وفكرة العلامة والرمز هي فكرة يمكن إدراكها من خلال الآثار التي تتركها عوامل مختلفة على الأشياء، سواء كانت حيّة أو جامدة، فهي مرتبطة بحواس معيّنة، بحيث إذا زالت هذه الحواس فإنّنا نعي مروره من خلال التفكير. إنّه تجريد فكري يعي مكانة هذه الإفرزات الثقافية مع الزمن بشكل واضح، خاصة فيما يلحظه من التغيّرات التي تشهدها طبيعة العيش عند الشعوب، فالمجال الجمالي أطلّ في أساليب حياتيّة تبدو في ظاهرها بسيطة ولكنّها موغلة في التّرميز، سمحت للدّارس بالتكهّن بمضامين دقيقة عبر منهج التحليل، فهو يتمثّل ويتصوَّر ويتخيّل ضمن هندسة المكان، أو ما يمكن تسميته في المبحث البيولوجي "المحيط"، ليصل إلى التّشكل المؤثث تأليفيًّا وإنشائيًّا للفضاء، والأثر الفنّي كان مجالًا خلاّقًا لمثل هذه الرموز.

ويكون حضور الزَّمن في هذه الأعمال، حضورًا اصطلاحيًّا، وذلك في الإتيان ببعض الرُّموز الملتحمة بعبارة الزمن، ومثال ذلك الأوشام والرُّموز البربريّة المجسّمة في نقوش متنوعة مع ما أنتجته الثقافة العربيّة الإسلاميّة من زخارف وخطوط عربيّة.

إنّ هذه الرموز والأوشام والزخارف مثّلت هويّة متساكني شمال أفريقيا، وهي شعار ثقافي متميِّز يلخِّص طريقة عيش سكانها إلى جانب معمارها الفريد، وهنا يمكن أن نتحدَّث عن ثقافة بصريّة سخيّة تقوم على أساس تنمية الحسّ الوجودي للذّات البشريّة بما فيه من صور بصريّة تجسّد ذاكرة لأنماط متتالية، وبالتالي تنفتح على المشهد الفنّي. إنّه انفتاح على الآخر في شكله الحضاري والثقافي.

* **ناقدة وباحثة تشكيليّة- تونس**

dhibicherifa09@gmail.com

من معرض الفنان الجزائري رشيد قريشي في البيت العربي
في مدريد, أبريل 2019, تصوير عبدالله ناصر بجنف

إنّ ما يجذب الفنّان لهذا التراث المتجدّد بأشكاله الثقافيّة والجماليّة بالأساس هو مواكبته للحياة بالشكل؛ الأمر الذي يبعث في روح الفنان طاقة وقدرة خلّاقة وهو ما يحفز المصمّم في مواكبة هذه البيئة الخصبة، إذْ هي بنية فكريّة تماهت مع الطبيعة فأعطت أُكُلها التّشكيلي، ولم يفلتها "رشيد القريشي"؛ ذلك الفنان ذو العين والخلفيّة الثاقبة. إنّها عوامل خصبة لأيّ عمل فكري أو تطبيقي يمكن أنْ تنتُجَ معها أعمال وأعمال... تخدم هذا الصرح الثقافي ليبقى سجلًّا يقدِّم هذه الحالة الثقافية كأسلوب حياة كانت ولا زالت تنسج ثوبًا فكريًّا له صلة بكثافة وتدفّق جمالي.

مجسمات من الفولاذ- درب الورود 2001

والعلامات التقليديّة الجماليّة تزخر بتشكيلات لا متناهية تعتمد على المستقيم والمنكس والمنحني، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على بنية فكريّة ذات أبعاد عقلانية، في إشارة صريحة إلى الرمز العقلاني للإنسان، وإن كان دليلًا قاطعًا على الإنتاج الفكري بالأساس، ضمن جدلية البقاء والفناء... الذكرى والجسد... يولد صراع الحياة التي يزاحمها الموت والمتمثل في القدر المحتوم مقابل الامتداد في الزمان، وكأنها تعيد صياغة حياة جديدة في اتجاههما العامودي، في رمزية للبقاء والصمود والانتصاب المقتصرة على الذات الإلهية، وكأنَّ الروح حين صعودها تستمد الخلود من الذات الإلهية باعتبار أنَّ النفس خالدة والجسد فان، في تحدّ لذاكرة النسيان، وهنا يظهر التّحدي للتّاريخ وإلى الماضي والذي غالبًا ما يكون سجّانًا، وما يعطي إلا الذكرى... فالرّمز والعلامة والخطّ هي وسائل تعبيريّة للغة تعبر عن الانتماء والجذور؛ معها يحيلنا المسار الفكري على طبيعة التخاطب والتفاهم التي كان عليها معاصروها، وهو بالضرورة ما يقتضي الرجوع إلى التاريخ، أي إلى ما مضى، وبعث مؤهلات الحياة فيها لتكون تعبيرًا صادقًا عن الزمن التي تنسب إليه، فإن حافظت على شكلها وجوهرها أصبحت أيقونة الفكر والوجود.

إنها مواقعة بالتراضي بين فكر خصب وتشبُّع بالإلهام ورموز غنيّة استُبيحت للفنان لتكون قرابين تشكيليّة لما توفره من متعة بصريّة، فهو نقش حروف وأوشام تبدع في رسم تكشّفات صوفيّة وفلسفيّة وكأنّ جمال الشكل يتجاوزها إلى عمق المعنى...

فالكتابة والرسم في أعمال "القريشي" تمارس دورها في تثبيت شواهد تاريخيّة امتزجت بين قوم العرب والبربر؛ وهو ما يعطيها أهميّة تاريخيّة، أو بعبارة أوضح أهميّة لزمن إنجازها باعتبارها تراثًا، لتتوالى وتتواصل مع الأزمنة الأخرى، حيث تتضمّن هذه الكتابات كل شيء بما فيها الإنسان، أو سيرة موجزة عنه، ليأتي العمل الفنّي في شكل متماسك متراص بالكلمات والخطوط الإيحائية والرمزية المقروءة وغير المقروءة، دون أن ننكر عليها قيمتها الجماليّة والتشكيليّة.

ربَّما يكون ما تحييه فينا من جوّ نفسي وقراءة فنيّة لإمكانها أن تكون شكلًا معبّرًا للفن المعاصر أو أثرًا مطبوعًا في بقايا ذاكرتنا لهذه الأشكال، في ملامسة للزمن عن طريق الكتابة على محامل بطُرُق مُغايرة للمألوف تحمل معها هذه المادة الثقافيّة من ثقل تاريخي قديم، وتتعامل مع فضائها بشكل متوازن. وإن كانت هذه النقوش غير مألوفة بما تحمله من غموض في صعوبة فهمها، إلّا أنها تحمل معانٍ تخترق زماننا الحاضر في رمزيّة لكتابة قديمة ترميزيّة بالأساس قد اندثرت باندثار أصحابها، وكأنّه سجلّ لتثبيت هوية عن مرحلة فاتت في زمن قد مضى ليبقى حاضرًا بآثاره حضور الغياب، فلا نعيش اللحظة نفسها مرتين، ولكن يمكن استحضار الزمن الماضي لينمو ويتجدّد في استدعاء لزمن كنّا نعدُّه مضى، إلا أنه حاضر حضورين؛ حضور فعلي وحضور بأثر الغياب، في صياغةٍ خطيةٍ وكأنه نوع من بعث الحياة في تناسخ روحي لهذا النوع من الخطّ والرّمز والعلامة لتعيش ممّا اكتسبته نقوشه من جماليّة

الفضاء الوهمي

في الفضاء اللّوحة، تتعدّد القراءات وتتشكل الرؤى الفنية ولكن من المؤكد أنَّ للبيئة المحليّة والمعيشيّة المحيطة بالقريشي التأثير الكبير في أعماله الفنية

وفي هـذه اللوحـة، لا تـكاد تغيـب المرجعيـة الثقافيـة لـه في إطـار اسـتغلاله لتراثـه المحـلي، وأيضًـا بتأثـره بالحـركات الفنيـة كونـه يعيـش في الغـرب، فامتزجـت أشـكاله البنائيـة والمضمونيـة كنتـاج لثقافتـين مختلفتـين، فجاهَـرَ في إبـراز المـادة في الفضـاء ومـدى قـدرة الكتابـة في انطـلاق هـذا الهاجـس الـذي خـبره أحيانًـا في فضـاء ثنـائي لأبعـاد توهمنـا بعمقـه، ويتحـوّل إلى فضـاء ثـلاثي الأبعـاد، في صراع متكامـل بـين خلفيـة مسـتقلة، في خطـوط وكلـمات مقلوبـة مـن اليسـار إلى اليمـين، غامضـة المعـاني، دقيقـة الخطـوط، لا تـكاد تميّـز هـل هـي مكتوبـة أم محفـورة، بحضورهـا النّحتـي لهـا تأثـير قـوي عـلى شـكل اللطخـات السـميكة والغليظـة والتّـي تـأتي في المسـتوى الأوّل مـن اللوحـة، في جمعـه للتضـاد بـين الخطـوط الرقيقـة والصغـيرة وبـين الشـكل المقـرّر تقريبًـا في جـلّ أعمالـه توحـي بالهيئـة الإنسـانية، خطوط متشـابكة سـميكة، لهـا ثقلهـا ووزنهـا في العـين مـن خـلال صلابتهـا وحجمهـا لتكتسـب سُـمكًا بالمقارنـة مـع خلفيّتهـا التـي يتغـيَّر نظامهـا، فشـكل الكتابـة يسـتدعيك إلى القـراءة مـن كل الجوانـب، جانـب يطغـى عليـه الكتابـة الأفقيـة في أسـطر تراتبيـة وأخـرى دائريـة أقـل سـمكًا وكثافـة، وتبقـى الكتابـة بالمقلـوب هـي المسـيطرة عـلى الخلفيـة بجميـع أشـكالها وسُـمكها...

ربمـا ينـمُّ هـذا النمـط مـن الكتابـة عـلى رؤيـة معيَّنـة وفلسـفة خاصـة للقريـشي "أنـت حينـما تنظـر لنفسـك في المـرآة تـرى وجهـك مقلوبًـا، ولكـن الآخـر يـراك بصـدق كـما أنت....النـاس بجهـل يأمـرون أطفالهـم بفعـل أشـياء لا تتـماشى مـع المنطـق، ولكـن عمومًـا الطفولـة هـي التـي أجبرتنـي عـلى الكتابـة، كتابـة أيّ شيء بالمقلـوب"[2].

وهنـا، نتسـاءل: هـل فعـلًا الطفولـة هـي التـي أجبرتـه عـلى الكتابـة بالمقلـوب، أم لأنـه بطبيعتـه يكتـب

باليـد اليـسرى؛ الأمـر الـذي يجعلـه أكـثر مرونـة في الكتابـة مـن اليسـار إلى اليمـين؟ فهـذه الكتابـة بدقتهـا وبمختلـف اتجاهاتهـا تشـعرنا وكأنَّ سُـمكَ اللطخـات الكبـيرة سـتلتهمها بسـوادها المهيـب، لتسـتنجد بقـوة تكرارهـا وكأنهـا حـين تُكـرَّر تثبـت وجودهـا إلى جانـب سـواد هائـل وسـميك، أو ربمـا يسـتند القريـشي في عملية التكـرار هـذه إلى خلفيتـه الصوفيـة، اسـتنادًا إلى مقولـة "مـا تكـرَّر اسـتقرّ"، ليكـون هـذا الفعـل التشـكيلي فعـلًا طقوسـيًّا يمارسـه القريـشي، خاصـة وأنَّ فيـه الكثـير مـن التعبـير الجسـدي، وهنـا هـو أيضًـا يسـتحضر جسـده بتلقائيّتـه المفضوحـة بتلـك اللطخـات العفويّـة وغـير المدروسـة وتلـك الكتابـة المتسرِّعـة، ليضعنـا في عـالم القلـم والريشـة والفرشـاة الصغـيرة والعريضـة، وليجعلنـا نتسـاءل: هـل هـو يكتـب أم يرسـم أم يعـبِّر؟

يضعنـا القريـشي في عـالمٍ بفضاءاتـه المختلفـة، يوهمنـا بعمقـه الحقيقـي، ويشـعرنا بتلـك المـادة القويـة (اللطخـات السـمكية) وكأنهـا ستسـقط مـن ثقلهـا عـلى

خلفيـة بعيـدة مسـتقلّة تخلـق حيويـة ونشـاط حـول هـذه اللطخـات، في تفتيـح لبعـض أجزائهـا مراوحًـا بـين الثقـل والخفّـة، في إحالـة صريحـة عـلى المـادة السـاكنة للفضـاء، يسـعى عـبر تشـكيله لتغيـير ماهيتهـا، فالبنيـة الخطيـة لديـه نظـام حـواري لمـدّ بـصري تتـوزع فيـه الكتـل والمسـاحات في قـراءة مجـزّأة للفضـاء، والكتابـة هنـا اسـتدعاء جسـدي فيـه تلقائيـة، وهـو مـا جعلنـا نزعـم بتأثُّـره بالرسـم الحـركي والفـن اللاشـكلي المعـبّر عن ثـورة فكريـة واتجـاه إلى النزعـة التجريديـة لأنَّ غايتهـا تتعـدّى العـالم المـرئي، متبلـورة في قـوة الانفعـال والحركـة التلقائيـة والتحـرر مـن الضوابـط العقلانيـة المقصـودة، خاصـة وأنـه يعيـش في الغـرب محتـكًّا بمختلـف التجـارب الفنيـة المعـاصرة لـه، فتجربتـه فيهـا اسـتغلال لطاقـات الرسـم الحـركي والارتجـال التعبـيري، ومـا يمكـن أن تمنحـه طاقـة الفرشـاة العريضـة مـن تطبيـق لفكـرة المـادة داخـل فضـاء ثنـائي الأبعـاد، وهـذا النمـط يذكرنـا بفنانـين مثـل هارتونـغ (Hartung) وبيـار سـولاج (Sou-lage) والـذي يبحـث في السـواد عـن النـور، يمكـن أن نجـده في لوحـة القريـشي، فاختيـار اللـون الـترابي المائـل إلى الأصفـر يبعـث فينـا الشـعور بالنـور، لتحـضر كلماتـه لغـة ممتلئـة لرسـائل معقـدة فيهـا تلاحـم لفكـرِه والمادة التـي يرسـم بهـا، وكأنـه يريـد اسـتنطاقها ليخـرج شـعوره الداخـلي عـلى فضـاء اللوحـة لتلعـب الكتابـة دور الفكرة المترجـم عـبر علامـات خطيـة، فهـذا النـور "نـور إلهـي وليـس نـور الشـمس... فالمسـافات والفراغـات تنعـدم لـكي تبـدو لحمـة في هـذا الكـون التصويـري الجديـد الـذي تشـابكت فيـه مصـادر الرؤيـة إلى أقـصى حـدّ ممكـن"[3]، وحتـى الحركـة الدائريـة فيهـا بحـث عـن سرّ هـذا الكـون، وكأنَّهـا في دورانهـا توالـدٌ للضـوء الـذي لا مركـز لـه وإنّمـا يتجـه بـك إلى مسـار عميـق تشـعر بـه عنـد المـدّ البـصري عـلى اللّوحـة، وتشـعرك أنـك تعيـش داخلهـا ولسـت فقـط تشـاهد مـن الخـارج.

أنسنة الأبجديّات

تتكثَّـف المعـاني وتتدفَّـق في عمـل "درب الـورود" حـين تغـزو فضـاء ثـلاثي الأبعـاد، وهـذا العمـل هـو عبـارة عـن مجسّـمات مـن الفـولاذ عـلى هيـأة أشـخاص إنسـانيّة وصفهـا "بالتواشـج البـصري والشـعري"[4]؛ وكأنَّ فكـرة الفضـاء تطـارد القريـشي، وتنبثـق روح النحـت مـرة أخـرى بعـد أن جرّبهـا عـلى سـطح الجـدار، هـو الآن يحققهـا في الفضـاء الحقيقـي، وهنـا لا يوهمنـا بقـدر مـا يجعلنـا نعيـش داخلـه، دون التخـلي عـلى ارتجاليّتـه، فحتـى في تغـير المـادة، الـروح ذاتهـا، خطـوط لينـة، في نسـق متسـارع وإيقـاع صـوتي يحمـل في ثنايـاه حالـة مـن التصـوف، وإدخـال الجسـد كلـه في كشـف مدلولات العمـل وليـس العـين فقـط، بـل يغريـك في التحـرُّك لتمتلـك العمـل، أو ربمـا هـو الـذي يمتلـكك، وكلـما اختلفـت زاويـة النظـر اختلـف الإحسـاس بالعمـل، فهـذه المجسـمات تُنتـج بنـاءً متكامـلًا، لا تـكاد تميـز بـين مجسّـم وآخـر، فانسـيابها أعطـى تركيبـة حركـة سـاهمت في تفعيـل تشـكُّلها في الفضـاء، لتخـرج مـن الفضـاء المغلـق إلى الفضـاء المفتـوح: "لا يقـف معنـى المـكان/ اللوحـة عنـد القريـشي في حـدود معنـاه الأول، كمسـاحة مسـطحة يسـتعملها لعكـس أفـكاره واسـتلهاماتها، بـل يتعـدى هـذا المفهـوم للأحـوال إلى تبنّـي المـكان وإدماجـه كعنـصر مـن عنـاصره الأخـرى المتشـابكة (الهواجـس، الخـط، الأداة...) ضمـن إيقـاع التوجهـات والبحـث عـن العلاقـة بـين الفـراغ والامتـلاء بـين الأبيـض والأسـود، بـين عـرض السـند والتفـاف الشـكل الحـرفي"[5].

هـذا الاتجـاه النحتـي، لم يكـن بمعـزل عـن التأثـر ببعـض الفنانـين الغـرب مثـل "كالـدار" (Calder) و"جاكومـاتي" (Giacometti) وآخـرون، فهـذه الأعـمال فيهـا اسـتثمار للحركـة الفعليـة لتأسـيس أسـس جديـدة للنحـت تقـوم عـلى التجريـد الهنـدسي وديناميكيـة في التكويـن واسـتغلال عديـد الوسـائط المولِّـدة للحركـة، ولكـن في عمـل القريـشي، تولِّدهـا العـين نتيجـة للهيكلـة البنيويـة

للمجسـمات الفولاذيـة المتكـررة في انسـياق لمادتهـا في الفضـاء، ليكـون الفـراغ حضـورًا غـير مهمَّـش، وإنَّمـا قصـديٌّ لتحقيـق التـوازن البـصري، فكلـما ازداد، ازداد الشـعور بالفضـاء، في ترديـد حـركي منتظـم، يشـكل وحـدة متكاملـة، في تصميـم لا نهـائي يضفـي صبغـة تواصليـة للفضـاء "فالتناغـم الحـركي المسـتمر للتوزيـع المـكاني لعنـاصر التصميـم في سـياق شـكل تأليفـي توالـدي لا يكـسر حـدّة الوحـدة العضويّـة وأنفـاس الفنـان القصديّـة والأسـلوبيّة التعبيريّـة ليدخـل فيـه المكـرّر والمتـدرّج والتنـوُّع الشـكلاني للمكوِّنـات"[6]، لينسـحب هـذا العمـل في الفضـاء العـام راسـمًا ظـلالًا غـير محـدودة تكـون حالـة غريبـة، وكأنَّ القريـشي إلى جانـب التّشـكيل بالفـولاذ يشـكِّل أيضًـا بالظـلّ "الظـل يتابعـك في أيّ مـكان تسـير فيـه، إنـه يخـرج منـك ويسـير أمامـك وخلفـك عـلى الأرض، دائمًـا يلاحقـك كأثـر٠ وفي حضارتنـا أيضًـا الـكل يتسـاوى في مسـألة الظـل، النـاس في الكنيسـة يجلسـون عـلى مقعـد واحـد عريـض وفي المسـجد كل واحـد يضـع قدمـه في محـاذاة قـدم الآخـر، لا فـرق يـين غنـي وفقـير أو طويـل وعريـض، فالـكل لديهـم ظـلّ ينسـحب معهـم إلى قبورهـم"[7].

إنَّ حيويّـة المجسَّـمات عـلى شـكل الهيئـة الإنسـانيّة مـع انعـكاسٍ لظلِّهـا خلقـت ديناميكيـة أكبر في الفضـاء العام، أصبحنـا نشـعر وكأنَّ المجسّـمات أشـخاص حقيقيـون يتحركـون، حـروف أو أشـباه لحـروف ممتـدة وملتويـة غـير مقـروءة، ولكنهـا تكتسـب حيويـة ومطواعيـة الحـروف في انصهـار بـين الضـوء والظـل، وكأنَّ الظـل يماهـي الفـولاذ في قوّتـه وصلابتـه بتسـجيل حضـوره، ويتحـوَّل الظـل إلى فعـل تشـكيلي مثلـه مثـل بقيـة المقومـات التشـكيلية للعمـل الفنـي، في تعبـيرٍ فلسـفيٍّ لقـوة الحضـور الـذي يعـود إلى الفنـاء في النّهايـة.

الهوامش:

1. بنكراد سعيد: النص السردي نحو سميائيات للأيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، ص16.
2. البوابة الإلكترونية: http://universes-in-universe.de/islam/ara/2003/01/koraichi/koraichi-bb.html
3. عفيفي بهنسي: الفن التشكيلي العربي، الأولى للنشر والتوزيع، ط1، 2003.
4. صحيفة المنار، تصدر عن مؤسسة الجنوب للصحافة والنشر.
5. محمد بوذينة: مشاهير فنّ الرسم، منشورات محمد بوذينة، الحمامات، تونس.
6. عبدالله أبوراشد: التذوق الفني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية.
7. البوابة الإلكترونية:/ http//Universes –in – universe. de islam /ara/2003/01/Koraichi-bb.html

مكتبة الخالدية
أشهر مكتبات القدس

داخل مكتبة الدومنكان

باب الخليل
"باب يافا"-1905

ساحة المسجد الأقصى
من الواجهة الغربية
- 1881

المكتبات التاريخيّة في القدس العتيقة

عرفة عبده علي*

في فلسطين خزائن كتب عامة وخاصة كثيرة، يقع معظمها في مدينة القدس، أمّا خزائن الكتب العامة فأشهرها مكتبة المسجد الأقصى في القدس، ويبدو من مراجعة فهرسها أنها تحوي كتبًا دينيّة مخطوطة قُدِّر عددها بألف مخطوط كالمصاحف والربعات، وكُتِبَ أكثرها في العصرين المملوكي والعثماني. وتُعدُّ المكتبة الخالدية في القدس أهمّ خزائن الكتب الخاصة في فلسطين وأغناها، وفيها عشرة آلاف كتاب؛ ثلثاها مخطوط وثلثها الآخر من نوادر المطبوعات القديمة في العلوم العربيّة والإسلاميّة.

كان فتح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" لمدينة القدس سنة 583هـ/ 1178م بداية سعيدة للحياة العلمية التي عمّت ديار الشام عامة وفلسطين خاصة. ولم تمنع صلاح الدين مشاغله الحربيّة وهمومه السياسيّة من الاهتمام بالعلم وأهله، وإعادة بناء ما خرّبه المغول والتتار والصليبيون من دور علم، وما أحرقوه من خزائن كتب، وما هدموه من مدارس وجوامع ومنشآت حضاريّة تمثل الوجه الناصع للحضارة العربية الإسلامية.

استهلَّ صلاح الدين عهده في فلسطين بعملين جليلين هما إنشاء المدارس والعمل على تزويد المسجد الأقصى بالكتب الدينية والعلمية. فقد عمد إلى تحويل الدار التي بناها فرسان المنظمة الصليبية العسكرية المسمّاة "الاسبتارية" إلى مدرسة كبرى (هي المدرسة الصلاحيّة) يُدرَّس فيها الفقه الشافعي. وعن ذلك كتب العماد الأصفهاني: "فاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعيّة ورباط للعلماء الصوفيّة فعيّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنّة عند باب الأسباط وعيّن دار البطرك للرباط ووقف عليهما وقوفًا"، كما كتب مجير الدين العليمي مشيرًا إلى حرص صلاح الدين على تزويد هذه المدارس بالكتب: "إنَّ السلطان صلاح الدين أمر بهدم البناء الذي أقامه الصليبيون في الصخرة، وأعادها كما كانت ورتّب لها إمامًا حسن القراءة ووقف عليها دارًا وأرضًا وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات شريفة".

وقد سار الأيوبيون على سنّة صلاح الدين في تأسيس المعاهد العلمية وتزويدها بالمدرّسين والكتب المخطوطة، كما جدّد الملك المعظم عيسى بن أحمد بن أيوب بناء المدرسة الناصرية، أو الغزالية، وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتبًا في جملتها "إصلاح المنطق" لابن السكِّيت وهو بخطّ الإمام النحوي ابن الخشّاب، ويقول العليمي إنه وقف على كراسة من هذا الكتاب وعلى ظهرها الوقف وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة سنة 610هـ/ 1214م.

وفي فلسطين خزائن كتب عامة وخاصة كثيرة، فأمّا العامة فأشهرها مكتبة المسجد الأقصى في القدس، ويبدو من مراجعة فهرسها أنها تحوي كتبًا دينيّة

* كاتب ومؤرخ مصري
arafa_aa@yahoo.com

مخطوطة قُدِّر عددها بألف مخطوط كالمصاحف والربعات، وكُتب أكثرها في العصرين المملوكي والعثماني، وفي الخزانة أيضًا كتب متفرقة في الأدب والفقه على المذاهب الأربعة والتفسير والحديث، ولعلّ أنفَس ما حوته الخزانة المذكورة وأشار إليه مفهرسوها مخطوط كتاب "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" للمؤرخ المصري ابن إياس (-852 930هـ)، ومخطوط "تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم" لأبي بكر الخطيب علي بن ثابت البغدادي المتوفى سنة 464هـ/ 1072م ومخطوط "طبقات الشافعية" لتقي الدين ابن قاضي شبهة الدمشقي المتوفى سنة 851هـ/ 1448م ومخطوط "كتاب الأقاليم" للإصطخري المتوفى سنة 340هـ/ 952م ويقال إنَّ المخطوط يرجع إلى القرن الخامس وأوائل السادس، وفي الخزانة نحو عشرة آلاف كتاب أكثرها مطبوع.

أمّا خزائن الكتب الخاصة فكثيرة منها:

- مكتبة آل أبي اللطف في القدس.
- مكتبة آل البديري في القدس، وأسرة البديري أسرة عريقة كانت لديهم خزائن كتب مخطوطة تبدّدت بعد أن اقتسموها، وآلَ قسم من مخطوطاتها إلى الشيخ محمد البديري فجعلها في جناح من أجنحة المسجد الأقصى.
- مكتبة آل الترجمان في القدس.
- مكتبة آل الجوهري في نابلس.
- مكتبة آل الحسيني في القدس.
- مكتبة آل الخالدي في القدس.
- خزانة آل الخليلي في القدس، وقد وقفها الشيخ محمد بن محمد الخليلي مفتي الشافعية المتوفى سنة 1147هـ/ 1734م، ويُقال إنَّ الشيخ الخليلي أوَّل مَن بادر بفكرة إيجاد مكتبة عامة في القدس استنادًا إلى وقفيّة كتبه، وقد حفظت الكتب المذكورة في المدرسة البلدية التي كان قد أنشأها بباب السلسلة نائب السلطان الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدي المتوفى سنة 782هـ/ 1381م.
- مكتبة آل الدّاودي في القدس.
- مكتبة آل صوفان في نابلس، وفيها مخطوط نفيس عنوانه: "مناقب الإمام أحمد بن حنبل" من تأليف الحافظ بن الجوزي مؤرخ سنة 599هـ.
- خزانة عبدالله مخلص (-1878 1947م) في القدس في حيّ الشيخ جرّاح، وقد حوت نفائس المخطوطات، ويبدو أنَّ المكتبة نقلت بعد حوادث 1948 إلى بعض الأديرة التي بقرب سور المدينة ونهبها الصهاينة إبّان معارك 1948.
- خزانة آل قطينة في القدس بباب العمود: آل قطينة أسرة حنبليّة يقال إنهم الحنابلة الوحيدون في القدس، وفي الخزانة مخطوطات نفيسة في الرياضيات والفلك والتنجيم لم يبق منها اليوم شيء.
- مكتبة محمد إسعاف النشاشيبي في القدس.
- خزانة محمود اللحام بضاحية سلوان (شرقي القدس)، وفيها أربعة آلاف مصنَّف.
- خزانة آل فخري، وقد وقفها القاضي فخر الدين أبو عبدالله محمد بن فضل ناظر الجيوش الإسلامية المتوفى سنة 732هـ/ 1332م، وهذه الخزانة قسم من الخانقاه الفخرية المجاورة لجامع المغاربة، وكانت تحتوي على عشرة آلاف مجلَّد اقتسمها أفراد الأسرة فتفرّقت كتبها.
- مكتبة آل الموقت في القدس.

وفي القدس وغيرها من مدن فلسطين خزائن كتب مسيحيّة عربيّة وأجنبيّة أكثرها تابع للطوائف الدينية والبعثات الأثرية والتبشيرية الفرنسية والإنجليزية والأميركية، ومنها:

- مكتبة دير الكرملين في الضاحية الشرقية من حيفا، وفيها صكوك قديمة ذات علاقة بالدير.

- مكتبة القبر المقدَّس.
- مكتبة دير الروم، وفيها 2.733 مجلدًا باليونانية وغيرها بينها مخطوطات يونانية مؤرخة في القرن العاشر للميلاد.
- مكتبة دير الدومينيكان.
- مكتبة الآباء البيض.
- مكتبة دير الفرنسيسكان.
- مكتبة دير الأرمن.
- خزانة الآثار الأميركية.
- خزانة الآثار الإنجليزية.
- مكتبة المجمع العلمي الأثري البروتستاني.

المكتبة الخالديّة

تُعدُّ المكتبة الخالدية في القدس أهمّ دور الكتب الخاصة في فلسطين وأغناها. وكانت المكتبة مدرسة قد آلت ملكيتها إلى السيدة خديجة الخالدي ابنة القاضي موسى أفندي الخالدي قاضي عسكر بر الأناضول، فأوصت ولدها الحاج راغب الخالدي رئيس المحكمة الشرعية بيافا (المتوفى سنة 1951) أن يقفها وينقل إليها كتب الأسرة الخالدية. فنفَّذ وصيّتها سنة 1318هـ/ 1900م بمشورة ومعونة الشيخ طاهر الجزائري مؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق والشيخ أبي الخير محمد بن الحبال الدمشقي، فوضعا فهرسًا بأسماء كتبها. وقد جاء في "برنامج المكتبة الخالدية العمومية" وصف للظروف التي تم بها تأسيس المكتبة وجعلها دار كتب عامة: "وفَّقَ الله جانب الفاضل راغب أفندي الخالدي وموسى شفيق أفندي الخالدي إلى تشييد غرفة رحبة على جادة باب السلسلة في القدس الشريف وضعوا فيها كمية وافرة مما وجد عندهم من بقية كتب آبائهم وأجدادهم، وأضافوا إليها بعضًا من الكتب الموجودة عندهم أيضًا، وجعلوا الغرفة المذكورة دار علوم عمومية لمن يرغب المطالعة من أيّ فرد كان، وشرّطوا أن لا يخرج منها كتاب حرصًا على المنفعة العامة، وهي مفتوحة الأبواب لجميع الطلاب كل يوم من الصباح إلى المساء، وعيّنوا لها محافظًا أمينًا".

وتحتوي المكتبة على عشرة آلاف كتاب ثلثاها مخطوط وثلثها الآخر من نوادر المطبوعات القديمة في العلوم العربية والإسلامية. وقد ضمّت إليها خزانتا الشيخ يوسف ضياء باشا الخالدي ومحمد روحي الخالدي، وضمّت بعدئذ إليهما خزانة الشيخ أمد بدوى الخالدي بالإضافة إلى ما أُهدي إليها من نفائس مطبوعات المستشرقين. وتبيَّن من مطالعة فهرست المكتبة أنها تحوي كتبًا في التفسير والتجويد والقراءات والرسم والحديث والأصول والفتاوى والفقه الحنفي والفقه على المذاهب الأربعة والفرائض والتوحيد والتصوّف والمواعظ والحكم والنحو واللغة والأدب والسياسة والقوانين والدواوين والمدائح النبوية والسيرة النبوية والمناقب والتراجم والفلك والطب والروحانيات، وفيها عدد كبير من المجاميع في مختلف العلوم الدينية والدنيوية.

هكذا كانت القدس الشريف -مدينة التاريخ والمقدسات- بروائع عمارتها الإسلامية، وبمكتباتها ومدارسها وعلمائها، منارةً للعلوم والثقافة الإسلامية أيام مجدها العربيّ.

المصادر والمراجع:

- ابن الجوزي: فضائل القدس، تحقيق وتقديم جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980.
- ابن واصل، أبو عبدالله المازني التميمي: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، حسنين ربيع، سعيد عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة -1957 1961.
- دانيال الراهب (الحاج الروسي): وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، داود أبوهدبة، دار الشروق، عمّان، 2003.
- العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي من الفتح القدسي، دار المنار، القاهرة 2004.
- مجير الدين العليمي الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة دنديس، عمّان، 1999.
- عواد مجيد الأعظمي: معالم التراث العربي والإسلامي في فلسطين، جامعة بغداد، 1975.

شخصيّات إعلاميّة
الإعلامي عدنان الزعبي

عامر الصمادي*

حول عدم نجاح كثير من الإعلاميين الذين يظهرون على الشاشات هذه الأيام، وأمام فقدان الجمهور لثقته بالإعلام بشكل عام، يقول الإعلامي الفذّ عدنان الزعبي ملخِّصًا الكثير من الكلام: "الإعلام رسالة؛ الكلمة والصوت والصورة هي وسائلها، والحقيقة ذخيرتها، يحملها مَن يحبّها ويؤمن بها، فإذا ارتاح الجمهور لحامل الرِّسالة صدَّقوا مضمونها لأنَّها تكون قد وصلت وأحدثت تأثيرها". فأين نحن من هذه القاعدة؟

يعتبر الإعلامي المتميِّز عدنان الزعبي واحدًا من ألمع نجوم الشاشة والراديو في الأردن، حيث ترك بصمة واضحة على الأداء الإعلامي، وكان بحقّ من أكثرالمذيعين رسوخًا في ذهن المشاهد والمستمع الأردني والعربي، ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها أنه يتمتَّع بكاريزما خاصة على الشاشة وصوت قوي واضح ومخارج حروف متميِّزة، فكان نطقه للكلمات يختلف عن غيره، إضافة إلى إتقانه للُّغة الإنجليزية التي درسها بجامعة دمشق وتخرج فيها عام 1972، ناهيك عن وسامته وأناقته اللافتة للنَّظر، كلها عوامل ساعدت في تشكيل هالة حقيقيّة حوله كإعلامي متميِّز، ومَن أسعده الحظّ بالتعرُّف إليه عن قرب سيزداد محبّة له؛ فهو دافئ العلاقة مع الآخرين، حلو اللسان والمعشر وطيِّب القلب، لكنّه مع ذلك حازم صارم عندما يتعلق الأمر بالعمل، يصرُّ على المهنيّة أوّلًا ولا يتنازل عن تقديم الأفضل، إلّا أنَّ حزمه يأتي بأسلوب هادئ دون علوّ الصوت أو استخدام الألفاظ الجارحة والمؤذية؛ ممّا يجعل مَن يتعامل معه يحمل له الكثير من مشاعر الودّ والاحترام.

تعود معرفتي به إلى بدايات تفتُّح الوعي على الدنيا عندما بدأتُ أتابع التلفزيون وأهتمّ بالسياسة من خلال متابعة نشرات الأخبار، فكان عدنان الزعبي من الذين أحبُّ متابعتهم والاستماع إلى الأخبار منهم نظرًا لما ذكرتُه سابقًا عن تلك الكاريزما التي يتمتَّع بها. وبعد عملي بالتلفزيون في بداية التسعينات من القرن الماضي أصبحتُ ألتقي به بين الفينة والأخرى، لكنَّ العلاقة تعمَّقت بعد أن تولى إدارة القناة الفضائيّة الأردنيّة، وما زلتُ أذكر مواقفه الدّاعمة لي كلّما صدر لي كتاب جديد أو نشرتُ مقالًا

* **إعلامي ومدرب دولي ومترجم وكاتب أردني**

amer2003@hotmail.com

من أرشيف صور
عدنان الزعبي

أو ترجمةً ما في الصُّحف، حتى إنه ذات يوم وبعد صدور إحدى المجموعات القصصيّة لي بادرني بالقول: "كيف تجد الوقت لكل ذلك؟"، خاصة أنَّني كنتُ في بدايات الشباب وزملائي بالعمل الذين يعرفهم يقضون أوقاتهم بالسهر واللهو والتمتُّع بالشُّهرة التي اكتسبناها تلك الأيام قبل انتشار الفضائيّات. وأذكر أيضًا كيف كلَّفني ذات يوم وفجأة بتقديم حلقة خاصة كانت عبارة عن لقاء مع سبعة من رؤساء اتحادات الأدباء والكُتّاب العرب الذين كانوا يعقدون مؤتمرهم في عمّان، وكان مقرَّرًا أن يقدِّمها زميل آخر، لكن لا أدري لماذا غيَّرَتْ الإدارة رأيها، ولم يكن قد بقي على موعد بثّ اللقاء على الهواء مباشرة سوى أقل من ساعتين، وعلى الرّغم من صعوبة الموقف يومها إلا أنه كان هادئًا وهو يقول لي: "أنا واثق أنك ستبدع اليوم"، وبالفعل قدَّمتُ ذلك اللقاء الذي استمرَّ ساعة ونصف وتطرَّقتُ فيه إلى الكثير من القضايا التي تواجه الحركة الثقافيّة والأدبيّة في الوطن العربي، وساعدني جدًا يومها أنني كنتُ أحضر معظم الأنشطة الثقافية بما في ذلك مؤتمر اتحاد الأدباء والكتاب العرب الذي يُعقد في عمّان، فكانت مغامرة منه باختياري ومغامرة منّي بالقبول، لكنَّ الله وفّقني يومها ممّا زاد من ثقته بي، حتى إنه عندما عاد مديرًا عامًا للإذاعة والتلفزيون بعد تلك الحادثة بحوالي سبعة عشر عامًا استدعاني بعد أيام من تولّيه المسؤولية وطلب منّي أن أفكر ببرنامج كبير يكون فريدًا من نوعه ومتميّزًا بمضمونه، فكان برنامج "يا طير" للمغتربين والذي استمرَّ حوالي عشر سنوات بالتلفزيون، ثم أوقفه أحدهم دون أيّ سبب مهني. وقد سخَّر الزعبي كل الإمكانيات الممكنة لإنجاح البرنامج على الرّغم من شحِّها وكثرة المتهافتين الذين تداعوا عليه لإفشال مهمّته، ولأنَّ طبيعة البرنامج تتطلّب السفر إلى الكثير من البلدان للقاء المغتربين الأردنيين ومع عدم توفر الموازنة اللازمة فقد طلب مني أن أسخِّر علاقاتي مع التلفزيونات العربية بحيث نخفِّف التكاليف على التلفزيون الأردني، فكنتُ أتواصل مع زملائي هناك لأحصل على كل الإمكانيات الفنيّة دون مُقابل، بل حتى إنهم كانوا يغطّون تذاكر السفر والإقامة وأنا لم أكن أتقاضى مياومات عن سفري، فكانت التكلفة صفر بالنسبة للتلفزيون الأردني. حتى إنَّ الزعبي أصبح يفتخر بذلك أمام العاملين قائلًا لهم: "حبذا لو أنَّ لدينا عشرين واحدًا مثل عامر الصمادي لتغلّبنا على أزمتنا الماليّة وقدَّمنا أفضل البرامج".

استطاع عدنان الزعبي أن يصل إلى أعلى المناصب الإعلاميّة في الأردن بالتسلسل الوظيفي وبمهنيّته العالية، فأصبح مستشارًا إعلاميًّا لرئيس الوزراء عام 2002 وقبلها عُيِّن أمينًا عامًا لوزارة الإعلام، وأحيل إلى التقاعد وهو في عزِّ عطائه وكان قبلها مديرًا للمحطة الفضائيّة الأردنيّة بين عامي 1996 و1999.

في عام 2011 تمَّ تعيينه مديرًا عامًا للإذاعة والتلفزيون لمدة لم تتجاوز أحد عشر شهرًا كان خلالها من أفضل المدراء الذين تعاقبوا على المؤسسة لأنه ابن المهنة ويعلم متطلّباتها وخفاياها، لكن بسبب مهنيّته وعدم الرضوخ للمطالب الشخصيّة والواسطة تمَّت الإطاحة به بإحالته على التقاعد مرَّة أخرى قبل أن يتمكّن من تنفيذ الكثير من الأفكار والتصوُّرات التي وضعها للنهوض بمؤسسة الإذاعة والتلفزيون، لكنَّ قرار التقاعُد سرعان ما أُلغي وعاد الزعبي مديرًا عامًّا في حادثة تكاد تكون الوحيدة من نوعها في الإدارة العامة الأردنيّة.

بدايات العمل الإعلامي

الإذاعة

يقول عدنان الزعبي عن بدايات التحاقه بالعمل في الإذاعة الأردنية عام 1973 وهو العائد حديثًا من دمشق ويسكن مدينة الرمثا بأقصى شمال الأردن بعيدًا عن العاصمة عمّان:

"بعد التخرُّج في الجامعة أخبرني أحد الأصدقاء أنَّ الإذاعة الأردنية أعلنت عن حاجتها لمحرّرين ومذيعين، فقدّمتُ طلبًا وخضعتُ لامتحان وبعدها حصلتُ على الوظيفة. وبعد ستة أشهر نُسِّبتُ لدورة مذيعين مدّتها ستة أشهر أغلبها ميداني، وقد حصلتُ على المركز الأوّل في هذه الدورة، التي تبعتها دورة إنتاج وإخراج في بريطانيا مدّتها أربعة أشهر في أعرق الإذاعات العالميّة (BBC).

بعد ذلك تمَّ تعييني في قسم جديد أراده معالي الأستاذ مروان دودين -مدير الإذاعة آنذاك- بديلًا عن التعليقات السياسية، وسُمِّي القسم الجديد "قسم البرامج الإخباريّة" وكنّا نقدِّم من خلاله برنامج "شريط الأنباء" يوميًّا بعد نشرة أخبار الثانية ظهرًا، بالإضافة إلى برنامج أسبوعي باسم "حدث الأسبوع". وكان برنامج "شريط الأنباء" وقتها نقلة نوعيّة في البرامج الإخبارية وكان له ثمانية عشر مندوبًا في عواصم العالم؛ لندن، باريس، واشنطن، بون، وموسكو، وفي عدد من العواصم العربية.

كان الأستاذ عبدالسلام الطراونة رئيسًا للقسم وكنتُ مساعدًا له، وعندما تمَّ تعيينه مديرًا للأخبار أصبحتُ رئيسًا لهذا القسم. وكنتُ في الوقت نفسه أقرأ نشرات الأخبار، وأقوم بإعداد وتقديم البرامج المختلفة مثل "حدث الأسبوع"، "الساعة الثالثة"، "شراع النغم" وغيرها. ثم عُيِّنتُ كبيرًا للمذيعين".

ولا يخفي الزعبي فخره بأنه كان من الجيل الثاني الذين أسَّسوا العمل الإذاعي وأنه تتلمذ على أيدي نخبة من الكبار؛ مفكرين وسياسيين وأدباء وشعراء ومحترفين كالأساتذة: سليمان المشيني، معاذ شقير، عائشة التيجاني، محمود الشاهد، عبدالرحيم عمر، عزالدين المناصرة، بسام عازر، صالح ريان، إبراهيم الذهبي، عصمت النشاشيبي (زوج المذيعة الراحلة كوثر النشاشيبي)، طارق مصاروة، جبر حجات، سلامة محاسنة.

حُسن اختيار الكوادر

وحول طريقة اختيار العاملين في الإذاعة والتلفزيون في ذلك الوقت، وعدم السماح للواسطة والمحسوبيّة بالتدخُّل في اختيار الأكفّاء يقول الزعبي:

"عندما تقدَّمتُ بعد تخرُّجي للعمل في الإذاعة الأردنية، أخبرتُ أحد الأصدقاء بالأمر فقال إنَّ مدير الإذاعة صديقه (وكان وقتها الأستاذ مروان دودين)، فأعطاني "كرته" وقال سلِّمه لصديقي، وفعلًا حملتُ "الكرت" وطلبتُ مقابلة المدير وسلَّمتُ عليه وقلتُ له: "هذا الكرت من صديقك فلان"، قرأه وضحك وقال لي: "قُل لصديقي العزيز إنَّ هذه مهنة وليست وظيفة، وهناك شروط يجب أن تتوفر في الشخص المطلوب وسيتضح هذا الأمر من خلال امتحان تحريري وامتحان صوت وصورة، فإذا اجتاز الشخص هذين الامتحانين نجح في الحصول على العمل في الإذاعة"، وأضاف: "اذهب وقدِّم طلبًا واعمل المطلوب وستأتيك النتيجة"، وهذا فعلًا ما حدث. بعد عشرين يومًا من تقديم الامتحانين وصلني كتاب مدير الإذاعة بأنني قد نجحتُ وعليّ الالتحاق

بعملي في الأول من تشرين الأول عام 1972".

التأهيل المطلوب

وحول ما يشاهده عدنان الزعبي هذه الأيام من انتشار الإذاعات والتلفزيونات الخاصة دون مراعاة لحسن اختيار المذيعين والمذيعات، ومقارنته مع ما مرّ به جيله من مراحل بالاختيار ثم بعدها بالتأهيل والتدريب، يقول:

"التحقتُ بالعمل ودخلتُ في دورة مدتها ستة أشهر أغلبها ميداني وبعد فترة تبعتها دورة في بريطانيا مع الـBBC في كل فنون العمل الإعلامي من إنتاج وإخراج ومونتاج وتحرير الأخبار وقراءتها. وكلما أتيحت لي فرصة لتعلُّم فن جديد من فنون العمل الإعلامي أقوم بذلك، ومع ذلك أشعر دائمًا أنني بحاجة إلى المزيد، بينما يسوؤني ما أجده هذه الأيام من وضع أشخاص غير مؤهلين على الشاشات أو وراء الميكرفونات دون تدريبهم بشكل جيِّد؛ الأمر الذي ينعكس على مستوى الأداء".

التدريب التجريبي

أمّا بعد التدريب الجيد وقبل البدء الفعلي بالعمل فقد كان النظام المعمول به هو ألا يُسمح لنا بقول "هنا عمّان إذاعة المملكة الأردنيّة الهاشميّة" إلّا بعد توزيعنا لمرافقة المذيعين الأقدم والذين أصبحوا محترفين، ونبدأ بدخول الاستوديو معهم دون أن نتفوّه بأيّ كلمة، علينا فقط أن نعيش الأجواء لمدة ثلاثة أشهر، ومن بعدها يقدِّم المذيع المحترف تقريرًا عن وضع المتدرِّب وقدراته وبماذا ينصح في مجال قدرته على العمل.

الانتقال إلى التلفزيون

بعد سنتين من العمل الإذاعي انتقل الزعبي إلى التلفزيون -وكانت الإذاعة يومها مؤسسة مستقلة عن التلفزيون لكل منها مديرها- لكن كانت عيون

من أرشيف صور عدنان الزعبي

المدراء مفتوحة على الكفاءات الموجودة في المؤسسة الأخرى، ويبدو أنَّ هناك ظرفًا ما أجبر التلفزيون على الاستعانة بالإذاعة لتقديم نشرات الأخبار، وعن ذلك يقول عدنان الزعبي:

"صدفة أخرى عندما هاتفني المرحوم الأستاذ جورج حداد الذي كان وقتها مديرًا لأخبار التلفزيون، وقال: "لو سمحت إلبس أواعيك وتعال مشان تقرأ نشرة الساعة الثامنة"، وكان ذلك سنة 1975. وعلمت فيما بعد أنَّ الزميل منير جدعون اختلف مع الأستاذ جورج وغادر المؤسسة غاضبًا. عندما دخلتُ الاستوديو مع الزميلة الأستاذة لمياء النمري وجلسنا على مقاعدنا كانت الساعة أمامي تقترب من الثامنة، وأخذ قلبي يخفق لدرجة أنني كنتُ أسمع نبضاته بأذني، وما هي إلا دقائق حتى استقرَّت الأمور وأكملنا نشرة الأخبار، ومن يومها استمرَّت المسيرة في التلفزيون وفي الوقت نفسه كنتُ أتعاون مع الإذاعة في قراءة نشرات الأخبار".

وبالإضافة إلى نشرات الأخبار أعدَّ الزعبي وقدَّمَ مجموعة من برامج المقابلات مثل برنامج "لقاء الاثنين"، وبعده البرامج الوثائقية ومن أهمها برنامج عن البتراء بالتعاون مع التلفزيون الإسباني وقد تمَّت ترجمته إلى عدة لغات، وسافر الزعبي إلى مدريد برفقة الزميل المخرج سميح يوسف للإشراف على إنتاج البرنامج.

وبعد فترة أعدَّ برنامجًا تلفزيونيًّا خدميًّا تحت عنوان "لقاء الأربعاء" وكان شبيهًا ببرنامج "اللقاء المفتوح" في الإذاعة، وقدَّم عددًا من البرامج المنوَّعة والثقافيّة والخاصة.

كما قدَّم مع الزميلين جمان مجلي وسلامة محاسنة أكثر من مئتي حلقة وثائقيّة من إنتاج إذاعة BBC حملت عنوان "الجامعة المفتوحة".

الزيارات الرسميّة الملكيّة والمناسبات الوطنيّة

اختير عدنان الزعبي لمرافقة جلالة الملك الحسين طيب الله ثراه، وفيما بعد جلالة الملك عبدالله الثاني أطال الله بعمره ولمدة اثنين وعشرين عامًا لتغطية الزيارات الرسميّة الملكيّة لدول العالم، بالإضافة لتغطية مؤتمرات القمّة العربيّة والمناسبات الوطنيّة، ولعلَّ أبرز ما يذكره الأردنيون من أبناء الأجيال السابقة اختياره للتعليق على وصول الراحل الكبير الحسين بن طلال عند عودته من رحلة علاجه الأولى من مرض السرطان عام 1992، حيث خرج عشرات الآلاف من الأردنيين إلى الشوارع لاستقباله من مطار ماركا بعمّان وحتى القصور الملكيّة، وقام التلفزيون الأردني بنقل مراسم الاستقبال على الهواء مباشرة وكان المعلِّق الرئيس هو عدنان الزعبي الذي افتتح حديثه يومها مخاطبًا الحسين (دعني أقبِّل عينيك، فعيناك.....)، وبقيت هذه العبارات تتردَّد على مسامع الأردنيين لسنوات إلى أن توفي الحسين رحمه الله.

الإدارة الإعلاميّة

وفي عام 1996 عُيِّن مديرًا للمحطة الفضائية الأردنية، وكان بثها آنذاك منفصلًا عن التلفزيون الأردني الذي كان محطة أرضية. وكان فيها عدد قليل من الموظفين وتعتمد على برامج التلفزيون في الغالب، وعندما غادرها كان بها خمسة وثلاثون محترفًا من المذيعين والمذيعات والمخرجين والمنفذين والمعدّين. ويستذكر الزعبي عددًا من البرامج التي يعتزّ بها خلال إدارته للمحطة الفضائية الأردنية مثل برنامج "المقهى الثقافي" وهو من إعداد وتقديم إكرام الزعبي، وبرنامج "عالهوا سوى" إعداد وتقديم أسيل الخريشا وأيمن الزيود، وبرنامج "من عمّان مع التحيّة" إعداد وتقديم إخلاص يخلف ومحمد الوكيل، وقد اتصل جلالة الملك الحسين رحمه الله به وأعرب

عـن دعمـه للقنـاة الفضائيّـة وارتياحـه لبرامجهـا، وكان جلالتـه وقتهـا في "مايوكلينـك" للعـلاج.

في عـام 2000 نُقـل الزعبـي إلى وزارة الإعـلام أمينًـا عامًـا بالوكالـة، لكـن الـوزارة أُلغيـت فيـما بعـد حيـث عُـيِّن بعدهـا مستشـارًا إعلاميًـا لرئيـس الـوزراء ثـم أحيـل إلى التقاعـد.

وفي عـام 2011 عـاد مديـرًا عامًـا لمؤسسـة الإذاعـة والتلفزيـون، كـما أسـلفنا، وكان ذلـك بنـاء عـلى خطـة قدَّمهـا قبـل التعيـين مدتهـا ثـلاث سـنوات، لكـنَّ الحكومـة لم تمهلـه لاسـتكمال الخطـة، ومـع ذلـك حققـت المؤسسـة العديـد مـن الإنجـازات والتقـدُّم البرامجـي والإخبـاري في السـنة التـي خـدم بهـا في هـذا المنصـب، ومنهـا إثارتـه لقضيّـة الوضـع التكنولوجـي لمؤسسـة الإذاعـة والتلفزيـون، حيـث قـدَّم شرحًـا وافيًـا لجلالـة الملـك عبداللـه الثـاني حـول الوضـع التكنولوجـي المـتردّي للمؤسسـة، وكيـف أنَّ الأقـمار الصناعيـة أنـذرت الأردن بـأنَّ هـذه الأقـمار لـن تكـون قـادرة عـلى اسـتقبال إشـارة البـث للفضائيّـة الأردنيّـة لأنَّ البـثَّ كان بالنظـام القديـم (آنالـوغ- Analogue)، وقـدَّم الزعبـي بعدهـا دراسـة لـضرورة وكيفيّـة تجديـد هـذا النظـام، فأمـر جلالـة الملـك بتخصيـص مبلـغ واحـد وعشريـن مليونًـا لتجديـد كامـل التكنولوجيـا بنظـام HD بنـاء عـلى الدراسـة التـي قدَّمهـا.

ومـن البرامـج التـي يعتـزّ بهـا الزعبـي في تلـك الفـترة، برنامـج "اللقـاء الثالـث" مـن إعـداد وتقديـم الزميـل جهـاد المومنـي والـذي اسـتضاف بـه عـددًا مـن كل أطيـاف المعارضـة. وقـد اعـترض دولـة رئيـس الـوزراء آنـذاك عـلى الحلقـة الأولى مـن هـذا البرنامـج، ولكنـه عـاد ووافـق عـلى اسـتمرار البرنامـج بعـد أن شـاهد الحلقـة.

وهنـاك أيضًـا برنامـج مهـمّ وهـو برنامـج "يـا طـير" إعـداد وتقديـم عامـر الصـمادي الـذي كان صلـة وصـل بـين الجاليـات الأردنيّـة في العـالم وبـين الوطـن، وقـد حقَّـق نجاحًـا كبـيرًا في مجـال تسـهيل أمـور الأردنيّـين والتعـرُّف عـلى إنجازاتهـم وزيـارة هـذه الجاليـات في أماكنهـا، وأصبـح البرنامـج مؤسسـة بـكل معنـى الكلمـة.

تأسيس جمعيّة المذيعين الأردنيّين

كانـت هنـاك جهـود متكـررة لتأسـيس جمعيـة للمذيعين الأردنيـين لكنهـا لم تنجـح، وعندمـا عُـيِّن الزعبـي أمينًـا عامًـا بالوكالـة لـوزارة الإعـلام، فوَّضـه وزيـر الإعـلام بصلاحيّاتـه، حيـث قـدَّم مجموعـة مـن الزمـلاء طلبًـا لتأسـيس الجمعيّـة، فوافـق عليهـا نظـرًا لمعرفتـه بالحاجـة لمثـل هـذه الجمعيّـة، وهكـذا تأسسـت جمعية المذيعـين الأردنيـين، وفيـما بعـد أصبـح الزعبـي رئيسًـا لهـا عـدّة سـنوات، وكانـت هـذه خطـوة لتأسـيس نقابـة للإعلاميـين الذيـن لا يوجـد لهـم مظلّـة نقابيّـة آنـذاك.

دورات تدريبيّة وأنشطة بارزة

خـلال عملـه الإعلامـي الـذي امتـدَّ لمـا يقـرب مـن ثمانيـة وثلاثـين عامًـا حتـى الآن حصـل الزعبـي عـلى عـدد مـن الـدورات التأهيليـة بالعمـل الإذاعـي والتلفزيـوني منهـا:

- دورة تأهيليـة في الإعـلام، عـام 1973 مدَّتهـا سـتة أشـهر.
- دورة إعلاميـة معـززة في بريطانيـا، عـام 1975 مدَّتهـا أربعـة أشـهر.
- دورة إدارة عليا، 150 ساعة معتمدة عام 1996.
- وهـو عضـو فريـق إدارة حمايـة الأسرة، ورئيـس تحريـر النـشرة الدوريـة الصـادرة عـن الفريـق.
- وعضو مؤسس في الهيئة العليا للإنتاج السينمائي.
- ورئيـس جمعيـة المذيعـين الأردنيـين لمـدة لمـدة سـبع سـنوات.
- عمـل بشـكل غـير متفـرِّغ في الصحافـة لمـدة سـبع سـنوات كمحـرر سـياسي.

- قام بإعداد وتقديم البرامج السياسية، الاقتصادية والاجتماعية.
- وهو خبير إعلامي معتمد غير متفرغ في اتحاد إذاعات الدول العربية.
- مستشار إعلامي في مجمع اللغة العربية ومشرف على إذاعته خلال العامين 2018، 2019.

الأوسمة والدّرجات:

يحمل الزعبي وسام الاستقلال منذ عام 1985، ودرجة التميُّز والإبداع بقرار من مجلس الوزراء عام 1990 (ترفيع استثنائي).

نشأة رياضيّة

ما لا يعرفة الكثيرون عن الأستاذ عدنان الزعبي هو أنه نشأ نشأة رياضية، فكان لاعبًا لكرة القدم بالفرق المدرسيّة، ثم فريق كرة القدم (قبل تأسيس نادي الرمثا الرياضي عام 1966)، ثم لاعبًا معتمدًا في أوَّل فريق لنادي الرمثا، وعضو مجلس إدارة أكثر من مرَّة.

وبعد التحاقه بالجامعة في دمشق قام مع عدد من الطلبة الأردنيين بتأسيس فريق لكرة القدم تابع لاتحاد طلبة الأردن، وكان من أعضائه معالي الدكتور عزمي محافظة وزير التربية والتعليم الأسبق والذي يظهر بصورة للفريق وقتها.

تسويق النُّجوم

وحول عدم قدرة الإعلام الأردني على صناعة النُّجوم كما تفعل العديد من الدول، وأنَّ النُّجوم الأردنيين لم ينجحوا ويشتهروا إلا بعد عملهم خارج الأردن، يعتقد الأستاذ عدنان الزعبي أنَّ السبب الرئيس لذلك هو معاملة الإعلاميين بالطريقة نفسها التي تتم فيها معاملة العاملين في أيّ مهنة أو وظيفة أخرى، دون الأخذ بعين الاعتبار أنَّ لهذا النوع من المهن متطلّبات خاصة لا تتوفر بكل الناس، وتطبيق نظام الخدمة المدنيّة عليهم من حيث الراتب والحوافز وغيرها، ويضرب مثلًا على ذلك فيقول: "بعد فترة من العمل في الإذاعة، أخذتُ أتعاون مع التلفزيون في قراءة الأخبار مقابل ثلاثين دينارًا في الشهر، فقلتُ للأستاذ محمد كمال مدير التلفزيون آنذاك، لماذا لا تزيدون راتبي، فأجاب: (نحن نجعلكَ مشهورًا، فإذا كنتَ تظهر على الشاشة أربع ساعات في الشهر بمعنى مئتين وأربعين دقيقة ضرب 300 دينار في الدقيقة، بيطلعلنا عندك مبلغ ضخم كل شهر، وإحنا مسامحينك!!)، أي أنَّ الإدارات تنظر إلى الإعلامي على أنه هو المستفيد من الظهور التلفزيوني وليس العكس، إضافة إلى تدخُّل الواسطة والمحسوبية في تحديد مَن يظهر على الشاشة؛ الأمر الذي أدّى إلى تراجع كبير في القدرة على التأثير في الجمهور.

***

لا يزال عدنان الزعبي ينبض بالعطاء، وهو شعلة حركة ونشاط إلى جانب زوجته الإعلامية الكبيرة جمان مجلي (وسنفرد لها مقالًا في عدد آخر) والتي رافقته طيلة حياته المهنيّة وشكَّلت معه ثنائيًّا إعلاميًّا متميزًا (أطال الله بعمرهما)، يتابعان كل ما يجري من أنشطة وأحداث حولهما إلى جانب رعاية الأحفاد والأبناء (ثلاثة أبناء هم ناصر وعزة وعنود وستة أحفاد) والمشاركة هنا وهناك بتأسيس أو توجيه بعض المحطات الإذاعية أو التلفزيونية الجديدة لنقل خبراتهما المتراكمة إلى الأجيال اللاحقة.

الشاعرة العُمانيّة عائشة السيفي: القصيدةُ هي ذاكرة التفاصيل التي لا أريد لها أن تغادر

حاورها: جعفر العقيلي*

تكتب عائشة السيفي الشعر ضمن إيقاع تفعيلي لا يقيّد فضاء الحرية والحلم. تحتشد قصائدها بالرؤى والتشكيلات والتعابير الصوفية، وتمسك بتفاصيل الحياة اليومية وتكشف المستور في الذات المنطوية على نفسها. أمّا في مقالاتها فهي تشتبك مع الراهن، وتكتب بجرأة حول مسائل مجتمعيّة ملحّة، وهي ترى أنَّ هذه الكتابة مرآة لهواجسها وتفرِيغ صادق للقلقِ الذي تمتصّه من القضايا اليوميّة التي تلامسها وهي في الشّارع تتقاسم الحياة بضيقها واتّساعها مع آخرين لا يملكون قدرة الكتابة.

وُلدت الشاعرة العُمانية عائشة السيفي عام 1987، درست الهندسة المدنية في جامعة السلطان قابوس وتخرجت فيها عام 2010، ثم عملت في مجال اختصاصها وأدارت شركة استشارات هندسية هولندية في عُمان قبل أن تسافر إلى لندن لتواصل دراستها العليا في الهندسة.

أشرفت السيفي على مختبر الشعر ببيت الزبير في مسقط، وكان لها عمود ثقافي يُنشر كل يوم أربعاء في صحيفة "الوطن" العُمانية (2010-2006)، وأعدّت لإذاعة السلطنة برنامجًا ثقافيًا بعنوان "مرافئ شعرية" (2007) التقت فيه بعدد من التجارب الشعرية البارزة في الوطن العربي.
نالت السيفي جوائز في المسابقات الجامعية ومن وزارة التراث والثقافة والمنتدى الأدبي ومهرجان الشعر العُماني السادس، وهي عضو في جمعية الكتاب والأدباء العُمانيين، وجماعة الخليل للأدب. صدر لها ثلاث مجموعات شعرية هي: "البحر يبدل قمصانه" (2014)، و"أحلام البنت العاشرة" (2016)، و"لا أحبّ أبي" (2017).

تاليًا حوار مع السيفي عن رؤاها وتصوراتها، وموقفها من التفعيلة والوزن، ودور العائلة في صقل تجربتها، والتجسير بين الشكل التقليدي والحداثة في الصوغ والتعبير والأسلوب، وعلاقتها بالقارئ، ورسالة الشعر.

***كاتب أردني**

jaloqaily@yahoo.com

تحتشـد قصائـدك بالـرؤى والتشـكيلات والتعابـير الصوفيـة، خصوصًـا ذات الصبغـة الحلّاجيـة، مـا مدلـولات هـذا التوجّـه، ومـا الـذي يمثّلـه الحـلّاج لـك؟

● الحـلّاج وآخـرون نافـذة للجـمال أركـن إليهـا بوعـيٍ ودون وعـي ثـمّ أراهـا بطريقـةٍ مـا عالقـةً كرائحـةٍ جميلـة في نصـوصي.. حضـوره كحضـور شـجرة السـفرجل التـي تتوسـط بيتنـا.. أقـف أتأمّلهـا لسـاعات ثـمّ أرى أثـر رائحتهـا في قصيـدةٍ مـا. حضـوره كأثـر كـوبِ شـايٍ بالقرفـة شـممته في مقهـى عابـر لا أتذكّـره. فتنـت بالحـلّاجِ أيّـام الجامعـةِ ومـا أزال.. إنّ لديـهِ قـدرةً هائلـةً في أن يبـدو غـير مـرئيٍ ولكـنْ مـرئيّ في آن.. أن يحيـط بـك دون أن تحيـط بـهِ.. أن يكـون خفيفًـا بشـكلٍ هائـلٍ ولكـن متجليًـا في كلّ كلمـة مـن قصائـدهِ.. تشـعر أنّـه كان يعـرف نهايتـه وأنـه متصالـحٌ تمامًـا معهـا.

يقول الشاعر سيف الرحبي إنك تكتبين الشعر ضمن إيقاع تفعيلي لا يقيّد فضاء الحرية والحلم، بل هناك سعيٌ يبتعد عن قسْر الوزن وإكراه القافية. هل ترين أنَّ الوزن والقافية ما زالا معيارًا للقصيدة؟

● لا أعرف ما معيار القصيدة سوى أنّك حين تقرؤها تعرف أنّها قصيدة.. القصيدة الجميلة لا تحتاج معايير لتقول حين تقرؤها: "اللـه!". دعني أستحضر في ذلك ما قاله لي يومًا الشاعر العراقيّ عدنان الصّائغ حين قرأ لي مجموعتي الأخيرة: "اسمعي.. أنا لست ناقدًا ولا أجيد تحليل النصّ.. أعرف فقط حين أقرأ شعرًا حقيقيًا أن أقول إنّه شعر.. يكفي ذلك".

ودعني أيضًا أقول شيئًا آخر؛ نحن شعوبٌ موسيقيّة بالفطرة.. منذ الأغاني الأولى التي تحرسنا بها الأمهات في المهد.. والأناشيد التي نرددها في الحواري، وتلك التي تكبرُ معنا في المدرسة.. إنّها مغموسة تمامًا في الذاكرة البعيدة وبالتالي فليس من السّهل أن ننسحب من الوزن والقافية.

أُسألُ كثيرًا إنْ كنت سأجرّب كتابة قصيدة النّثر وهذا السؤال يدهشني.. على القصيدة حين تولد ألّا تحدث بنيّة مسبّقة في تحديد شكلها وصيغتها. القصيدة تخرج حرّة من التصنيف. من أجل ذلك فإنّ تجربة الوزن والقافية ما تزال مساحةً خصبةً أستمتع بها لأنّ نصوصي تخرج موزونة بطبيعتها الفطريّة دون أن أُكْرِهَ الوزنَ عليها.

نحن نقرأ قصائد شعراء عالميين مترجمةً دون وزن، وقد تكون في طبيعتها الأولى موزونة، ومع ذلك فإن متعتنا بها مدهشة، واحتفاءَنا بها عالٍ، وربّما أعلى من احتفائنا بالقصائد الموزونة.. هناك شعراء نثر عرب يرفعون سقف توقّعاتك كشاعر. إنّك تقلق من أن تُقْدِم على التجربة النثريّة بدهشةٍ أقلّ من تلك التي يغمرونك بها. تصبح أكثر حذرًا وأكثر انتقائيةً وأنت تقرأ للدهشة التي يغمرونك بها وأنت برفقةِ نصوصهم. عندما تكتب قصيدة النّثر عليك أن تكون قارئًا شرسًا وناقدًا أكثر شراسةً لنصّك.

يقول الناقد حسونة المصباحي إنَّ قصيدتك تمسك بتفاصيل الحياة اليومية، وتكشف المستور في الذات المنطوية على نفسها. متى تكون القصيدةُ ابنةَ الحياة و"فضّاحة" من غير مواربة؟

● عندما تبلغ بك الحساسيةُ تجاه الأشياءِ أن تقضي يومًا وأنت تتأمّل صنبورًا صَدِئًا أو ورقةَ شجرةٍ متآكِلةً أو تُبكيك فردةُ حذاءٍ على الشّارع تفكّر في حكاية مَن تركها.

عندما تؤلِمُك ليومينِ، ندبةٌ غائرةٌ لَمَحْتَها في وجهِ بائعٍ في الشّارع.. تفكّر في حكايةِ وأثرِ بقائها في حياتهِ للأبد.

عندما تتأمّل النقوش على كوبِ شايك وتفكّر فيما حدث لليدِ التي خطّت هذه التعرّجات خَطًّا خَطًّا.

التفاصيل التي لا تعني أحدًا سوى الشّاعر الذي يعيش ملتقطًا كلّ ما يخلفه الآخرون.. وكلّ ما لا يعني أحدًا.

عندما تقضي ثلاثَ ليالٍ وأنت تفكّر في آيةٍ قرأتَها قبل أيّام دون أن تتركك للحظةٍ واحدة.

القصيدة عندي هي ذاكرة التفاصيل التي لا أريد لها أن تغادر. وهذا متعبٌ جدًا. كيف للشاعر أن يتخلّص من حساسيتهِ المفرطة تجاه الأشياء؟

يـرى نقـاد أن قصائـدك أغنيـات تفيـض بالشـجن الـذي يذكّـر بشـجن السـياب وكذلـك درويـش في قصائـده الخريفيّـة. كيـف تعيشـين هـذه التجربـة وتختبريـن الخريـف وأنـت مـا تزالـين في "ربيـع الحيـاة"؟

● أعتقـد أنّ لـدى الشّـاعرِ قـدرة عـلى القفـزِ عـلى تجربتـه العمريّـة لأنّـه مـدرّبٌ عـلى اختصـارِ الأشـياء.. اختصـار المشـاهِد واختصـار التفاصيـل، واختصـار الأحـداث، والبـشر..
لمْ يحتـج أجـود مجبـل أن يقـول الكثـير ليصـف "داخِـل حسـن" كـمْ كان مضيئًـا: "هـل سـيكفيهِ أنّ شمسًـا أحبّتـه... لديهـا مـن ليلـهِ أضـواءُ؟!".

أو البؤس في أجَلِّ صُوَرِهِ كما تصفه كاتيا راسم:
"تعالي ولو بيدكِ السّكين أيّتها النهاية!".
أو توحّش الرغبة على طريقةِ ميسون الإرياني:
"أريد أن أقتلك حتى آخرِ العالم
حتى آخرِ سحليّة تنقرض
وآخر فستانٍ يجلب الضّجر".
نحـن نعيـش مـراتٍ كثـيرة ونمـوت مـرّاتٍ أكـثر.. هـذه القـدرة الهائلـة عـلى الانبعـاث عـلى هيئـة مشـاعر وصـور وحيَـوات وأنـاس وجـمادات، تمنحنـا القـدرة عـلى القفـزِ عـلى تواريـخ ميلادنـا إلى أعـمارٍ أخـرى.. أكـبر منّـا أو أصغـر.

واجهـتِ سـلطة العائلـة حينـما حاولـتْ منعك عـن ممارسـة الكتابـة/ الحلـم. مـن زوّدكِ بالقـوة الكافيـة للمواجهـة، وكيـف تنظريـن الآن إلى مـا حـدث؟ لـو رضخـتِ حينهـا؛ أيـن كنـتِ سـتكونين الآن؟

● لم أكـنْ لأواصـل تجربـة التشـكّل الشـعريّ هـذه دون مسـاندة عائلتـي. غـير أننـي أعـترف أنّ خـروج شـاعرةٍ مـن عائلـة محافظـةٍ مـن قلـبِ "نـزوى" تريـد للعـالم أن يسـمع صـوت قصائدهـا، كان صادمًـا لهـم ولآخريـن.
أكثرهـم كان والـدي، الـذي ضحـك في المـرةِ الأولى التـي قلـت لـه فيهـا إننـي أكتـب الشـعر وأنشـدت لـه قصيـدةً في مديـح القبيلـة رغبـةً في اجتـذابِ اهتمامـه. كان ذلـك أيّـام دراسـتي الابتدائيّـة ولم يكـن يخطـر في بالـه -وفي بـالي أيضًـا- أننـي سـأواصل هـذه الرّحلـة الشـاقة. حـين بـدأتُ المشـاركة في المسـابقاتِ الشـعريّة والأمـاسي والخـروج العلنـيّ كشـاعرة لم أكـنْ أدرك أنّ الأمـر يحتـاج اسـتعدادًا أُسَريًـا وقـد انطلقـتُ بحريّـة المناضلـة مـن أجـلِ حقّـي الفطـري في أن أكـون مـا أريـد أن أكـون. واحتـاج الأمـر سـنواتٍ ليتقبّـل والـدي واقـعَ الأمـر وليـدرك مـا يعنيـه الشّـعر لي. لكـنّ ذلـك لم يكـنْ ليَحـدُث لـولا إيمـان عائلتـي بجديّـة أثـرِ الشّـعر في حيـاتي وبـأنّ كتابتـه ليسـتْ نـزوةً عابـرة أو حلـمًا سريـع التـلاشي. لقـد سـاندوني حـين تخـلّى عنـي كثـيرون، وحمـوني حـين اتُّهِمَـتْ نصـوصي بالفضائحيّـة وقلّـةِ الحيـاء، وكانـوا ظهـرًا وعونًـا لي، وفي كثـيرٍ مـن الأحيـانِ أشـفقت عليهـم لأنّ عليهم تبريـر مـا لمْ يقترفـوه للآخريـن، ربّمـا ليـس عـنِ اقتنـاعٍ منهـم، ولكـنْ لأنّهـم يعرفـون ابنتهـم أكـثر مـن أيّ شـخصٍ آخـر.. يعرفـون رسـالتي، بجمالهـا وعواقبهـا وبسـعادتها وآلامهـا.

تكتبين العمودي والتفعيلة. متى تختارين هذا النمط أو ذاك. وكيف تنجحين في التجسير بين الشكل التقليدي والحداثة في الصوغ والتعبير والأسلوب، وهو ما يعني النأي عن النظْم قبل أيّ شيء آخر

● بدأتُ بالعمودي، ثمّ تركتُه لسنوات قبل أن أعود إليه مؤخرًا. كلّ ذلك يحدث دون اختيارٍ مني. إنّها اللحظة الشعريّة التي تبدأ ببيتِ شعرٍ أو بمقطعِ قصيدة تفعيلة. لكنْ دعني أقول إنّ القصيدة العموديّة أصعب كثيرًا.. أصعب في بلوغِ الدهشة من حيث المساحة التعبيرية من قصيدة التفعيلة. لكنني حادّةٌ في استبعاد ما لا أحبّ.. أعني أنّ عليّ أن أندهش حتّى أقرر نشر قصيدةٍ عموديّة لي. ويحدث كثيرًا أن أترك نصًا لأعوام لأنّه لا يدهشني ولا يقنعني لأنشره.
كما إنّ تجارب شعريّة تكتب العمود تجعلني أكثر حذرًا فيما أكتب. إنّهم رائعون في جعلِ هذا النصّ المحكوم بالصدرِ والعجزِ حُرًّا ومتجلّيًا وواسعًا لغويًا دون أن تشعر بإكراهِ القافيةِ عليه.

تؤثّثين نصّك الشعري بتشكيلات من النص الديني، إلى جانب الإحالات إلى المدونة الصوفية، والتعالقات مع الأسطورة.. ما الذي تبغينه من التفاعل مع التراث؟ وإلى أيّ حدّ يمكن الاشتباك معه وفي الوقت نفسه الاحتفاظ بمسافة كافية عنه لنراه بوضوح؟

● أنا مفتونة بالنصّ القرآني عمومًا. أستطيع أن أقضي أيامًا وأنا أفكّر في جمال آيةٍ واحدة. في السّيارة، بين أطفالي، وأنا في حديقة منزلي لا أنفكّ أفكّر في عمقها ومدلولاتها. لا يمكن لشاعرٍ يقدّر الجمال ألّا يُفتَن بالنصّ القرآني بعيدًا عن مرجعيّته الدينيّة. النظر إلى النصّ القرآني كنصٍّ جميل هو مساحة تفكّر خصبة لشاعرٍ يقدّر الجمال والسياقات الفنيّة واللغة المعجِزة.
أمّا التعالق مع الصوفيّة فهو مساحة تجريبيّة، ولكنني لا أستطيع ادّعاءها. ما أزال أبني ثقافتي ووعيي بها مع الوقت وإن حضرتْ أحيانًا في نصوصي. يساعدني في ذلك اشتغال مجموعة مجتهدة من الشّعراء العُمانيين على تجربة السّفر الروحي في الشّعر والتّصوف ورفع مستوى وعي الجماهير -وأنا منهم- بهذهِ المدرسة الخصبة شعرًا وروحًا.

تراهنين على القوّة الجمالية التي تتمتّع بها قصائدك، وعلى تحقّق الغنائية التي تحفز القارئ لتأمّل الموسيقى والاستجابة لنداء الرومانسية. هل تكتبين وأنت تفكرين بالقارئ لحظة الشرارة؟

● أوه لا.. مطْلقًا! أنا لا أفكّر مطْلقًا حين تحْدُثُ القصيدة. كيف أجبر وعيي على القفزِ على اللاوعي والقصيدة تشكّل لحظتَها ملامحَها الأولى؟
أنا أفكّر في القارئ حين تنسحب اللحظة الشعريّة وأتأمل القصيدة تأمُّلَ الغريب، وأخاف منه أحيانًا إلى حدّ أنّ عدمَ اقتناعي بكلمة واحدة في النصّ قد يقود إلى امتناعي عن نشرهِ حتّى يجيزه القارئ داخلي.
الأمر يصبح أكثر تعقيدًا حين تقرر نشرَ النصّ في كتاب.. النشر هو تجربة محمومة لديّ. إنّه يصيبني بكلّ حالات الفوبيا التي تتخيّلها. أن تترك قاربك يبحر من الشاطئ وأنت تعرف أنّه لن يعود. تترك نصّك للقارئ والنّاقد وأنت تدرك ألّا مجال لاسترداده. ذلك حتمًا هو الهاجس الذي يعنيه القارئ لي.

في بعض قصائدك تلاقُحٌ بين الفصيح والعامية، وتوظيفٌ للأدب الشعبي أيضًا. متى تستعينين بالعامية، وكيف يمكن توظيف العامية بما لا يُخلّ بالمستوى الفني للنص؟

- ربّما لو سألتَني هذا السؤال قبل سنوات لأجبتك بشكلٍ مختلف.. من الصّعب جدًا توظيف العاميّة في نصّ فصيح دون أن يخلّ بانسيابيته. حتّى إنني اليوم أنظر إلى نصوصٍ دمجتُ فيها بين الفصيحِ والعاميّة -قليلةٍ جدًا على أيّ حال- وأفكّر: "أوف! لقد كان خطأً مريعًا!".
عـلى الشّاعر، إن أراد تضمين العاميّة بوعيٍ، ألّا يفعل ذلك إلا ليثري النصّ، وعليهِ أن يمتلك رؤيةً واضحةً ورسالةً مهمّة في تضمينه له. دون ذلك فإنّ ما سيقوم به محض عبث أو تجربة عابرة دون أثر.

هل يكفي الجمال والاحتفاء به لنضع التراب على الوجه البشع للحرب؟ هل يكون الشعر بوصفه جمالًا، خلاصًا في زمن الحرب؟

- لا أراه خلاصًا، فهو لا يعيد الموتى، ولا يبني سقوف البيوتِ الخائرةِ ولا يفتح مدرسةً أغلقت أبوابها أو هدّمت جدرانها. لكنّه حتمًا قادرٌ على رتقِ وجعِ قلب أو تكريمِ راحلٍ لا يتذكّره أحد. إنّه الوردة التي تكسر حصار الصّحراء. كلّ شيءٍ بشعٌ في الحرب. الألم بشعٌ كذلك.. ولكنّ قدَرَ الشّعر أن يخرج من تلك العصارة ومن وسطِ الدّموع والاحتراق. ما بوسعنا أن نفعل إزاء كلّ هذا القبح الذي تخلّفه الحرب سوى الاحتفاء بقصيدة جميلة لن تعيد حيًّا، ولنْ تعيل أسرةً، ولكنْ ستذكّرنا دائمًا بأنّ على الحياةِ أن تمضي كما يراد لها، وتذكّرنا بمهمّتنا كشعراء أنْ نقول للعالمِ إننا القادرون على أنّ نصنع من قبحِك شيئًا جميلًا يُنعش انكسار قلبٍ وحيدٍ في هذا العالم.

أنتِ من منطقة نزوى العُمانية؛ حيث التاريخ والميثولوجيا والطبيعة البكْر؛ وعشتِ في العاصمة مسقط، ولك تجربة في الإقامة بهولندا، ثم انتقلتِ إلى لندن للدراسة. هل تحْضُر الأماكن في نصوصك، وهل من نكهةٍ تخصّ كلًّا منها

- كلّ مساحةٍ من هذه المدن تمنحنيْ أثرًا مختلفًا عن ذلك الذي تمنحنيْ إيّاه مدينةٌ أخرى. البشر، الشجر، الهواء، الرائحة، التراب، الشّمس، السّحاب.. كلّ شيء.. الوجوه، والأحاديث واللغة. المنظر الصباحي الذي تمنحني إيّاه النافذة حين أستيقظ كلّ يوم. كلّ شيءٍ له نكهته الخاصّة وأثره في نفسي وفي الذّاكرة والقصيدة أيضًا.

في غمـرة الأحـداث التـي تنشُـد الإصـلاح والتغيـير في المنطقـة العربيـة، تَـوارى صـوت المثقـف، وبـدا واضحًـا غيـاب المثقـف العضـويّ أو النخبـة التـي تقـود الشـاعر وتُلهمه. عـلى مَـن نلقـي باللائمـة في هـذا؟

● شـخصيًّا، مـع الزّمـن أصبحـتُ أكـثر حـذرًا تجـاه تصديـر صـوتي مـع قضيّـة ضـدّ أخـرى أو طـرفٍ دون آخـر. عـلى الأغلـب فـإنّ رأيـك يُحَـزَّب ويُحسَـب عـلى طـرفٍ مـا حتّـى وإن حاولـتَ أن تكـون حياديًـا. في ظـروفٍ كهـذهِ تشـعر أنّ عليـك أن تصمـت وتتابـع وأنـت تـرى مـا يحـدث حولـك مـن الجنـون. أن تـرى كثـيرًا مـن المثقفـين يحترقـون وسـط الحزبيّـة الحاصلـة اليـوم. التحـزّب وراء الحكومـات، والأحـزاب السياسـيّة والتيـارات الوطنيّـة والدينيّـة والمذهبيّـة. وفي كثـيرٍ مـن الأحيـان تفقـد احترامـك لهـذهِ الأسـماء التـي تواصـل إحـراق مـا بنتـه مـن تجربـة تراكميّـة في آراء لحظيّـة قائمـة عـلى مواقـف سياسـيّة قصـيرة المـدى قـد لا تـدرك أثرهـا وحقيقتهـا إلّا بعـد زمـن. مَـن يفهـم مـا يحـدث اليـوم في منطقـة مشـتعلة تمامًـا بـكلّ الأجنـدات السياسـيّة والمذهبيّـة والاقتصاديّـة المعقّـدة؟ مـن يدّعـي فهـم الأطـراف النزيهـة والوصوليّـة؟ مـن يدّعـي إدراكـه حقيقـةَ مـا يحـدث عـلى الواقـعِ أمـام مـا يُنقـل أمـام الشاشـات؟!

يصعـب عـلى كثـيرٍ منّـا فهـم مـا يحـدث.. ومـن أجـلِ ذلـك فإننـي لا ألـوم المثقفـين إذا خفـتَ صوتهـم وسـط الأصـوات المتعاليـة وأمـام موجـة الفذلكـة العامّـة التـي كرّسـتها مواقـع التواصـلِ الاجتماعـيّ.

أنـا لا أفهـم لمـاذا يطالـب المثقّـف بالخـروج مـن المسـاحات الإبداعيّـة التـي هـو جيّـد فيهـا إلى أحاديـثِ السياسـة ومواقـف الـدّول ودفعـهِ دفعًـا لتصديـرِ آرائـه في قضيّـة سياسـيّةٍ مـا؟ أفهـم أنّ هـذا خيـار شـخصيّ، ولكـنّ فهمنـا لرسـالتنا في الحيـاةِ ووضوحنـا فيهـا ضروريّ جـدًا لنواصـل التركيـز عـلى بنـاء التجربـة الإبداعيّـة التـي انطلقنـا منهـا.

تشتبكين في مقالاتك مع الراهن، وتكتبين بجرأة حول مسائل مجتمعيّة ملحّة. هل تعتقدين أنَّ الكاتب/ المبدع بمقدوره إحداث التغيير حقًّا؟ أم إنّ حَسْبُه أن يحلم!

● الحلم نفسه قد يكون شرارةً لإحداث التغيير. نعم؛ غَيّر الكثيرون حياتنا بما كتبوا. ألمْ يكنْ جورج أورويل رائيًا حين كتب "1984"، ومعلّمًا محترفًا حين كتب "مزرعة الحيوان"؟!

أليس ملهمًا أن تقرأ لجابرييل جارسيا ماركِيز حين يصف أثر الشّعر في مراهقته وكيف كانت حياتهم آنذاك غير متخيَّلة دون حضورِ الشّعر؟ سيخرج بعدها أعظم روائيٍ في الواقعيّة السحريّة كما عرَفَتْه أميركا اللاتينيّة والعالم. ألم يكن ثمّة كاتبٌ ما ألهم كلّ هذه الأسماء العظيمة التي لم تخرج بتجربةٍ هي ابنة يومٍ واحد ولكن بتجربة تراكميّة خلقتها أسماءٌ ملهِمة غيّرت واقع حياتهم.

غير أنّنا أيضًا ينبغي ألّا نثقل كتف الكاتبِ بسقف توقُّعاتٍ قصيرةِ المدى للتغيير وسريعة الأثر. إذ إنّ إحداث التغيير على المدى البعيد هو حالة مستمرّة أجدى وأوعى. على المثقّف أن يعمل بصبرٍ على رؤيته وعليه أن يعمل بصبرِ النحّات وبحساسيّةِ المزارعِ تجاه وردة. عليه أن يكون صبورًا وواسع البال ومدركًا إلى أنّ ما كان مرفوضًا بالأمسِ أصبح حالَ اليوم.

ك مدوّنة تحمل اسم "حرية بثمن الخبز" تكتبين من خلالها في قضايا سياسية واجتماعية وثقافية، أيّ صدى حقّقته هذه المدوّنة؟

● في عُمان تحديدًا، عرفني النّاس كاتبةً في الشأن العام عبر هذهِ المدوّنة أكثر من كوني شاعرة. لقد أتاحتْ لي مساحةً في الكتابة دون رقابةٍ من أحد كتلك التي اختبرتها لأربعة أعوام حين كنت أنشر في الصّحف. اجتذَبت المدوّنة أكثر من مليون ونصف المليون زيارة، وشخصيًا كانتْ مساحة ضروريّة احتجتُ إليها في زمنٍ ما وما أزال. ما أزال بين حينٍ وآخر ألجأ إليها للتنفيسِ عن قلقي وعن شأنٍ ما يتعلّق بوطني يؤرق ذهني.. إنّها مرآة لهواجسي وتفريغ صادق للقلقِ الذي أمتصّه من القضايا اليوميّة التي ألامسها وأنا في الشّارع أتقاسم الحياة بضيقها واتّساعها مع آخرين لا يملكون قدرة الكتابة.

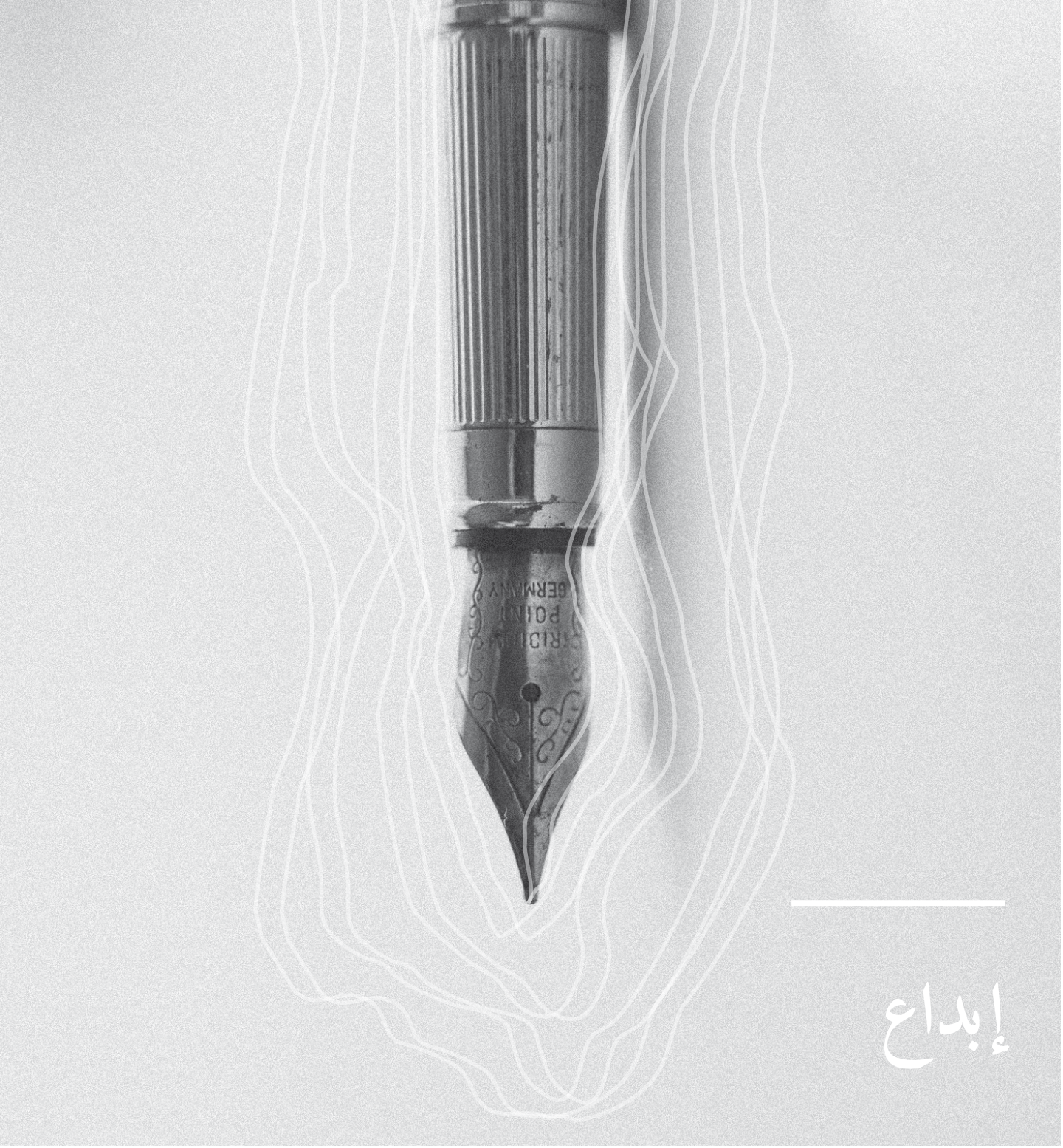

إبداع

Photo Art Lasovsky on Unsplash

محمـود الشـلبي / عبدالكريـم أبـو الشـيح /
هشام بنشاوي / عماد مدانات

سِجَالُ الذَّات

شعر: محمود الشلبي*

هل يكذبُ الأثرُ البادي بأحداقي
أنا العليلُ...
فهل للدّاءِ من راقِ؟!
الشّعرُ بثَّ صليلَ الحرفِ في شَفَتي
فحلْقتْ دهشتي
ترتادُ آفاقي.
بالأمس أذكرُ ما قد ضاعَ
من حُلُمي،
واليومَ أقرأُ ما تبديه أوراقي.
إني كما زمن حنَّتْ أواخرُهُ
إلى أوائلهِ
في رحلةِ الباقي.
لي في الذُّرا مَعلمٌ
قد ظلَّ منتظرًا
وعدًا تدفّق
منسابًا بأعراقي.
أرنو إلى قمَّةٍ شمّاءَ باذخةٍ
لا بُدَّ مني،
لتغريبٍ وإشراقِ.
تغيَّرَ الزّمنُ الحالي،
وغيّرنا
عدتُ الغريبَ،
ولي رعدي وإيراقي.
كأنني غايةٌ أذكتْ مطامحَها
نارٌ،
وريحٌ وسِفْر الغيم ميثاقي.
أنا المسافرُ في أبعاد أُمنيتي
أقفو الصدى والمدى
والقيدُ في السَّاقِ.
أنا الضرورةُ واستثناءُ قافيتي
كأنني عطِش
لم يرْوني السّاقي.
هذي الينابيع بعضُ الفاض من عَرقي
وبعضهُ مطرٌ،
يهمي بإبراقِ.
أبني ببعضِ حصادِ العُمْرِ تجربتي
وكلُّ عُمرٍ إذا استثمرته
باقِ.
أنا الرحيلُ إذا ما شابه أملٌ
مثل الزَّوالِ
توارى قبل إشراقِ.
وقد أرانيَ معطوفًا على أثري
وكنتُ في سُلْمي
ما كانه الرَّاقي.
لا شيءَ يشبهني غيري،
ولا لغتي
تُفضي لما في دمي
من لون أعماقي.

* **شاعر أردني**
dawsars@hotmail.com

لوحة لشهريار

شعر: عبد الكريم أبو الشيح *

"القلب المتحجّر يطيف به طائفُ
الحنان أحيانًا
فيرقُّ رِقّة الماء يخرج من الصّخر...
من العبث أن نعجّل بالانصياع
فنكون شركاء في التبعة"
شهرزاد/ ألف ليلة وليلة

في اليـوم الثامـن بعـد الليلـة الألـف
خرجـت شـهرزاد عـلى النـاس وهـي
تحمــل في أحشــائها ابــن شــهريار
لتقـول لهـم:
كانَ القتيلَ وإن بدا لكَ أنّهُ
هو قاتلُ
كان القتيلَ
وإن سمعتَ على ضفافِ جراحهِ
آهاتِ قرطٍ جاوبتها بالأنينِ خلاخلُ
هوَ خائفٌ
والخوفُ يقتُلُ إنْ تلبّسَ بالظنونِ
وراودتهُ على الفراشِ قلاقلُ

هوَ خائفٌ
مذ ما رأى
أنّ التي قد هدهدته بحبّها
هدّتْ له أحلامَه
وأرتْهُ أنّ الهدهداتِ معاولُ
فرأى بأن يرفو جراح فؤادهِ
بجراحهنّ وإنْ دَرى
أنّ الرّفاءَ تحايلُ
وبأنهنّ بموتهنّ على يديهِ
يَكِدْنَ لَهْ
يهدمنَ ما يَبني (صواحبُ يوسفٍ)
ويُعِدنْهُ
يهذي ببئرِ غيابهِ
أنّ النساءَ حبائلُ.
وأتيتُهُ
مختارةً
بي شهرزادُ وألفُ عشقٍ خائبٍ
حشوَ الوسادةِ بالدموعِ طويتُهُ

ودخلتُ طيّ فِراشهِ
ورأيتُهُ
وعليهِ من أثرِ الفَراشِ دلائلُ
سلّمتُ فابتسمتْ عيونُ طفولةٍ
مخبوءَةٍ
وبدا عليهِ الخوفُ منّي إذ رآني
في الفِراشِ أغازلُ
ونمَتْ على
شفتّيّ من خجلِ العرائسِ بسمةٌ
تتمايلُ
وقرأتهُ
فرأيتُ طفلًا يرتجفْ
رأيتُ طفلًا يرتدي عرشًا وسيفْ
والسيفَ في كفيّه خوفْ
لا غِمْد يُسكِنُ روعَهُ
وروْعُهُ يتناسلُ
حدّثتُهُ
كم كانَ طفلًا حينما حدّثتُهُ
ورويتُ لهْ
قِصصَ الغرامْ
حتى استقامْ
فتسرّحتْ
وسرت على جسدي من الشبقِ
المُقيمِ أيائلُ
وتهدّجتْ كلماتهُ:
الخوف يقتُلُ صاحبَهْ...
في الليلة الألف التي فيها بكى
روّى مدامعَ غيمةٍ
وهمى عليَّ
أرخى على كتِفي ضفائرَ حلمِهِ
وغفى كوَعلٍ أرهقتهُ نوازلُ.

* شاعر أردني
abid.abusheeh@hotmail.com

صباح شتوي غائم

إلى عزت القمحاوي

نص: هشام بنشاوي*

تتوقف -برهة- عند قمّة الدَّرج، تحكم إغلاق الزّر العلوي لـ"الجاكيت" الجلدي الأسود، ويدك متشبّثة بحقيبتك الجلدية الصغيرة، ترنو إلى السماء المتجهمة، الملبّدة بالغيوم، تسفع الريح الشتويّة وجهك، وتتغلغل في مسام نصفك السفلي، تداهمك رغبة عارمة في أن تعاتب هذه المدينة -التي سكنت دمك منذ ربع قرن- على هذا الاستقبال القاسي.

لم تحاول معرفة التوقيت، في تلك اللحظة؛ لا تثق في الهاتف الجوال، أثناء عبور السماء، فهو يلعب مع خطوط الطول والعرض، ويتأرجح بين شبكات شركات الجوال الأخرى.. وغيوم الشتاء تخدع المرء في النهارات القصيرة، لا تستطيع أن تميز الوقت إن كان ظهرًا أو عصرًا.. لا يهم، يكفي أنك تستنشق هواء مدينة أحببتها قبل أن تراها، والريح تعوي في أسى، وهي تكنس بقايا الشتاء، حتى تفسح مكانًا لربيع خجول، يحبو على استحياء، تدرك في تلك اللحظة، أنَّ مدينتك ما زالت تغط في السبات، والأب يتثاءب، ينفض عنه عباءة ليل طويل، مثل ليل امرئ القيس، وينتظر أذان الصبح، بينما أصدقاؤك الأدباء يمرحون في مقهى "ريش".

إنها لعبة الجغرافيا الأثيرة، مع غريمها المشاكس: الزمن.

بالأمس، فقط، تخلّيتَ عن ملابسك الشتوية، اكتفيت بـ"التي شيرت" وسروال الجينز الأسود اللامع، وأنت تتجوّل في شوارع الخرطوم. تأنس إلى هذه المدينة الأليفة، وأهاليها الطيبة قلوبهم، وتشفق على فقر العاصمة، حين تتوغل في شوارعها الخلفيّة، وأنت ترمق الغبار الطيني، يعلو بناياتها، وأشجارها. فيما بعد، ستدرك، بأنك مدين بسياحتك الأدبية لتلك المدينة القريبة/ البعيدة، التي استوطنت شغاف

* كاتب مغربي

hbenchchaoui@gmail.com

القلب، مثل ذلك الحزن المقيم، الذي ذقت طعمه مبكرًا، فشهقت بالبكاء قبل الأوان.

أليس غريبًا أن تجاهد هذا الحنين، المخضّب بالنشيج المؤجل، منذ عشر سنوات؟ منذ أيام، وأنت تحاول أن تدجّن حنينك القروي، المتّشح بعباءة الغياب، المتوغل في ليل الفجيعة، تقاوم مخاض هذا النص الهارب، تتوكأ على يتم قلبك الأزلي، وشجنه الأبدي الشفيف، تمازح أصدقاءك، تسخر من تفاهة اليومي، الموغل في نثريّته الفجّة والرديئة، كانت تلك الأيقونات الضاحكة، المتناثرة هنا وهناك تشبه ضحكًا كالبكاء.

يتواطأ الموّال الأمازيغي النازف لوعة، الذي تدمنه في لحظات الكتابة، على الرغم من أنك لا تفقه كلماته، لكن تحس أنك تتلاشى، تتفتت... على إيقاع هذا "التماويت"، الذي يدلقك في درب النهايات؛ تتخيّل نفسك ورقة يابسة، ذرة غبار، تذروها ريح "شرقي" صيفية، تحت سفح جبل مهجور، ذات قيظ...

تحاول أن تجاهد الدمع، وأنت تكتب مسودة هذا النص، لكنه يطفر من عينيك، وأناملك تداعب شاشة اللوح الإلكتروني، فتسارع إلى محو معالم هذا الضعف الإنساني. إحساس فادح باليتم، يندلع في أعماقك، على إيقاع هذا الموال الأمازيغي، تفحم في البكاء، وأنت لا تعرف لم تتهاطل من مخيلتك، في هذه اللحظة مشاهد: ممرات زراعية ترابية، آثار أقدام وحوافر، حقول جرداء، هاجرة ظهيرة، تجاعيد غائرة في وجوه سفعتها الشمس؟ لماذا نلوذ بالذاكرة الخؤون تحت وطأة الزمن؟ لماذا يراودك هذا الحنين القروي، الذي بدأ يستفحل، مثل خلايا سرطان خبيث، كلما تقدمت في السن، فرحت تستعيد قريتك البعيدة، طفولتك الهاربة في نصوص يوسف أبو رية، وسعيد الكفراوي؟

قبل ربع قرن، كان أصدقائي الشعراء يتحدثون، بشغف، عن قصائد سيف الرحبي، أمجد ناصر، وآخرين، كانوا يرمقونني بريبة، حين أتفوّه وجلًا باسم: أسامة أنور عكاشة، أسمع ولا أسمع تعاليقهم الهازئة...

لم أكن متفوقًا في مادة اللغة العربية، لكن محبّة الأدب، كانت السبب في رسوبي في الدراسة... في الصف الثانوي، عثرت في درج طاولتي على ورقة شبه مدعوكة، كتبت في حصة درس المؤلفات، لفت انتباهي اسم بطل رواية "بداية ونهاية" حسن، في الوقت نفسه، كان التلفزيون المغربي يعرض حلقات مسلسل "أرابيسك". اشتريت رواية نجيب محفوظ، لأنني اعتقدت أنَّ ثمّة صلة ما بين الرواية والمسلسل، وسوف أحتاج إلى سنوات، لكي أدرك أنني لم أكن مخطئًا في ذلك التصوُّر!

هل كنت أحتاج إلى عشر سنوات، لكي أروّض هذا النص القديم؟ هل كنت مشغولًا بترميم خرائبي الداخلية، أم كنت أعيش طفولتي بأثر رجعي؟

لم أكن أريد زيارة الأهرام، مثل سائح مبهور! فقط، كنت أريد مقابلة محمد البساطي، كنت أريد التسكع في تلك الحواري، التي فتنت نجيب محفوظ وأسامة أنور عكاشة، كنت مسكونًا بسطوة تلك الألفة الغامضة للمكان، التي ترتسم بشاشةً ورضا على وجوه البسطاء، تتذكر جيرانك، الذين صرت تتفادى رؤيتهم قدر الإمكان.. بعد صلاة الصبح، يتبادلون دعاباتهم في همس بليد، تحاول أن تتجاهل وجوههم الكالحة، المسلّحة بذلك التجهُّم الأبدي.

أنـت في نظرهـم شـخص غـير جديـر بالتحيـة، لهـذا تنظـر إليهـم في ازدراء. تعتبرهـم جـزءًا مـن هـذه الـرداءة السـمجة، التـي تحـاصرك مـن كل الجهـات. تتسـاءل بينـك وبـين نفسـك: هـل خدعنـا أسـامة بحميميّـة شـخوصه، ونبلهـم النـادر؟

في انتظـار وصـول طائـرة الـدار البيضـاء، لاح مطـار القاهـرة، مثـل أي مطـار، بـلا روح.. كنـت تتجـول في أرجائـه، مثـل شـبح، وأنـت غـير قـادر عـلى مغادرتـه.. تلعـن مـن ابتكـر الحـدود، وتغبـط العصافـير عـلى قدرتهـا عـلى عبـور السـماوات، دون أن يعـترض سـبيلها أحـد، ودون حاجـة إلى جـواز سـفر.

انتفـض قلبـي، تذكـرت طفولتـي البعيـدة، التـي تداهمنـي كلـما شـممت رائحـة أوراق شـجرة التـين المميـزة، جرفنـي إحسـاس مريـع بالفقـدان، عـلى الرغـم مـن أننـي درَّبـت قلبـي عـلى الفـراق مبكـرًا.. قلـت لنفـسي: "يسـتطيع السـودانيون دخـول الأراضي المصريـة مـن دون تأشـيرة"، ومثـل صرخـة مكتومـة، تمطـط في أعماقـي سـؤال عـاق: "لمـاذا، نحـن المغاربـة، لا يمكننـا ذلـك!؟".

القاهرة...

تبـدو لـك مثـل حبيبـة نائيـة، تزهـد في حبـك، وتمعـن في الصـد، وترتمـي في أحضـان الآخريـن. يجتاحـك إحسـاس فـادح بالغربـة، وذاكرتـك البصريـة المعطوبة لا تسـعفك، لهـذا يغيـب وصـف المـكان دومًـا في نصوصـك، لأنـك تنـسى التفاصيـل بسرعـة..

"الناس يمضون سراعًا
لا يحفلون
أشباحهم تمضي تباعًا
لا ينظرون"(*).

تقـف خلـف الزجـاج السـميك، تسـدد عدسـة الهاتـف المحمـول، صـوب الـلّاشيء، متشـحًا بعبـاءة حـزن جليـل. خلـف الزجـاج، يكفـن الأشـياء ضبـاب مبهـم، كأنـه أسى أبـدي، يحجـب كل شيء، ذات صبـاح شـتوي، بعيـد.. بعيـد جـدًا، ومـع ذلـك تحـس كأنَّ ذلـك حـدث بالأمـس فقـط. قلـت لنفـسي مواسـيًا: "نعـم أنـا مشـتاق وعنـدي لوعـة"؛ لوعـة لم أفلـح في مداراتهـا، ومـن فـرط مـا خذلنـي الحـب، عصـف حـزن بهيـم بالفـؤاد، انداحـت مـن الأعـماق آهـة ملتاثـة، وامتـلأت عينـاي بدمـوع، كانـت مخبّـأة في صـدري.. في "خابيـة الفجيعـة".

لوحة للفنان عمر العطيات

(*) مقطع من قصيدة "الطريق إلى السيدة"، أحمد عبدالمعطي حجازي.

كحبل غسيل

نَصّ: عماد مدانات*

سيّدتي
ذات العنق الورديّ
والزغب الذهبيّ على أطراف الخد
اطمئنّي..
كل شيء مُباح لكِ هذي الليلة
أحلامي كلّها
تعبي المخبّأ في خطوات الطريق
جمهرة الارتباك في خطوط لوحتي
القديمة
المشي على شاطئ عيني بأجمل ما
تكون الخطوات لزهرة لوز
القفز على سلالم صدري كعصفور أسره
اللّعب
ليلي المتأخر في السهر
خمرتي المعتَّقة في زجاجة الهَمّ
قصائدي النّائمة في سترة الخريف
بقايا العطر في آخر موعد بيننا
فافرحي كعاشقة غازلها القمر الهارب
من زاوية الشبّاك
وحطَّ على نهديها سرب يمام، فتنته
الغبطة بنقطة ضوء!

***

سيدتي
عطري لكِ.. وما تبقّى من الشِّعر
وأصابع يدي المنقوشة بالحنين
وابتسامتي الممزوجة بألف سؤال
حتى إنَّكِ تستطيعين أن تمارسي
عاداتك السيّئة فوق جبيني دون
خجل
ومَن تجدينه جديرًا بحفاوة جسدي
المنهوك..
لكن...
وأنتِ تهرولين نحو الحافلة المهاجرة
قبل ضجيج الدّوري على غصنٍ يابس
اتركي لي بعض القبلات
في شقِّ الحائط
أو أحد جراحاتي النيّئة على شفتي
أو في جيب الثلّاجة
قد أشتاق لها يوم العيد..

الشتاء على الأبواب
والبرد رفيقي منذ وُلدتُ على طرف
الشارع
كحبل غسيل.

* أديب وفنان تشكيلي أردني
Madanat_i@yahoo.com

نوافذ ثقافية

محمد سلّام جميعان*

ثقافة عربيّة

الشاعر ميلياغروس/ محمد علي الصويركي

يكشف الباحث في هذا الكتاب عن كنز شعري نبتَ في أحضان (جدارا: أم قيس) إحدى المدن اليونانية العشر التي تمتعت باستقلال ذاتي في الحقبة اليونانية، وكانت ملاذًا علميًا بمدارسها وأكاديمياتها التي تُدرِّس الفلسفة واللغة اليونانية والبلاغة لمختلف البلدان السورية وما جاورها. ففي هذه المدينة أصدر ميلياغروس كتابه الأول "ربّات البهاء والجمال" المشتمل على محاوراتٍ نثرية وشعرية.

الكتاب غنيّ باستقصاءات معرفية تستوفي هذه الشخصية الشاعرية وتجلّي مهادها الأول (جدارا) وارتحالاتها في المدن اليونانية والفينيقية، وثقافتها، وعشقها غير المحدود للجمال، وتآليفها الشعرية والنثرية. وحين تضنّ المراجع على الباحث، يتَّخذ من أشعار هذه الشخصية الشاعرة سببًا في الاستقراء والتحليل، بما يكشف عن شواغلها وانشغالاتها في الفن والحياة، فيستخرج من النصّ أضعاف ما جادت به الكتب التي عرضت لسيرة الشاعر. ويشير المؤلف إلى أنَّ ميلياغروس يعدّ صاحب أول أنطولوجيا شعرية في التاريخ البشري، إذ ترجم فيها للشعراء اليونانيين الذين سبقوه والذين عاصروه، وسمّى كتابه "الإكليل"، ذلك أنه سمّى كل شاعر في هذه الأنطولوجيا الشعرية باسم زهرة من أزهار الطبيعة، ورفد كل ترجمة بقصيدة اختارها للشاعر المترجَم له، مع شذرات نقدية ضَمّنها إكليله.

ومثلما أشبع المؤلف أشعار ميلياغروس بحثًا في المضامين والصور، تحدَّث عن إشكالية ترجمة أشعاره التي جاءت عن طريق اللغة الإنجليزية والفرنسية ولم تكن عن اليونانية مباشرة. وتطرَّق إلى البحوث والدراسات التي تناولت أشعاره، وكلّها أكدت نزعته في المواطَنة العالمية التي تتجاوز الأعراق والجغرافيّات.

ولم يفُت المؤلف الحديث عن جدارا في مقدمة كتابه من زاوية الجغرافيا التاريخية والجغرافيا الثقافية، تاركًا القارئ في حقول الاستمتاع الشعرية في المنتخبات الشعرية التي اختارها لميلياغروس في الجزء الثالث من كتابه.

* شاعر وناقد أردني

mjomian@gmail.com

تاريخ الاتصال والإعلام العربي/ د. عصام الموسى

يقدِّم هذا الكتاب رؤية جديدة ومستوفاة لتاريخ العرب من منظور اتصالي وإعلامي، مضيئًا على إسهامات العرب في صناعة الأبجديّة والورق والحضارة، ويفسِّر للمهتمين عمليّة تطوُّر وسائل الاتصال والإعلام سواء بين الأفراد أو الجماعات والمجتمعات حاضرًا ومستقبلًا. وتضمَّن الكتاب ثلاثة عشر فصلًا من الرؤية العلمية الجديدة لتاريخ الأمة العربية منذ البدء قائمة على منظور الاتصال والإعلام والمعلوماتية.

والكتاب كما يقول مؤلفه الدكتور عصام الموسى في مقدمته: هو "كتاب تاريخ العرب من زاوية الاتصال والإعلام"، وقد رجع فيه للبدايات: فبيَّن كيف اخترع السومريون رموز الكتابة الأولى التي تطورت لاحقًا إلى الكتابة المسمارية. وفي مرحلة لاحقة طوَّر المصريون القدماء الهيروغليفية. ولأنَّ أنظمة الكتابة هذه كانت صعبة فإنَّ الذين أتقنوا الكتابة فئة محدودة اقتصرت على رجال السلطة والكهنة الذين مارسوا احتكارًا للمعرفة أبقت الإنسان العادي غارقًا في الجهل. واستمرَّ هذا الاحتكار في التأثير على حياة البشر حتى الزمن الرقمي المعاصر الذي تطوَّرت فيه أدوات اتصال تبادليّة خفَّفت كثيرًا من حدّة ذلك الاحتكار، لكنّها أوقعت الثقافات في عولمة لها محاذيرها.

ويفتح الكتاب صفحة جديدة تبيّن إسهامات العرب في تطوير الاتصال في أمور ثلاثة على الأقل: الأبجدية العربية التي طوَّرها الأنباط حوالى العام 150 ق.م. فكتبت الثقافة العربية ودوّن القرآن الكريم بها واستعارتها منهم ثقافات أخرى مثل الفارسية؛ وثانيًا يُبرز المؤلف دور أبي جعفر المنصور وخلفاء بني العباس في تطوير صناعة الورق التي أوصلت الفكر العربي في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي- إلى ذراه العالية الذهبية؛ وثالثًا دور مفكري بلاد الشام في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، خصوصًا مسيحيي لبنان، في النهضة العربية الحديثة وحفاظهم على جذوة الثقافة العربية وقّادة.

ويختم الكتاب بمناقشة دور الإعلام المعاصر في الوطن العربي في زمننا الحالي، الذي يشهد فيضًا معلوماتيًّا عارمًا وتحديات كبيرة. والكتاب يكشف جوانب كانت خافية علينا من تاريخنا، ويشكل مصدرًا معرفيًّا موثقًا في مواجهة الادعاءات بأنَّ دور العرب في تطوير الاتصال ووسائله كان دور المتلقي فقط، وهو ليس كذلك بالمطلق.

واستند المؤلف إلى عدد كبير من المراجع الأولية التي بحثت في تطور وسائل الاتصال تاريخيًّا، وبالأخص مؤلفات هارولد انيس وتلميذه المشهور مارشال ماكلوهان، وروبرت لوجان، التي حددت أثر الاتصال على الحضارات القديمة. ويعدّ هذا الكتاب إضافة نوعيّة من الدكتور عصام الموسى للمكتبة الإعلامية، تضاف إلى إسهاماته العلمية التي صدرت باللغتين العربية والإنجليزية.

ثقافة عالميّة

دارا الزرادشتي/ عقيل الموسوي

في هذه الرواية يتتبّع القارئ القلق الذي يسكن دارا الزرادشتي وهو يبحث عن وطنه، ويحسّ بالتوترات التي يمرّ بها والتحوُّلات الكبرى في شخصيته ورحلته، ويتلمّس الشعور بالغربة والخوف لحظات الاقتراب من لحظة الموت.

والد دارا فقيه وعالم دين زرادشتي يبارك الناس، ويفسّر أحلامهم، ويشرح لهم تعاليم الكتاب المقدس (الأفستا). وتتفتح طفولة دارا على جحافل المغول تزحف نحو العالم الإسلامي، والجماعة الزرادشتية في فارس تعيش أيامها الأخيرة في ضعف وتخلٍّ واستكانة.

يتولى أبوه تعليمه الديانة والحكمة، باللهجة البهلوية ويخلف والده في منصبه ومهمّته. كان الوالد يهيِّئه للذهاب إلى الهند، ليقوم بإرشاد الجماعة هناك وتعليمهم مبادئ الزرادشتية والقيام على أعيادهم واحتياجاتهم الروحية. لكن دارا يرفض الذهاب إلى الهند، ليقوم بإرشاد الجماعة هناك وتعليمهم مبادئ الزرادشتية والقيام على أعيادهم واحتياجاتهم الروحية ويقرِّر البقاء في فارس باحثًا عن وطنه، وتبدأ رحلة دارا في استكشاف فارس.

وفي رحلته الفكرية يصطدم وعيه بشخص مانوي، حيث تبدأ لحظة وعيه الأولى التي يكتشف فيها كيف يتحوَّل الدين إلى أداة من أدوات القتل، فيبدأ يتخلص في داخله من تمجيد العنف الذي قاد لقتل ماني والمانويين. ثم يكتشف أنَّ المسلمين ينشدون الشاهنامه ويحفظون من شعر الفردوسي، فتأنس نفسه. ويقوده العمل إلى مكتبة سعدي الشيرازي في شيراز وهنا تبدأ رحلة أخرى، فيتعرّف على الإسلام ويعتنقه.

وتفتَّحت تجربته في المسجد على ما يدور فيه من جدال حول الفِرَق والمذاهب المختلفة. يُفاجأ بأنَّ أحد شيوخ الدروس في المسجد وهو أستاذه الشيخ (البلخي) يُهاجَم بتهمة الاعتزال. ويزداد إعجابه بالإسلام المعتزلي، وكأنه اكتشف شيئًا من هويته (الآريانية)، فحرية الإرادة من مفاهيم زرادشت فتصبح هويته الزرادشتية متخللة بالإسلام عبر الاعتزال وعبر التصوُّف.

يكتشف دارا أنَّ البحث عن وطن ليس بالأمر البسيط، فهو فكرة ودين ومذهب ومعتقد وأرض وتاريخ ونور وخير وأدب وفلسفة وكتب.

رحلات كثيرة يطوف بها دارا في هذه الرواية تاركًا وراءه أسئلة مُقلقة: "ترى ماذا سيقول عنّي أهل فارس بعد مماتي؟ ليس غريبًا لو ازدروني، وقالوا كان دارا مجوسيًا، أو قالوا كان معتزليًا متفلسفًا، أو درويشًا مجذوبًا، أو إسماعيليًا مهرطقًا، أو شيعيًا مغاليًا. ولو يعرفون كيف تورد الأسماء في الصحائف لقالوا كان دارا زرادشتيًا صالحًا، وكان مانويًا يؤمن بقرينه الخاص به ويشتاق للاتحاد به في السماء، وكان معتزليًا متمسكًا بإرادته، وكان متصوفًا يبحث عن سلالة نشأتها من نور إلهي، وكان إسماعيليًا يضجّ قلبه بالثورة على الظالم، وكان شيعيًا عاشقًا انتظر مخلص البشر في حال من الخوف والرجاء. مَن يصدِّق أني حملت كل هؤلاء في داخلي؟ مَن يصدِّق أني حفظتهم منسجمين في حياة واحدة؟".

لوحة للفنان عمر العطيات

وزارة الثقافة